

آخر الملائكة

منشورات الجمل

رواية

فاضل العزاوي

آخر الملائكة

رواية

منشورات الجمل

فاضل العزاوي، شاعر وناثر، وُلِد في مدينة كركوك في العراق. درس الأدب الإنكليزي في جامعة بغداد والصحافة والعلوم السياسية في جامعة لايبزج وحاز على درجة الدكتوراه عن أطروحة حول الثقافة العربية. عمل في الصحافة العراقية والعربية وأصدر مجلة الشعر ٦٩. نشر أكثر من عشرين مجموعة شعرية ورواية وكتاباً نقدياً، فضلاً عن الكتب التي ترجمها عن الإنكليزية والألمانية أو اليهما. كما ترجم العديد من أعماله إلى اللغات الأخرى مثل الإنكليزية والألمانية والفرنسية والاسبانية والايطالية والسويدية والنرويجية والهولندية والتركية والفارسية والكردية والصينية والاندونيسية والهندية. غادر العراق في مطلع ١٩٧٧ ويعيش منذ العام ١٩٨٣ في برلين ككاتب متفرغ ينشر أعماله بالعربية والانكليزية والألمانية. صدرت له عن منشورات الجمل أعماله الشعرية في مجلدين والعديد من رواياته وترجماته الشعرية والروائية.

فاضل العزاوي، **آخر الملائكة رواية**، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ما كان بالأمس خمراً أصبح اليوم خلاً

ولن يرجع الخل خمراً أبداً. ابداً.

هيرمان هيسه ـ الطريق الصعب

الفصل الأول

دخل حميد الذي ما كان قد عرف بعد بلقبه، الذي اشتهر به حتى آخر حياته، البيت الذي كانت تفوح منه رائحة البراري. دفع برجله، مثلما يفعل دائماً، الباب الثقيل، وهو باب مصنوع من خشب الجوز، زُيّن بمسامير ذات رؤوس عريضة؛ والذي ما كان ليوصد بمزلاجه ذي الأسنان البارزة إلا في الليل، وقد نمت عليه الطحالب فبدت أطرافه خضراء زاهية. ثم ارتقى بضع درجات، صاعداً إلى الغرفتين الصغيرتين اللتين كانتا تقعان فوق المدخل المؤدي إلى الفناء.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يعود فيها حميد من عمله في شركة النفط في مثل هذا الوقت المبكر. لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، مما أثار استغراب زوجته فاطمة، التي لم تكن تنتظر أوبته قبل العصر، قاطعاً عليها ضحكاتها البريئة، وهي تقف على السلم، تتحدث عبر جدار واطىء من الجص إلى جارتها في البيت الملاصق الآخر عن مسرّاتها الليلية. ولكن هذه السعادة كانت ممتزجة، في الحقيقة، بالمرارة والهّم. فقد مر أكثر من عام على زواجها دون أن تحبل. كانت قد قصدت معظم الأئمة المعروفين والمجهولين في المدينة ليكتبوا لها حجاباً ضد العُقم، يُبْطل السحر الذي كان من الواضح أن حاسداتها الكثيرات قد دبّرنه ضدها. ورغم انها لم تعلن ذلك ابداً، فإن شكوكها حامت، منذ البداية، حول نظيرة، أخت زوجها وأمها هداية؛ وهي عجوز بدينة، كانت تتعامل علناً مع الشيطان؛ إذ أن بيتها لم يكن يخلو قط من الأعشاب

والأزهار المجففة والعظام المطحونة ومواد كيمياوية مختلفة، كانت تشتريها من العطارين اليهود، في القيصرية، الواقعة عند مدخل السوق القديم.

كان بين الأئمة الذين قصدتهم فاطمة إمام أعمى، كتب لها حجاباً لقاء درهم، وقال لها: «هذا الحجاب سوف يحرق أيّ شيطان، يجرؤ على الاقتراب منك». ولكنها من أجل المزيد من الحيطة، قصدت إماماً آخر، يسكن في زقاق لا اسم له، يتفرع من محلة الجاي. وبعد شهر أو شهرين، ولأن بطنها ظلت دون انتفاخ، فقد نصحت لها جارتها أن تقصد أضرحة الأئمة الأموات؛ إذ لم يعد ثمة نفع عند الأئمة الأحياء الذين لا يكتبون أحجبتهم إلا بعد استلام النقود. وهكذا، قصدت فاطمة، متلفعة بعباءتها السوداء، الإمام أحمد، الذي كان ضريحه يقع وسط الشارع الكبير، الذي يربط منطقة المصلّى بالسوق القديم. هناك بكت وتوسلت، متعمدة إطالة الجلوس حتى لا يُغفل الإمام طلبها. وقد أوشكت سيارة عابرة أن تصدمها، إذ أنها نسيت، وهي في أوج ذوبانها الروحي والدموع تنهمر من عينيها، أنها كانت تجلس وسط الشارع. ثم زارت بعد ذلك إماما كرديا في مقبرة المصلّى، يقال إنه كان يكّلم الطيور، فتفهمه وتطيعه. وبعد شهر من ذلك، وإذ لم يحدث أيضاً أي تغيير عليها، رغم أنها كانت ترغم زوجها على النوم معها أكثر من مرة في الليلة الواحدة، جاءت أمها إليها، وقالت لها: «سوف نقصد هذه المرة ضريح ولي يهودي، فليس هناك من هم أكثر ولاءً للشيطان من اليهود. الشر لا يُبطله إلا الشر». ولكنها عندما روت ذلك، في صباح اليوم التالي لجارتها، نصحت لها هذه بأن تذهب إلى القلعة، وتطلب من أحد بيوت النصارى سنّ خنزير؛ قالت إنهم يضعونه، عادة، في خوابي الماء، ثم تدسّه تحت وسادة زوجها؛ إذ ما من شيء يخشاه إبليس أكثر من سنّ الخنزير. إلا

أنها، وربما أيضاً بسبب اليأس من الأولياء الذين فقدوا كراماتهم، قررت الكف، ولو مؤقتاً، عن هذه المحاولات الخائبة وزيادة عدد المرات التي تنام فيها مع زوجها. فقد كانت تعرف، وربما عن حق، أن الأمر كله يتقرر فوق السرير أكثر من أي مكان آخر، حتى إذا كان هذا المكان مرقد أقرب الأولياء إلى الله. ومع ذلك، فإن فاطمة لم تكن مكترثة كثيراً بالأمر لولا إلحاحات أمها، وتلميحات العجوز هداية وابنتها نظيرة اللتين كانتا تتعمدان الحديث معها بصورة ملغزة، كالقول: إن البقرة التي لا تنجب تذبح». وكانت سعيدة، بصورة ما، بابتهاجاتها الليلية مع زوجها، الذي لم يكن قد فكر، ولو مرة واحدة، في إنجاب الأطفال. فقد كان حبه للنساء يطغى على أي حب آخر في حياته. والأكثر من ذلك، أنه كان يريد أن يظل محتفظاً، أطول فترة ممكنة، بشعوره كشاب غير مثقل كثيراً بالأعباء؛ حيث يخرج صباحاً إلى عمله في شركة النفط، ولا يعود إلى البيت إلا عندما يطيب له ذلك. فقد اعتاد أن يعود أحياناً عصراً، ولكنه كثيراً ما كان يتأخر حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً، دون أن يزعج ذلك فاطمة، التي لم تكن لتعرف أي شيء عن عمله سوى ما يرويه هو لها من القصص. كانت تعرف أنه يقود سيارة مخصصة لمهندس انكليزي وزوجته، حيث يقوم بنقلهما من مكان إلى آخر وانتظارهما، مدركة أن ذلك كان يتطلب منه التأخر في العمل في أغلب الأحيان. وكان يضطر، بين الحين والآخر، للسفر إلى مدن ومناطق أخرى، برفقة الصاحب ثم يعود جالباً معه إلى البيت، وخاصة أثناء الأعياد المسيحية، شوكولاته لندنية أو قطعاً من جوز الهند المحلّى بالسكر، والذي لم تكن قد تذوّقته من قبل. ولذلك، ما كادت ترى زوجها يدخل البيت، حتى هرعت إليه. فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يعود فيها في مثل هذا الوقت من العمل منذ زواجها. وقد سبب لها ذلك بعض الحيرة

والشعور بالقلق. وجاهدت للسيطرة على نفسها؛ حتى لا تسأل عن سبب عودته المبكرة. ولكنه بادرها مبتسماً: «أريد أن أتمدد قليلاً». عند ذلك فقط، واتتها الشجاعة، لتسأل مضطربة: «أرجو ألا تكون مريضاً»، فردّ عليها، وهو يرتقي السلالم إلى غرفتيهما الواقعتين فوق مدخل البيت: «لا أبداً، إنني متعب فقط». وكان هذا جواباً كافياً، بالنسبة لها، لتقول له: «حسناً، سوف أسرع في الطبخ، لنتغدى معاً». وانصرفت تُعدّ الطعام، وهي ممتلئة، بصورة ما، بالرضا والسرور، لوجود زوجها معها في البيت. وحتى إذا كان ثمة شيء، فإنه سيخبرها به بالتأكيد. كانت واثقة من ذلك.

ولكن زوجها ظل صامتاً هذه المرة، على عكس عادته. والأكثر من ذلك، إنه لم يبرح سريره، حتى عندما حلّ العصر، ليذهب إلى المقهى أو يزور أصدقاءه، بل لم يخرج إلى الشارع، ليتحدث مع شبان المحلة، الذين يلتقون كل مساء أمام دكان يقع لصق مسجد المحلة. والأسوأ من ذلك، أنه لم يغادر البيت في اليوم التالي أيضاً، ليذهب إلى العمل. عند ذاك فقط، أدركت فاطمة أن هناك أمراً ما، يخفيه عنها أو لا يريد البوح به، وأنه لا بد من أن يكون خطيراً. وقد اضطرتها مخاوفها إلى الإلحاح عليه ليخبرها بحقيقة الأمر، إلا أنه لم يقل لها سوى أنه قد أخذ إجازة لبضعة أيام. شعرت بشيء من الطمأنينة، ولكنها لم تكن واثقة تماماً، فربما كان يحاول الزوغان، مفكراً بعدم إزعاجها أو إقلاقها. فهي تعرف أنه عندما يكون في مزاج طيب، يروي لها القصة بعد الأخرى عن المستر ماكنلي وزوجته اللعوب، هيلين، والانكليز الآخرين، الذين كانوا يعملون في منطقة باب كركر في شركة النفط في كركوك. وكانت تعرف أن كل انكليزي يلقّب بكلمة صاحب، وأن الشركة هي ملكهم، وكانا يضحكان كثيراً وهو يروي لها كيف أن النساء الانكليزيات لا يخجلن من عرض

أجسادهن العارية أمام العمال، وكيف أنهن يتقافزن بالفانيلة والبنطلون القصير إلى جانب أزواجهن ذوي القرون، الذين يتباهون بزوجاتهم. بل إنه اكتشف أن لزوجة الصاحب أكثر من عشيق إنكليزي، كما كان مطلّعاً على علاقة الصاحب مع ابنة خمو، وهو آشوري، يعمل في الشركة بدرجة فص كلاص[1]؛ والأكثر من ذلك، أن والدها كان يشجعها على الاستمرا ر في علاقتها به. أما الصاحب وزوجته، فلم يكونا يحاولان حتى التستر على علاقاتهما أمامه، كما لو أن الأمر طبيعي جداً، بل إن زوجة الصاحب البرونزية الجميلة، كانت تخرج من عند عشاقها، وتستقل السيارة التي تكون في انتظارها، كما لو أنها عائدة من الصلاة. وذات مرة، عندما كانوا في الحبانية، على ضفة البحيرة، تعرت هيلين حتى آخر قطعة ملابس. وإذ رأت حميداً يحدق في جسدها، بجنون واشتهاء وقد استولت عليه الدهشة، غمزت له، مبتسمة، بطرف عينها، قبل أن تنحدر في الماء. وكانت فاطمة كثيراً ما تداعبه ضاحكة: «ما الذي تريده أكثر من ذلك؟ إن الكثيرين مستعدون ليدفعوا من جيوبهم لقاء مثل هذا العمل الممتع». ولكن حميداً لم يكن ليجد، في الحقيقة، في عمله المتعة التي كانت تتصورها زوجته. فقد كان يرى نفسه، في أغلب الأحيان، مهاناً، وهو يجلس وراء مقود السيارة، ينتظر خروج هيلين من حفلة مضاجعة. وكانوا أحياناً يدعونه للدخول إلى البيت، مقدمين له الليمونادة، في غرفة الخدم، وليسمع بعد ذلك تأوهات سيدته على السرير في الغرفة الأخرى، مع عشيقها الذي تزوره. كان ذلك يدفعه إلى الجنون والهياج، دون أن يجرؤ حتى على الاحتجاج أو الرفض. وكان يأمل، بطريقة ما، أن تشتهيه ذات

---

(١) فص كلاص التي كانت تشكل درجة متقدمة عند العمال مأخوذة من المصطلح الإنكليزي .First Class

يوم، وتدعوه إلى مضاجعتها، ولكن ذلك اليوم لم يأت أبداً. وبعد حادث تعري المسز هيلين ماكنلي في الحبانية وغمزتها المتواطئة معه، ظل طيلة أكثر من شهر في حيرة من أمره، يرغب فيها، ولكن دون امتلاك الجرأة على كسر الحدود التي تفصله عنها، بل إن صورتها، وهي تقف عارية أمامه، لم تفارق رأسه؛ إذ كثيراً ما كان يفكر فيها وهو ينام مع زوجته. ولم يكن ذلك ليشكل، في نظره، انتقاصاً من حبه لزوجته، فهذه هي زوجته بعد كل شيء، أما المسز هيلين ماكنلي، فلم تكن أكثر من عاهرة، من حقه، كرجل، الحصول على فرصته معها. وكان متأكداً من أنه سوف يثبت لها في الفراش أنه أفضل من جميع عشاقها الآخرين، منتقماً بذلك لنفسه، وماحياً الإمتهان الذي كان يشعر به في كل مرة تصعد فيها إلى السيارة، قاصدة أحد عشاقها.

لم يذهب حميد بعد ذلك أبداً إلى الشركة. وكان لا بد للسر من أن ينكشف في نهاية المطاف، على الرغم من أنه حاول تأجيله اليوم بعد الآخر. فقد عرف الناس في محلة جقور من العمال الآخرين، الذين يعملون في الشركة، أن حميداً قد فُصل من العمل، ولكنهم بدل أن يواسوه غرقوا في الضحك، وانتقلت قصته من فم إلى آخر، حتى عرفت بها المدينة كلها. ومنذ ذلك اليوم، حصل على لقب جديد، ظل مرتبطاً باسمه حتى النهاية؛ حتى لكأن هذا لقبه الحقيقي، ولم يعد حتى الأطفال الأبرياء ينادونه بغير هذا اللقب، الذي قَبِله هو الآخر في النهاية، وأضافه إلى اسمه: حميد نايلون.

والقصة، كما يرويها هؤلاء، نقلاً عن عمال الشركة، هي أن حميداً، الذي كان يعمل سائقا خاصاً عند المستر ماكنلي وزوجته، أراد أن يجرب حظه عند الزوجة وأن يكسب ودّها. فقد عاد ذات يوم من سفرة إلى أيج ثري والرطبة، وهو يحمل إليها هدية بسيطة، جورب

نايلون. ولكن المسز ماكنلي، التي لم تكن لتعتبره أكثر من خادم لها، رمت الجورب في وجهه وطردته. وهناك من يقول إنها قد قبلت الهدية منه أولاً، ثم عندما سألته عن السبب، انحنى عليها، وأراد أن يقبلها، مقلداً في ذلك بعض مشاهد الأفلام، التي كان قد رآها. عند ذاك، صفعته على وجهه، صارخة ومتهمة إياه بمحاولة اغتصابها. وكان هناك آخرون ادعوا بأنها كانت تنام معه، غير أنها ملّت منه بعد مدة؛ ولذلك، اتخذت من جورب النايلون ذريعة لطرده. وزعمت نساء المحلة أنه كان صديقاً للمرأة الانكليزية، وأنه قد أهداها بالفعل جورب نايلون، إلاّ أن زوجها، الذي كان يشك في الأمر، اتخذ من هذا الجورب ذريعة لإبعاده عن زوجته، ففصله من العمل. ظل حميد نايلون صامتاً أياماً عدة، يرفض أي كلام عن الحادث، ولكنه بعد أن استعاد توازنه مرة أخرى قال جملة واحدة فقط، واكتفى بذلك: «لا شيء صحيح في كل هذه القصص سوى جورب النايلون».

وعلى الرغم من أن الناس في محلة جقور إعتبروا فصله من الشركة أمراً طبيعيا، لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً ضده، فقد حاول بعض عمال الشركة ومعظم شبان المحلة، الذين كانوا يتدربون كل يوم في الزورخانة، التي حفروها في الخرابة الواقعة إزاء البيت، الذي كان حميد نايلون يسكن فيه، تحريض الناس في المحلة ضد شركة النفط، بل إن إمام محلة جقور ذكر في مجلسه، الذي كان ينعقد تلقائياً كل يوم في الجامع، بعد صلاة العشاء: «لقد قطع الانكليز رزق واحد من شبان محلتنا، بسبب جورب نايلون، وهذا أمر لا يمكن أن يقبل به الله أو نبيه». وقد بلغت الحمية ببعض النساء أن شتمن باعة النفط الفقراء وغافلنهم، فاتحات صنابير براميل النفط، التي كانت تجرها الحمير، وتركن النفط يتدفق في الشارع، قائلات للباعة، الذين لم يفهموا حقيقة الأمر حتى النهاية: «اذهبوا وافتحوا صنابير نفطكم في

فرج الانكليزية». وتدخل عقلاء المحلة مرة أخرى: وما ذنب هؤلاء الفقراء؟» ولـم تكن عائلات عمال الشركة لتريد، بالتأكيد، أن تفقد امتياز شراء النفط بأسعار مخفضة، عن طريق كوبونات، تباع للعمال. والأكثر من ذلك، أن النقابة السرية، التي كانت قد نشطت بين عمال النفط، وزعت منشوراً ضد فصل حميد نايلون، مطالبة بإعادته إلى العمل، ولكن أحداً في محلة جقور لم يطّلع على هذا المنشور، وكان هذا أفضل؛ فلو شعر الناس أن القضية سياسية، لخافوا بالتأكيد. وإذا كانت محلة جقور لم تشترك في كل تاريخها، الذي يمتد إلى مئة عام على الأقل، في أية مظاهرة احتجاج، فإن العديدين فيها كانوا قد سمعوا بالمظاهرات، بل إن بعضهم كان قد شاهد المظاهرة التي مرت بالسوق الكبير، قبل شهور. وكان هناك أيضاً بعض القصابين الذين ساعدوا الشرطة في الهجوم على المتظاهرين وضربهم، بعد أن قيل لهم إن هؤلاء المتظاهرين يطالبون بإباحة النساء، مرة في الأسبوع، كل يوم جمعة.

وهكذا، تقرر بعد شهر من فصل حميد نايلون من عمله، أن تخرج المحلة، ذات يوم جمعة، في مظاهرة؛ تطالب بإعادة إبنها المطرود إلى عمله في الشركة. وقد تحمس الجميع للفكرة، بعد مناقشتها طويلاً في المقاهي، التي كانت تتحول إلى ندوات مفتوحة، عصر كل يوم. وتحول الأمر إلى ما يشبه الواجب الديني، عندما قال الملّا زين العابدين القادري إن المسلمين كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وعلى إثر ذلك، قام نقّاش عجوز، اشتهر بحفر خطوط شواهد القبور على المرمر، بخط اللافتات التي ابتكر نصوصها بنفسه.

ذات يوم، بعد صلاة الجمعة، خرج الموكب الذي انضم إليه الأطفال والنساء. وكان الرياضيون من أبناء محلة جقور، وقد انضم

إليهم رياضيو المحلات الأخرى، يحملون لافتات، كتب عليها، بمختلف الخطوط؛ الرقعي والفارسي والكوفي: «لا إله إلّا الله، محمد رسول الله» و«بسم الله الرحمن الرحيم» و«لك يوم يا غادر» و«حميد نايلون مظلوم» و«حميد نايلون صاحب عائلة والرزق على الله» و«يعيش حميد نايلون». وكانت ترتفع إلى جانب هذه اللافتات رايات خضر، جلبوها من المساجد، تنتهي رؤوس مساندها بنقوش: «الله» و«محمد» و«علي». وإذ رأى الأطفال ذلك، هرعوا إلى بيوتهم، وجلبوا أية خرقة وجدوها، وربطوها بأعواد، راحوا يهزونها، متقافزين داخل الحشد وأمامه. وأخرج دراويش المحلة سيوفهم وحرابهم، وراحوا يلوّحون بها، منتشين بالزغاريد، التي تطلقها النساء بين حين وآخر، وهتافات «الله أكبر». وكان ثمة ثلاثة أو أربعة أيضاً، من بينهم اللص محمود العربي؛ الذي كان يسطو على البيوت ليلاً، خارج محلة جقور، بالطبع، قد ذهبوا وجلبوا مسدساتهم، لسبب شعورهم بالمسؤولية تجاه أبناء محلتهم، وراحوا يطلقون النار في الهواء. ولكن إمام الجامع نهاهم عن ذلك، فكفّوا عن إطلاق الرصاص، وإن ظلوا حاملين مسدساتهم في أيديهم. وكان الكثير من الأولاد قد لطّخوا وجوههم بالسخام، حتى بدوا أشبه بالعبيد أو بالعفاريت، في حين ارتدى آخرون رؤوس ماعز، مربوطة بجلود تنحدر حتى أقدامهم، طاعنين الهواء بقرونهم، بينما كان بعض الشيوخ يسكبون، من قارورات برونزية صغيرة، ماء الورد على المحتشدين. وحمل آخرون في أيديهم صور الحسن والحسين والقديس الذي يقتل التنين والملك الطفل فيصل الثاني والملك غازي وكمال أتاتورك، بل وحتى صورة الفنانة ابنة التبان، التي جيء بها وهي داخل إطارها من مقهى في السوق الكبير.

وأخيراً، انطلقت المظاهرة. ولكن إلى أين؟ لم يكن أحد يعرف

ذلك. اخترقت المظاهرة محلة جقور، ذهاباً وإياباً، داخلة كل الأزقة وخارجة منها، وتوهّمت النساء، اللواتي كنّ يتفرجّن من السطوح، أنها موكب دعاء لاستجلاب المطر، بسبب الوجوه المصبوغة بالسخام ورؤوس الماعز، فرُحن يسكبن الماء فوق رؤوس المتظاهرين، كبشارة خير. وبعد ذهاب وإياب، في المحلة، صاح أحد الأشخاص: «لنذهب إلى الشركة ونعرض مظالمنا». ونادى آخر: «بل لنذهب إلى القشلة ونعرض الأمر على الحكومة». ولكن الملّا زين العابدين القادري، إمام الجامع، الذي كان يسير في المقدمة، وإلى جانبه شيوخ المحلة، وقف وألقى خطبة، ظل الجميع يتذكرونها فترة طويلة من الزمن. قال: «ليس من المعقول أن نسير من هنا حتى الشركة في بابا كركر، لنقدم التماسنا إلى الانكليزي وزوجته المستهترة، التي هي من أهل الكتاب، إذ أننا سوف نموت قبل ذلك من التعب في الطريق. والأكثر من ذلك، ان الله ورسوله ينهيان المسلمين عن إحناء رؤوسهم للكفار. فإذا ما ذهبنا إلى هناك، توجب علينا أن نقدم آيات الخضوع والطاعة، ونطلب الرحمة من قحبة وبعلها القوّاد. وهذا أمر لا يليق بكرامة محلة جقور. وقد سمعتُ آخرين يطلبون منا التوجه إلى القشلة أو السراي. ولكن ما علاقة الحكومة بفصل حميد نايلون من عمله؟ ان الذين فصلوه من العمل هم من الإنكليز، وليسوا من أبناء جلدتنا، الشيوعيون الحمر، وحدهم، يشاكسون الشرطة والحكومة، والحمد لله أننا لسنا شيوعيين أو موسكوفا». وعندما بلغ الإمام زين العابدين القادري هذا الحد من كلامه، ارتفعت من بين المحتشدين المتحمسين أصوات متسائلة: «ماذا نفعل إذاً؟» وأعطى الإمام جوابه بسرعة، وسط الصمت العميق الذي خيم على المكان، وكان جوابه حاسماً ومفحماً هذه المرة: «سوف نقصد الله». ولم يفهم الجمهور تماماً معنى هذه العبارة، ذات الجلال. ولذلك، واصل كلامه قائلاً: «صحيح أن

حميد نايلون طرد من العمل، ولكن البلاء هو أكثر من ذلك. فنحن جميعاً مهددون بالقحط؛ إذ لم تسقط قطرة مطر واحدة حتى الآن. وإذا لم يرحمنا الله، ويدفع بغيومه فوق مدينة كركوك، فسوف نتضور جوعاً. فلنذهب جميعاً إلى برية المصلّى، ونبتهل بالدعاء إلى الله ورسوله، من أجل هبوط المطر وحلول الخير والبركة على الجميع».

وهكذا، توجه الناس، وسط قرع الطبول ونقر الدفوف، حاملين راياتهم الخضر ولافتاتهم المطالبة بإنصاف حميد نايلون، إلى ساحة المصلّى التي عبروها إلى المقبرة المفتوحة، التي تختبىء بين صخورها الهداهد والقبّرات التي جفلت فراحت تحلق في الجو، حتى انتهى الحشد البشري إلى البرية التي كان التركمان يطلقون عليها اسم يدي قزلر»، حيث توجد بقايا مطاحن حجرية مهجورة. وهناك، وقف الجميع بخشوع ومهابة في مواجهة الله، رافعين أيديهم إلى السماء في صلاة موحّدة ودعاء من القلب، مصحوب بالدموع، من أجل هبوط المطر وإعادة حميد نايلون إلى عمله. لقد مكثوا هناك أكثر من ساعة، طالبين إلى الله أن يغسل الوجوه الملطخة بالسخام بالمطر الغزير. وفجأة، تلبدت السماء بغيوم سود، قادمة من الشرق، فارتفعت التهاليل، مكبرة رحمة الله وقدرته، شاكرة إياه على سماع نداء أبناء محلة جقور. وبالفعل، أرعدت السماء وأبرقت، وفاجأ المطر المتظاهرين المصلّين، الذين لم يفلحوا في بلوغ بيوتهم إلا بشق الأنفس، مبللين وغارقين في السيول التي اجتاحت المحلات كلها. لقد حدثت معجزة جعلتهم ينسون تماماً قصة حميد نايلون، الذي راح هو الآخر يشارك الآخرين ضحكهم على غرامياته مع المسز هيلين ماكنلي.

هذه المعجزة تركت آثاراً لا تمحى في ذاكرة الناس، بحيث أنهم ظلوا فترة طويلة يتناقشون ويتشاجرون حول صاحب الفضل في

المعجزة، وعما إذا كان الله قد استجاب لنداء أحد ما بالذات أو لندائهم جميعاً. وقد توصلوا، بصورة ما، إلى أن الله لا يمكن أن يكون قد استجاب لدعاء أحد من العرب القلائل الذين شاركوا في موكبهم ذاك، فهؤلاء لا يغسلون مؤخراتهم أبداً، فضلاً عن أنه قد كُتب عليهم أن يكونوا خونة إلى أبد الآبدين، فقد ساعدوا الكفار الانكليز، في حربهم ضد العثمانيين المسلمين، وقاتلوا إخوانهم الأتراك، بدون أي اعتبار للدين الذي يوحدهم. فقد كان التركمان يهينون العرب عادة، في أي شجار ينشب معهم، بالقول: «خائن عرب»، أو «هؤلاء العرب، ذوو المؤخرات الملطخة بالخراء»، حتى بات الكثيرون من الأطفال العرب يتمنّون لو أن الله خلقهم تركماناً، بل إن بعضهم كان يشارك الأطفال التركمان حماستهم وتأييدهم لبعض الأحزاب الموجودة في تركيا، والتي كان العديد من الشبان التركمان يعتبرون أنفسهم من أنصارها. وكانت صورة كمال أتاتورك، وهو ببدلته العسكرية ونياشينه ووجهه المائل إلى الاستطالة، معلقة على جدران معظم البيوت، في حين لم يجرؤ إلا العرب على تعليق صورة الملك أو الوصي أو حتى الملكة عالية، التي كان الكثيرون يكنّون لها الودّ، وبصورة خاصة النساء، ربما لأنها كانت أرملة، أو ربما لأن الانكليز هم الذين قتلوا زوجها الملك غازي، طبقاً للروايات الشائعة، انتقاماً من إقدامه على ذبح الآشوريين، الذين أرادوا أن يشكلوا دولة خاصة بهم في شمال العراق، برئاسة مار شمعون، الذي نجا بجلده، هارباً إلى أميركا. وكانت النساء يروين لأطفالهن، بزهو، كيف خرج الناس في كركوك، ذات يوم، لاستقبال الجنود المنتصرين العائدين ورجال العشائر المسلحين، وكل منهم يحمل في يده رأس آشوري كافر. وتقول النساء إن عيون هذه الرؤوس المقطوعة كانت من قلة الحياء، بحيث أنها ظلت تبحلق فيهن، ملقية نظرات وقحة عليهن،

مما دفع الكثيرات منهن إلى إسدال النقاب مرة أخرى فوق وجوههن، وهنّ يلعنّ إبليس والآشوريين.

وهكذا، إذا كان قد جرى حذف فضل العرب في صنع هذه المعجزة، فإنه لم يكن هناك، بالطبع، أي موقع للأكراد في ادعاء مثل هذا الفضل. والحق، أن الأكراد أنفسهم، وهم عائلتان أو ثلاث عائلات طارئة على محلة جقور، نفوا أن يكونوا طرفاً في هذه القضية المتعلقة بالله.

ولم يكن بالإمكان، على أي حال، أن يدّعوا العكس، فقد كانوا من ضعف العقل، بحيث أنهم لم يكونوا ليفرّقوا بين الزبيب الأسود والخنفساء. كانت محلة جقور كلها تعرف أنه جرت دعوة عدد من الأكراد، ذات مرة، فوُضع أمامهم زبيب أسود مخلوط بالخنافس، فراحوا يقتنصون الخنافس الشاردة ويلتهمونها، قائلين لبعضهم: «كلوا الزبيب الهارب أولاً، أما الزبيب الآخر، فإنه باق في مكانه». فهل كان يمكن لله أن يستجيب لدعاء مثل هؤلاء الحمقى؟ لم يكن الأمر ليستحق حتى المناقشة أو الخوض في تفاصيله.

كان من الواضح أن الله قد استجاب لدعاء التركمان قبل غيرهم. ولكن هل استجاب لدعائهم جميعاً أم لدعاء واحد أو اثنين فقط؟ ولأنه كان من الصعب إثبات مثل هذا الأمر المعقد، فإن الآراء تضاربت تماماً. فقد ادّعى بعضهم أن هذه المعجزة هي من صنع المجنون دلي إحسان، الذي رفع يده إلى السماء، كما كان يفعل دائماً، وأمر الغيوم أن تمطر، فأمطرت. وكانت لهؤلاء حجتهم التي لا ترد. وهي أن دلي إحسان ليس من البشر، وإنما من الجان، الفصيلة المسلمة منها. ولم يكن هذا سراً، فقد كان الجميع يرونه كل يوم، وهو يقطع محلة جقور أو يتجول في السوق الكبير، يقف المرة تلو المرة ويصرخ في وجوه الجان، الذين كانوا كما يبدو، يشاكسونه أو

يزعجونه، ثم يواصل سيره ليلتفت مرة أخرى إلى الوراء ويشتم الفراغ. وكان في إمكانه أن يقف أمام أي حانوت ويأخذ ما يشاء، دون أن يطالبه أحد بدفع الثمن، ولكنه والحق يقال لم يكن ليأخذ سوى ما يحتاجه هو بالذات، برتقالة من هنا وتفاحة من هناك. وكان يجلس أحياناً في زاوية منفردة في المقهى ويحتسي «استكاناً» من الشاي الذي لا يدفع ثمنه، بالطبع، وينصت، بانتباه، إلى راوية المقهى، وهو يقص سيرة عنترة بن شداد أو سيف بن ذي يزن أو نوادر الملّا نصر الدين، فيبتسم هازّاً رأسه، ثم يخرج إلى الشارع. وعند ذاك، يتمتم بعض رواد المقهى: «يا له من محظوظ، لقد نادته ملكة الجن إليها». وكانت قصة علاقته بالجن قد انكشفت قبل سنوات طويلة، وهي قصة كان يعرفها حتى الأطفال في محلة جقور. وحقيقة الأمر، هي أن الحاج أحمد الصابونجي، وهو تاجر جملة في سوق الحبوب، والأكثر غنى في المحلة، استيقظ ذات ليلة من نومه، على صوت يكاد يكون غير بشري أمام غرفة نومه، فتناوم، مصغياً بكل حواسه إليه. كان ثمة من يهمس في الظلمة: «هارون، هارون، هل أنت مستعد؟» كان السائل قطاً غريباً لا يعرفه. ثم رأى هارون، وهذا هو اسم قط البيت، يأتي إلى القط الآخر، ويحييه ثم يقول له: «لقد استعرت بعض ملابس سيدي لنا»، فيرد القط الثاني: «خشيت أن تكون قد نسيت أو استولى عليك النعاس فنمت» ويجيب هارون: «ليس في ليلة مثل هذه. كيف يمكن أن انسى حفلتنا السنوية؟» وأخيراً وثبا بهدوء فوق الجدار، منحدرين مرة أخرى إلى الشارع. واستبد الفضول بالحاج أحمد الصابونجي، فخرج هو الآخر إلى الشارع، متابعاً إياهما من بُعد. سار القطان، وكل منهما يحمل كيساً في عنقه، باتجاه السوق ثم انسلا يميناً في زقاق جانبي، وانتهيا إلى الشارع العام

المحاذي للقلعة، مواصلين سيرهما البطيء والهادىء حتى حمّام النساء. وأمام باب الحمّام الجانبي، رأى قطه هارون والقط الآخر يتحولان إلى رجلين، فتحا كيسيهما، وارتديا الجلبابين اللذين جلباهما معهما، ثم دفعا الباب واختفيا في الداخل، حيث سمع الحاج للحظات صوت موسيقى عذبة، مسكرة، تأتي من فناء الحمّام. ودقّ قلبه بعنف، فقد ميز أحد الرجلين. كان هو بعينه: دلي إحسان. وتردد الحاج لحظات، لا يعرف ماذا يفعل: هل يدخل هو الآخر أم لا؟ كان خائفاً، ولكنه بسمل وقرأ آية الكرسي، ثم دفع الباب ودخل، مسلّما مصيره للقدر. وهناك رأى منظراً، لم تره عين بشرية من قبل، ولن يرى الحاج أحمد الصابونجي مثيلاً له ما دام حياً. كان فناء الحمّام الذي تقصده زوجته مرة كل أسبوع مع الأطفال، حاملة معها «بقجتها»، قد تحول إلى قاعة هائلة من الزجاج الملون، تتدلى من سقفها ثريات ضخمة من اللآلىء وتحيط بها دكّات من الذهب الخالص، وقد نُقشت عليها كتابات سحرية، ما كان في إمكانه أن يفقه كلمة واحدة منها. وكانت طيور خضر وزرق وحمر وصفر وبيض تحلّق في أعلى القاعة، عازفة موسيقى، كأنها غناء أهل الجنة. وشمّ الحاج رائحة بخور مسكرة، جعلته ينسى أنه في حمّام في كركوك، بل إنه نسي أنه موجود في العالم أصلاً. وقد أثار استغرابه، بصورة خاصة، وهو أمر لم يجد له تفسيراً أبداً، أن القاعة كانت تنفتح على ساحل بحر هائل، تقطعه سفن قادمة من بعيد، تقودها قطط من كل الأصناف تقفز إلى الساحل، حال وصول السفن والقوارب إليها، وتتحول إلى شبان وشابات، رائعي الحسن. كان يعرف، هو الذي أمضى حياته كلها في هذه المدينة، أنه ما من بحر في كركوك، ولم يكن خاصة صو، الذي يخترق البلدة، أكثر من نهر، غريب الأطوار،

يجف تماماً في الصيف، ويتحول إلى نهر هائج، متدفق في الشتاء، يفيض، أحياناً، فيهدد محلة الجاي بالغرق. وكان هناك خلق كثير، يرتدون أفخر الثياب. وفي صدر القاعة، جلس الملك والملكة على عرش مرصّع بالدر والياقوت، يحيط بهما الوزراء والأعيان، ويقوم بالخدمة غلمان وجوار، يرتدون الحرير، ويقدمون الطعام والفواكه في أطباق من الذهب الخالص. وقد عرف الحاج أحمد أن هؤلاء كانوا من الجان المسلمين، وأن اسم ملكهم هو حرذوب، أما الملكة فكانت تُدعى مرجانة.

وكان الحاج أحمد الصابونجي، الذي بهرته الأضواء وجلال المكان، قد أندسّ بين الحاضرين، دون أن يشعر به أحد، ثم رأى قوماً يدبكون، مغنّين، فشاركهم الرقص حتى لا ينتبه أحد منهم إلى هذا البشري المندسّ بينهم. كانوا يغنّون جميعاً بصوت واحد، في دبكة تشبه السحر:

رأيتُ حبي بعين قلبي
فقال: من أنت؟ قلت: أنتا
أنت الذي جزتَ كل حد
لمحو أين، فأين أنتا؟
فالآن لا أين منك أين
وليس أين بحيث أنتا
وليس للوهم عنك وهم
فيعلم الوهم أين أنتا

وكان الحاج أحمد الصابونجي نفسه يحفظ هذه الأبيات المنقولة عن الحسين بن منصور الحلاج، فراح يرددها معهم. وقد عرف، من الحاضرين، أن هذا الشاعر، الذي صُلب على جذع نخلة في بغداد، لم يكن إنسياً، في الحقيقة، وإنما هو واحد من الجان الأتقياء. وكانوا

يعزّونه كثيراً جداً، حتى أن مركزه كان يأتي تالياً لمركز الملك سليمان الحكيم، الذي يمتلك سلطة، لا حدود لها، على جميع طوائف الجن.

وفي غمرة الفرح الذي كان يعم الجميع، أراد الحاج أحمد الصابونجي أن يترك أثراً، لا يمكن الشك به فيما بعد. وهكذا، اقترب من هارون، الذي كان يرتدي جلبابه الكحلي، وأحرق كم الجلباب من الخلف بعقب سيجارته، محدثاً ثقباً صغيراً، دون أن يشعر به. وأخيراً، وجد فرصة، انسل فيها مرة أخرى إلى الشارع، وهو في حيرة من أمره. وفي الطريق إلى البيت، في الظلام الذي كان يبدّده، بين مسافة وأخرى، مصباح واهن، صادف لصوصاً، يحملون أكياسهم على ظهورهم وحراساً ينفخون في صافراتهم بين حين وآخر، وسكارى يغنّون بأعلى أصواتهم، منفردين، أغاني خوريات، فيردّ عليهم سكارى في شوارع أخرى بأغاني خوريات[1]، تكون أجوبة على أغاني الخوريات التي كانوا قد سمعوها لتوّهم، منتظرين الجواب من جديد. ولكن الحاج أحمد الصابونجي كان غارقاً في عالم آخر. ولم يكن ليهمه أحد، لا اللصوص الخائفون، ولا الحراس الليليون ولا حتى أغاني الخوريات القريبة من نفسه. كان يرتجف من الإثارة والرهبة حتى لكأنه نبي، هبط عليه الوحي، إذ ما كاد يبلغ بيته، حتى اندّس في فراشه، متأملاً في أحداث ليلته العجيبة. حاول أن ينام، ولكن دون جدوى، فظل ساهراً حتى الفجر، حيث سمع هارون يثب مرة أخرى على الجدار، ويتسلل إلى البيت، ثم يقول، من ثقب

---

(١) الخوريات: نوع من الشعر الشعبي ينظم على شكل رباعيات جناسية ويمكن اعتبارها أساسا للشعر التركماني.
عبد اللطيف بندر اوغلو «التركمان في عراق الثورة» بغداد ١٩٧٣.

الباب، لدلي إحسان، الذي ظل، كما يبدو، في الشارع: «لقد كانت ليلة طيّبة، أليس كذلك؟» وسمع دلي إحسان يهمس: «طبعا، طبعا»، ثم يضيف: «مع السلامة». فيرد هارون بمودة: «ليكن النبي سليمان معك».

لم يغلق الحاج جفناً طيلة الليل، ولم ينهض إلا لأداء صلاة الفجر، حيث شاهد هارون يتمطّى عند العتبة، وكأن شيئاً لم يكن. تعمّد الحاج ارتداء جلبابه الكحلي، حيث وجد الثقب الذي كان قد أحدثه فيه بعقب سيجارته. إذ ذاك، التفت إلى هارون، وسط دهشة زوجته، وقال له: «هل رأيت يا هارون؟ لقد أحرقت جلبابي. كان ينبغي أن تستأذن مني قبل ارتدائه». فهم هارون أن الحاج قد اكتشف حقيقته، فخفض رأسه، وغادر المنزل، حيث لم يره أحد بعد ذلك.

منذ ذلك اليوم، وبعد أن روى الحاج أحمد الصابونجي قصته هذه في المقهى، اكتسب دلي إحسان هالة من القداسة. صحيح أن عامة الناس، وبخاصة السذج منهم والأطفال، كانوا يهابونه، إلاّ أن عقلاء المحلة كانوا يعتبرونه هدية الله وبركته لهم، فهو كجنيّ مسلم في هيئة إنسان، لا يمكن إلّا أن يحمل الخير لهم. وكان المجنون، على عكس جميع المجانين الآخرين في المدينة، أنيقاً حتى الإفراط ونظيف الملابس دائماً، يتصرف برصانة مثيرة للأعجاب، ما عدا مناجياته العلنية مع الجن. وبالطبع لم تكن عنده عصا، يتخذ منها دابة، كما يفعل المجانين الآخرون. والأكثر من ذلك، أنه ما من طفل كان يجرؤ على متابعته أو الركض وراءه، على كثرة امتلاء المحلة بالأطفال. وما من رجل كان يمكن أن يفكر، مجرد أن يفكر، في السخرية أو الهزء منه، لأن أمراً مثل هذا كان يمكن أن يكّلفه حياته.

لم يكن ثمة شك عند الناس بالأصل الحقيقي لدلي إحسان، بل إنهم توصلوا حتى إلى معرفة أصله في عائلة الجن. فقد كانت هناك

أولّا قصة الحاج أحمد الصابونجي، الذي لم يكن لأحد أن يشك في تقواه ونزاهته وصدق أفعاله. ولكن هذا لم يكن سوى واحد من الأدلة. فقد اضطرت أمه وهي عجوز، تجاوز عمرها المئة عام إلى الاعتراف وسط إلحاح الجيران، بأن واحداً من ملوك الجان، يُدعى قمر الزمان، كان يعشقها ويزورها سراً في الليالي، وأنها قد تزوجته على سنة الله ونبيه محمد، فأنجبت منه إحسان الذي حاولت إخفاء حقيقته عن الجميع. وقد أُسِر بعلها، بعد ذلك، في إحدى حروبه ضد الجان اليهود، وهلك غماً وحزناً على فراق زوجته وابنه.

كان من الواضح أن المجنون، الذي لم يكن ليكلم أحداً، هو الذي صنع معجزة المطر الذي غمر كركوك فجأة. فمَنْ غيره يقدر أن يأمر السماء أن تغيم فتغيم والغيوم أن تمطر فتمطر؟ ولكن كان ثمة أيضاً، كالعادة، أناس يهوون المشاكسة وإطلاق الآراء المتطرفة على عواهنها. فقد ادّعى هؤلاء أن الأمطار قد هطلت بفضل حميد نايلون، فلولا طرده من الشركة والمظاهرة التي نظمت من أجله، وخروج محلة جقور، لما حدثت المعجزة. كان هذا الرأي يبدو منطقياً بعض الشيء، ولكنه لا يوضح المعجزة. وقد ردّ آخرون على هذا الرأي بالقول: «إذا أخذنا بهذا المنطق، فينبغي أن نذهب إلى أبعد من حميد نايلون». وكانوا يعنون، بذلك، السيدة الانكليزية اللعوب. فلولا مغامراتها مع الرجال وخفتها، لما فُصل حميد نايلون. وانتهوا إلى القول: «هذا الرأي سيؤدي بنا إلى الكفر لا محالة».

وقد انزعج الملّا زين العابدين القادري من هذه الآراء، التي اعتبرها دخيلة على الإسلام ومضّرة، معلناً أنه لا الجان ولا حميد نايلون وراء هذه المعجزة، وإنما الله الذي تقبل رجاء المسلمين، فجعل المطر يهطل عليهم مدراراً. والحق، أن هذا الرأي بدا منطقياً تماماً، ولاقى قبولّا حسناً في قلوب أبناء محلة جقور، وبخاصة أن

حميد نايلون نفسه كان قد سخر من فكرة كونه السبب في حدوث المعجزة، قائلًا: «لو كنت قادراً على صنع المعجزات لجعلت القحبة الانكليزية تنام معي». وكان يعني ذلك بالفعل.

ظل المطر يهطل ثلاثة أيام متتالية، دون انقطاع، حتى امتلأت البيوت الواطئة بالمياه، وانهارت سقوف بيوت كثيرة، وفاض نهر خاصة صو، فأغرق المحلات القريبة، حتى بات الناس يصلّون، هذه المرة، من أجل توقف المطر. أما حميد نايلون فقد رفع، في اليوم الثالث من هذا الذي سماه طوفان نوح، رأسه وألقى نظرة إلى السماء، ثم قال لزوجته التي انتهزت الفرصة وأمضت معظم وقتها معه في الفراش: «يبدو أن السماء ستبول كثيراً، بعد أشهر من الانقطاع»، فردت عليه زوجته فاطمة، بعصبية: «لا تكفر يا حميد، إنها معجزة»، فقال حميد ضاحكا: صحيح إنها معجزة، ولكن لا ينبغي للسماء أن تبالغ كثيراً». وظل حميد نايلون، خلال ذلك الفيض الذي لا ينقطع من المطر، سجيناً في الغرفتين العلويتين، اللتين كان قد استأجرهما في منزل أخته نظيرة وزوجها القصاب المتجول، خضر موسى، اللذين كانا يعيشان في غرفة كبيرة في نهاية الفناء في الأسفل، مع بناتهما الثلاث، اللواتي كانت كبراهن في الخامسة، وصغراهن لم تكمل العام الأول من عمرها.

في تلك الأيام الممطرة، لم يهبط حميد نايلون إلى الغرفة الكبيرة سوى مرة واحدة، حيث جلس على بساط قرب منقلة فحم يغطي الرماد جمراتها، وأمامه صحن من التمر الأشرسي مع الجوز، آمراً أخته، بلهجة ودّية، أن تصبّ له «استكاناً» من الشاي؛ فيما جاءت الطفلة ليلى وجلست فوق ركبته. وبدا خضر موسى مهموماً: «كيف يمكن أن ابيع خرافي إذا ما استمر هذا المطر فترة أخرى من الزمن؟» مازحه حميد نايلون قائلًا: «اعتبر المطر إجازة يا رجل، فلوسك

تكفيك ألف سنة». وضحك خضر موسى: «هذا ما تشيعه عني أختي قدرية، لعنة الله عليها، تقول إنني أضع الدنانير تحت فراشي وأنام عليها حتى تبدو مكوية». وردّ عليه حميد نايلون: «وماذا في ذلك؟ إنها دنانيرك، تفعل بها ما تشاء». ثم التزم الصمت، محدقاً في ضوء القنديل الواهن، في صناديق بأبواب مزخرفة بألوان ذهبية وفضية، رُسمت عليها، باللونين الأحمر والأزرق، طواويس ذات ذيول متناسقة وأغصان تقف عليها قبّرات، وزهور على الحافات. قال خضر موسى: «لم يعد هناك عمل كثير في كركوك. القصابون هنا بعدد الرمل. سوف أنتقل إلى الحويجة، حيث لا يوجد قصاب واحد هناك».

كان حميد نايلون يعرف ولع خضر موسى بالنقود وبخله، حتى أنه ما كان يجلس في المقهى إلا بين الحين والآخر، بل وبدا له أن قدرية محقة في ادعاءاتها. ولكنه لم يكن يعرف أن من يكوي الدنانير هو أخته نظيرة، التي كانت تكسب، أحياناً، أكثر من خضر موسى، متاجرة بالأقمشة والملابس النسائية، التي كانت تسافر وتشتريها من مدن أخرى، لم يصلها أحد، حتى ليقال إنها كانت تذهب إلى حلب، وهي مدينة كانت النساء تقول إنها تقع في سوريا أو لبنان، وتجلب معها الأقمشة الملونة والبلوزات الجميلة وصابون الرقي، «أبو الهيل» التي تبيعها لنساء المحلة والمحلات المجاورة بالدّين، ولكن لقاء أسعار مرتفعة. والأكثر من ذلك، أن أمها هداية، وهي عجوز تسكن في محلة اليهود القريبة، كانت تمتهن حفّ وجوه النساء بالسبيداج، وممارسة السحر وقراءة البخت، بل ويقال، إنه كان بمقدورها أن تحول الحجر إلى ذهب، بقراءة تعاويذ غامضة، تعلمتها من جيرانها اليهود. وكانتا تتعمدان دائماً، هي وابنتها نظيرة، تزيين كاحليهما المكتنزين بالخلاخل ومعصميهما بالأساور وعنقيهما بالليرات الرشادية المشدودة إلى سلاسل من ذهب.

ما كاد حميد نايلون ينتهي من احتساء «استكانه» الأول من الشاي، حتى لحقت به زوجته فاطمة، مدّعية الضجر لوجودها وحدها في البيت. ولكنها كانت، في حقيقة الأمر، تخشى أن تكيد لها نظيرة عند زوجها حميد. وكانت تعرف أيضاً أن خضر موسى الذي لا يستطيع معارضة زوجته نظيرة، سوف يشاركها هو الآخر الكيد لها. وملّ حميد نايلون الجلوس في الظلام الذي لم تكن تبدّده سوى شعلة قنديل زيتي، اتسخ زجاجه، فنهض وقال: «من الأفضل للمرء، في مثل هذا المطر والظلام أن ينام»، وتبعته زوجته. وهو على السلّم المؤدي إلى غرفتيهما، سمع ثغاء أحد خرفان خضر موسى، فقال ساخراً: «وعليكم السلام». وحذرته زوجته، وهي تصعد خلفه، من السلالم المتهدمة، فأجاب في الظلام: «إنني أحفظها عن ظهر قلب». وكانت فاطمة فرحة بعودتهما مرة أخرى إلى غرفتيهما، فقد أصبح بعيداً عن كيد أخته، وربما واتته الرغبة أيضاً لينام معها. ولكن حميد نايلون، الذي استلقى على ظهره فوق الفراش، لم يسمعها حتى عندما سألته إن كان يريد شرب الشاي، فقد كان يحلم، وكان حلمه يعبر محلة جقور ومدينة كركوك إلى فضاء واسع، لا حدود له، فضاء غريب لم يكن قد رآه في حياته كلها.

الفصل الثاني

ما كان لمحلة جقور في الحقيقة همّ آخر غير الفقر والعفاريت. فإذا كان الفقر قد دفع الكثيرين، وهؤلاء هم من العرب الطارئين إلى أن يمتهنوا اللصوصية، ساطين على الدكاكين والبيوت في الليل، فإن العفاريت التي كانت تمتلىء بها المحلة، بسبب قربها من المقبرة، أرغمت الكثيرين أيضاً، وهؤلاء هم من التركمان على الأغلب، على أن يكونوا دراويش وسحرة، يكرسون الكثير من وقتهم، وهو مبذول دائماً، لمواجهة الأشباح، التي كانت قد اتخذت من محلة جقور موطناً لها. وقد استغرب الناس عندما قال لهم برهان عبد الله، وهو صبي في السابعة من عمره، ذات يوم، إن العفاريت تتبع الفقر، واللصوص يتبعون العفاريت. وعندما سألوه عن معنى ذلك لم يحر جواباً، فقد كان، هو نفسه، لا يعرف معنى تلك الجملة. وإذ أراد والده عبد الله علي، الذي كان عاملاً في شركة النفط، أن يعرف مصدر تلك الجملة وعما إذا كان الملّا الذي يتعلم عنده تلاوة القرآن هو الذي علمه إياها، أصر الصبي بعناد: «بل حلمت بذلك في المنام». وروى قصة حلمه. كان يجلس فوق تلة تطل على محلة جقور، مراقباً في خوف العفاريت واللصوص الذين كانوا يملأون المكان. كان يصرخ ولكن شيوخاً ثلاثة بلحىً طويلة مصبوغة بالحناء، يرتدون ثياباً بيضاً جاؤوا إليه، ووضعوا أكفهم فوق رأسه قائلين: «لا تخف يا بني، فإن العفاريت تتبع الفقر واللصوص يتبعون العفاريت». ثم ركزوا راية خضراء، حيث يجلس الصبي، وانصرفوا. فهز والد

الصبي رأسه متأملّا، وقال لزوجته قدرية: «أعتقد أن إبننا سيكون نبياّ»، بيد أن المرأة اعترضت على رأي زوجها، موضحة أن الراية تعني القيادة، وأنه سوف يصبح مفوضاً في الشرطة. وطلب الأب من إبنه أن يكتم حلمه هذا، وألا يرويه لأحد.

كانت قدرية موسى، في الحقيقة، بكشفها عن أمنيتها في أن يكون ابنها مفوضاً في الشرطة، إنما تكشف عن حسدها للنعيم الذي كان يرفل به بيت حسنية، بنت دفّان الموتى، فقد جاهدت حتى أصبح إبنها مفوضاً. وهكذا بدأت قوارير الزيت وأكياس الرز والحنطة وأقفاص الدجاج وسلال البيض تدخل بيتها كل يوم، كرشاوى تقدم لابنها، يحملها شرطيون يرتدون بزاتهم الرسمية دائماً. بل والأكثر من ذلك، إن المفوض نجيب الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، كان يأتي دائماً داخل سيارة جيب تنقله حتى باب بيته، حيث يبادره كل شرطي يلتقيه في الطريق بأداء التحية العسكرية له حتى إذا كان لا يعرفه. كل ذلك كان قد جعله موضع حسد من الجميع، بل ان قلوب صبايا المحلة كانت تخفق إذ يمر، فيتعمّدن النظر إلى الشارع أو رفع الستارة، التي توضع عادة وراء باب البيت، آملات في أن تقع عينه على إحداهن، فيرسل أمه لخطبتها.

ومهما يكن من أمر. فإنه قدّر لتلك الجملة، التي لم يكن الصبي برهان عبد الله يدرك معناها في ذلك الوقت، أن تترك آثارها على حياته اللاحقة. صحيح أن الرجال الثلاثة، ذوي اللحى الطويلة والثياب البيض، قد قالوا له ذلك في منامه، ولكنه كان قد سمعه، قبل ذلك، في الوادي السحري الغارق في الضباب، والذي وجد نفسه فيه حالما فتح صندوق أجداده السري، الصندوق الخشبي الذي عثر عليه في زاوية منسية من البيت. كان الصبي، في الحقيقة، محتالّا كبيراّ، بل انه كان يرى نفسه مفكراّ، واستهواه ما قاله والده عنه من أنه

سيكون نبياً. فقد كان يرى نفسه جديراً بالقيام بمثل هذه المهمة، بعد أن حفظ القرآن كله عن ظهر قلب، في شهور قليلة فقط. ومن خلال ذلك، من رؤيته للحروف واكتشاف علاقاتها بالألفاظ، تعلم القراءة والكتابة، دون أن يبوح بسّره لأحد، وخاصة أنه ما كان في إمكان أحد من والديه أن يكتشف هذا السر، لأنهما ما كانا قد تعلما القراءة والكتابة أبداً. أما الملّا زين العابدين القادري، فقد كان يقضي معظم وقته في وضع أرجل تلاميذه المشاغبين داخل الفلقة والضرب على باطنها بالعصا.

لقد وقع برهان عبد الله على ذلك الصندوق العجيب بالصدفة. كانت ثمة في البيت غرفة كبيرة بدكّتين من المرمر، كالعادة، مع مدخل ترابي يُستخْدم كمطبخ. وكان هذا المدخل الترابي يمتد مؤدياً إلى غرفة مظلمة، متآكلة، لا يدخلها الضوء، بمحاذاة الغرفة الكبيرة. كانت شيئاً يشبه المخزن المهجور، يكاد لا يدخله أحد لامتلائه بالعقارب. وفوق هذا المخزن المهجور، كانت تقع عِلّيّة مطلية بالجص، بكُوّتّين مربعتين صغيرتين مفتوحتين على الشارع، تؤدي إليها بضع درجات حجرية، متهدمة بعض الشيء. كانت العِلّيّة مهجورة هي الأخرى، على الرغم من دخول الضوء إليها أثناء النهار، ينتشر في جانب منها حطام أشياء غريبة ومهملات متروكة هناك من زمن بعيد، ربما منذ قرن. ما كان أحد في البيت قد فكر في يوم من الأيام أن يمد يده إلى هذه الآثار المنسية. فقد كانت هناك، لا تضر ولا تنفع، وربما ما كان أحد ليريد أن يزيل عن الماضي غباره. والأكثر من ذلك أن هذا الجزء من البيت كان مرتعاً للجن، منسياً، حتى لكأنه لا يوجد أبداً.

ولكن الصبي، الذي ما كان قد رأى جنيّاً، تسلل ذات مرة، خلسة، صاعدا إلى العِلّيّة، لعله يلتقي هناك جنيّ البيت الطيب، الذي

كانت أمه قد حدثته عنه. فقد كان في كل بيت جنيّ طيب يحرسه. ورغم أن هذه المغامرة لم تكن تخلو من الخطر، فقد كانت للصبي أسباب عميقة دفعته إلى ذلك. كان قد قرر ألا يخاف عندما يظهر له الجنيّ، بل عزم على أن يتحدث إليه، مثلما يتحدث مع أي شخص آخر. وحتى إذا ما اراد الجنيُّ أن يأخذه معه، فلن يأسف على نزهة يتوق إليها داخل عوالم الجن الغريبة، التي تتضمنها القصص التي كان والده يرويها له. والأكثر من ذلك أن برهان عبد الله كان يحمل، في الحقيقة، قائمة من الطلبات التي كان يريد أن يقدمها إلى جنيّ البيت الطيب، فالجن قادرون على كل شيء. وهكذا فكر أن يطلب من الجنيّ أن يحوّل أبواب محلة جقور كلها إلى ذهب، وأن يمسخ العجوز هداية بقرة، وأن يجلب له طاقية الإخفاء التي كان يحتاجها، لضرب بعض الأولاد الكبار.

ظل الصبي يجلس في ركن من العِلّيّة، اليوم بعد الآخر، منتظراً الجنيّ الذي لم يظهر له أبداً، حتى أنه شك في وجوده، ثم انتهى إلى الاقتناع بأن الجن يظهرون حيث لا ينتظرهم أحد. ولذلك، عمد إلى عدم انتظارهم، فراح ينقب هناك بين الآثار المهملة المنسية. ولدهشته عثر على صندوق خشبي صغير بلون القهوة، صندوق مغلف، حُفرت عليه نقوش وخطوط غامضة، تشبه التعاويذ والطلاسم، يغطيه الغبار، ويحيط به نسيج العنكبوت، فمسحه بطرف كم دشداشته، وجلس متكئاً على الجدار، يحدّق فيه مبهوراً. كانت الخطوط المنقوشة على الغلاف ذهبية، دقيقة وجميلة أشبه ما تكون بالخطوط القرآنية التي كان يعرفها. وقد حَسِب، للوهلة الأولى، أنه عثر على نسخة من القرآن داخل الصندوق، ولذلك قبّله ووضعه على جبينه. ولكنه ما كاد يفتح الصندوق حتى اهتزت الأرض اهتزازاً عظيماً، وبرق نور ساطع في العِلّيّة، جعله يتكّوم على نفسه، ثم اختفى كل شيء، واجداً نفسه

مقذوفاً في الفراغ، فأغمض عينيه، ربما من المفاجأة. هناك سمع الرياح الأربع تهّب من كل الجهات، ممتزجة بموسيقى عذبة. ثم هدأ كل شيء، ما عدا الموسيقى التي ظلت تُسمع من بعيد. عندما فتح الصبي عينيه مرة أخرى رأى نفسه جالساً في واد معشب، وعلى مبعدة منه يقف رجل أعمى، عند صخرة، يعزف على نايه. وفي أسفل الوادي، رأى ثلاثة شيوخ يرتدون البياض، مثل ملائكة هبطت لتوّها من السماء، يتقدمون نحوه مبتسمين، متكئين على عصيّ يحملونها في أيديهم، وعلى أكتافهم أكياس تهتز، مع كل خطوة إلى الأمام.

هنا بالذات، وهو في الوادي، سمع أمه تناديه. ولكنه ظل ينتظر وصول الملائكة الثلاثة حتى ناداه أحدهم: «مرحباً بك يا برهان، لقد وصلت أخيراً».

فردّ برهان مضطرباً وهو يحدّق في الوادي: «وصلت؟ ولكن إلى أين؟» فأجابه الرجل الذي كان لا يزال يبتسم: «اذهب الآن فإن أمك تناديك».

سأل برهان عبد الله: «كيف أذهب وأنا معكم في هذا الوادي؟»

ـ أغلق الصندوق مثلما فتحته. سنكون معك بعد الآن أبداً».

وبالفعل ما كاد الصبي يغلق الصندوق حتى وجد نفسه جالساً في العليّة، متكئاً على الجدار، فأسرع هابطاً السلالم، يملأ قلبه الضوء والرعد.

كان والده يشرب الشاي. سألته والدته: «اليوم هو الأربعاء، موعد استلام أسبوعية والدك. عمله يبدأ بعد الظهر، ونحن بحاجة إلى النقود. هل تذهب معه لتجلب النقود إلى البيت؟» كان يسر الصبي برهان عبد الله أن تُسند إليه مثل هذه الأعمال، وأن يُعامل كشخص يمكن الاعتماد عليه. وكان والده قد أخذه معه، فيما مضى، إلى هناك، واضعاً «مظروف» النقود في جيبه، وموصياً إياه بالانتباه حتى

لا يضيع أو يسرق منه، بل ان والده، الذي كان يفتخر بشطارة ابنه وقدرته على تلاوة القرآن وترتيله، كان قد أخذه معه، أكثر من مرة، إلى مكان عمله في بابا كركر، فاندهش كثيراً لرؤية الأنابيب البيضاء الضخمة والخزانات الكبيرة واللوحات الدائرية، ذات المؤشرات والتي تشبه الساعات، والنار المشتعلة والسماء الحمراء والرمل. وظلت في أنفه إلى الأبد تلك الرائحة التي لا تُنسى، رائحة النفط المخلوطة برائحة التراب.

ذهب برهان عبد الله مع والده، هذه المرة أيضاً، إلى ذلك المكان البعيد الذي تُعطى فيه النقود في «مظاريف» مغلقة، تحمل أسماء أصحابها، سائرا إلى جانب والده الذي كان يحمل معه دائماً «سفرطاساً» من الألمنيوم، ذا طبقتين، يوضع في الطبقة العليا منهما الرز المطبوخ وفي السفلى المرق. أما الملعقة، فكانت تدخل في مقبض على جانب «السفرطاس» بعد إغلاقه. وعاد بعد أن ودّعه والده بابتسامة، سائراً كذلك على قدميه. ولكنه قطع بعض الطريق متعلقاً من الخلف بدعامة عربة، يجرها حصانان. ولم يترك العربة إلا بعد أن شعر به الحوذي فهوى بسوطه نحو الخلف بطريقة عشوائية، أصاب بها كتفه التي ألمته. وعبر الجسر الحجري الممتد فوق نهر خاصة صو، حيث رأى، مقابل القلعة، وفي الجانب الجاف من النهر، رجالاً ونساء وأطفالاً كثيرين يقرفصون على الحصى، وإلى جانبهم أمتعتهم، يحيط بهم عدد من رجال الشرطة. كان من الواضح أنهم جميعاً من الأكراد. وكان ثمة ناس كثيرون قد اجتمعوا يحدّقون فيهم من بعيد، ضاحكين. وبين حين وآخر، كانت ترتفع صيحة من السجناء، باللغة الكردية، تعني: «الحق، الحق»، فيردّد الجمهور، بإيقاع هزلي يتفق مع الكلمة، باللغة الكردية أيضاً: «ضع يدك على المطرق».

وتناهى إلى سمع الصبي، من الناس الواقفين، أن هؤلاء يتبعون نبياً كردياً ظهر لتوّه، يبيح الزواج من الأخت والأم ونهب أموال الاغوات. ويبدو أن هذا النبي كان يرى أن كل شيء حق: الحياة، الموت، المرأة، الجنس، وحتى النجوم في السماء والحجارة فوق الأرض.

وبدل أن يشارك الصبي، برهان عبد الله، الجمهور الضاحك هتافه: «ضع يدك على المطرق»، شعر بالأسى والمودّة تجاه هؤلاء الغرباء، الذين ربما كانوا فعلّا على حق، إذ مَنْ يمكنه أن يثبت العكس، ولكن الصبي امتلأ، في الوقت نفسه، بالمرارة. كان، هو نفسه، يريد أن يكون نبياً، ولكن ها ان ثمة من سبقه. وقال في نفسه: «لا بأس، ما زال أمامي الكثير من الوقت لأكبر». وشعر بالجوع، فانحدر إلى اليمين على ضفة نهر خاصة صو، باتجاه السوق الكبير، حيث رأى باعة الأطعمة يضعون قدورهم فوق الرصيف، فمدّ يده إلى جيبه وأخرج عشرة فلوس، كان والده قد أعطاه إياها، وطلب صحن ملفوف من رجل تركماني، يقال إنه أمضى عشرة أعوام في روسيا، كأسير حرب، حيث عمل خبازاً هناك، وجلس يأكل إلى جانب ثلاثة حمالين، كانوا يجلسون على المساند التي يضعونها على ظهورهم عندما يعملون. كان في إمكانه أن يدخل من هناك إلى السوق الكبير، الذي يؤدي به إلى القيصرية ومن ثم إلى محلة جقور، ولكنه بدل ذلك، اتجه إلى سوق الدواب، القريب، الواقع تجاه النهر، عند مدخل محلة الجاي. فقد كان يسره التفرج عل الحمير والخيول والأغنام والأبقار التي تباع وتشترى هناك. ورأى حماراً صغيراً يقف في ركن من الميدان، وسط الضجيج والصراخ القادم من الزوايا، فاقترب منه ووضع يده على رأسه، ممسّداً شعره، ثم قال له بمودّة: «ها يا حمار، كيف أنت؟» واندهش الصبي برهان عبد الله عندما رأى

الحمار يرفع رأسه ويقول له، هامساً وبمودّة أيضاً: «لقد أصبحت حماراً لانني لم أذهب إلى المدرسة، فهل تريد أنت الآخر أن تصبح حماراً؟» فأطلق الصبي رجليه للريح، ولم يتوقف عن العدو حتى دخل البيت لاهثاً. وروى الحكاية لأمه، فضحكت مهدّئة من روعه، وقالت له: «تقول إنك رجل وتخاف من مثل هذا الأمر!» ثم أضافت: «لم يكن حماراً بالتأكيد. لا بد أنه جنيّ مرح أراد مداعبتك». وأخبرته أن ثمة من الجن من يهوى الدعابة والفكاهة وتدبير المقالب، وروت له القصة التي كان قد سمعها منها أكثر من مرة. كان والدها الغنام قد خرج ذات يوم، مبكراً عند الفجر مع أغنامه إلى المرعى، فرأى كبشاً غريباً بين أغنامه، فذهب إليه وراح يتحسس أسفل بطنه، على عادة الغنامين، غير أن الكبش أدار رأسه فجأة إليه قائلًا له: «ها... هل أعجبتك خصيان عمك؟»، ففزع والدها، ولكنه تماسك، وقرأ آية الكرسي، فاختفى الجنيّ المرح الذي لم يكن يقصد بالتأكيد سوى الضحك والمداعبة، ربما من الملل أو الوحدة.

في اليوم التالي، أمسك والده بيده وقاده حتى مدرسة المصلّى الابتدائية للبنين، المواجهة للمقبرة، بعد أن اشترى له سروالًا رصاصياً قصيراً وقميصاً وحذاءً من حانوت كان يملكه أحد أقاربه في سوق القورية، قائلًا له: «إذا كان الحمار قد أراد ذلك فلن نرد طلبه». وشعرت أمه أن آمالها في أن يصبح ابنها مفوضا قد بدأت تتحقق. وعلى الرغم من أن الصبي، الذي كان يرتدي السروال لأول مرة في حياته، وهو السروال الوحيد الذي ظل يرتديه حتى في الشتاء مرتجفاً في البرد القارس، قد قوبل بالاستهزاء والسخرية من قبل الكثير من أطفال المحلة، الذين تراكضوا خلفه عند عودته من المدرسة، فإنه كان مزهواً بنفسه، وهو يحمل بيده الكتاب الذي أعطي له والدفاتر وأقلام الرصاص البرتقالية التي سحرته رائحتها، حتى أنه لم يلتفت

إلى الأطفال أو يشتمهم أو يتشاجر معهم. ومنذ ذلك اليوم، داخله شعور غامض بالقوة، وهو شعور لم يزايله بعد ذلك أبداً.

وقد أمضى فترة ما بعد الظهر كلها في البيت، متخلياً عن إغراء اللعب مع الأطفال في المحلة، بعد أن التهم رغيفاً حاراً أحرق أصابعه، أخرجته أمه لتوّها من التنور، الذي كان مشتجراً لصق الجدار، وسط الحوش، قريباً من فسحة صغيرة، كان قد زرعها هو بنباتات عباد الشمس، ذات الورود الكبيرة. واستعاد في ذهنه الصور التي مرت به في الصباح في المدرسة. كان المدير قد قال لوالده الذي خاطبه بكلمة أفندي: «كان ينبغي عليك أن تجلب ابنك مبكراً إلى المدرسة» فردّ عليه والده: «أفندي، كان الصغير عند الملّا، وقد أردته أن يختم القرآن. أنت تعرف كم هو مهم ذلك!» وعند ذاك باغت الصبي المدير متحدياً: «أفندي، تستطيع أن تمتحنني، إنني أعرف القراءة». فالتمعت عينا المدير. مد يده إلى كتاب ما على الطاولة، وفتحه على صفحة معينة، قائلاً: «حسناً، خذ إقرأ!» فقرأ الصبي جملاً عدة، بسهولة ويسْر. نادى المدير الفرّاش وقال له: «خذ هذ الصبي إلى الصف الأول ب. وقل للمعلم إنه تلميذ جديد!» وخرج حتى دون أن يقول شيئاً لوالده الذي كان يشكر المدير.

بعد عودة الصبي برهان عبد الله من المدرسة، قرأ الكتاب الذي كان المعلم قد أعطاه إياه حتى آخر صفحة فيه، وهو يسير جيئة وذهاباً في الحوش، ما بين باب الغرفة الكبيرة والبئر الواقعة في الجهة الأخرى، عند «طارمة» مفتوحة، تنتهي إلى غرفة أحدث بناء، كانت مؤجرة لرجل وزوجته، فاروق وكولبهار اللذين لم يكن قد مر على زواجهما أكثر من شهرين. وكانت كولبهار تقضي معظم نهاراتها في بيت أهلها في محلة بيريادي القريبة، حيث لا تعود إلا في المساء. أما فاروق فكان يخرج مبكراً في الصباح، ولا يعود إلا مع الظلام، حتى

لكأنه ليس من سكان المنزل. وأخيراً، وقف برهان عبد الله عند فوهة البئر، التي كانت مسيجة بجدار يرتفع بحوالي متر عن الأرض، وضغط على البكرة العالية بعض الشيء، والمثبتة جانباً ذراعاً فذراعاً، حيث كان الحبل، الذي ينتهي بدلو الماء، يلتف شيئاً فشيئاً وسط البكرة، ذات الأذرع، ويرتفع الدلو المليء بالماء قليلاً فقليلاً نحو الأعلى، خفيفاً في البدء ولكنه يثقُل كلما ارتفع عالياً. وكان الأكثر صعوبة هو التشبث باليد اليسرى بأحد أذرع البكرة وسحب دلو الماء إلى الخارج، عندما يكون قد بلغ حافة الفوهة، باليد الأخرى، فقد كانت أمه تحذره من أن الدلو ثقيل، وقد يسحبه معه نحو القعر. ولكنه كان يفلح دائماً في جر الدلو إلى الخارج، متعمداً عدم جعله يمتلىء بالماء كثيراً حتى يسهل سحبه. سكب الماء البارد في «جردل» آخر، حمله وسقى به حديقته الصغيرة، فقالت له أمه: «لا تفرط في السقي، فالنباتات لا تحتاج إلى الكثير من الماء في الشتاء». وإذ رأى أمه منهمكة بعملها أمام التنور، انسل إلى العليّة خِفْية، ليفتح صندوقه المطل على وادي الملائكة.

ظل مختبئاً هناك حتى العصر، ولم يهبط إلا عندما سمع، عبر الكوتين المفتوحتين على الشارع، هرج الأطفال وهم يلعبون في المحلة، حيث اشترك مع ثلاثة أطفال آخرين في لعبة، كانوا يسمونها لعبة اليهودي المخدوع. كان أحد الأطفال يجلب من البيت ورقة نقدية، دون علم أمه أو أهله بالطبع. ثم يثقبون الورقة من إحدى حافاتها، ويمررون في الثقب خيطاً رفيعاً يوارى بالتراب، ويمتد حتى مَكْمنهم. كانوا ينتظرون حتى يروا يهودياً ما قادماً من بعيد، إذ ذاك، كانوا يتركون الورقة النقدية وسط الشارع، ويختفون في زاوية ما، عارفين أن اليهود يسيرون وعيونهم تبحث دائماً عن شيء ما في الأرض، بحيث أنهم ما كانوا يرفعونها إلى الأعلى إلا لدعاء الله أن

ينزل الخراب وكل الكوارث، المحتملة وغير المحتملة، بالمسلمين. وكانت عينا اليهودي تلتقطان، عادة، صورة الورقة النقدية من بعيد، فتلتمعان سروراً وطمعاً. ويسرع الخطى باتجاه الورقة النقدية المرمية، ملتفتاً يميناً وشمالاً، قبل أن ينحني لالتقاطها. ولكن قبل أن تمس أصابعه الورقة، كان الأطفال يسحبونها ضاحكين، فيكتشف اليهودي المقلب، ويرفع يديه إلى السماء، حاثاً الله على قتلهم، أو يغمغم بكلمات غامضة. أما إذا لم يحصلوا على ورقة نقدية، فإنهم كانوا يكتفون بصنع حفرة صغيرة وسط الشارع، يملأونها بالماء، ويغطونها بالتراب، أملين في أن يمر يهودي عائد من دكانه في السوق إلى بيته في محلة اليهود، ويغطس فيها. ولكن الكبار غالباً ما كانوا ينهرونهم عن فعل ذلك، بل ويطاردونهم حتى أبواب بيوتهم، شاتمين. هذه المرة أيضاً، وضع الأطفال الورقة النقدية وسط الشارع، وانتظروا طويلاً، دون أن يمر أي يهودي. وأخيراً يئس الأطفال من الإنتظار، فأخذوا الورقة وذهبوا إلى الخرابة، متفرجين على تمارين الأثقال، التي كان المصارعون الشبان يقومون بأدائها في حفرة «الزورخانة»، ثم وقفوا وراء صبيان كبار، كانوا يقامرون، لاعبين الواحد والعشرين، بالورق. ولكن أحدهم وكان قد خسر بعض نقوده، طردهم: «هيا اذهبوا من هنا، إنني لا أطيق من يقف فوق رأسي».

وعاد برهان عبد الله إلى البيت، حيث وجد والده وخاله خضر موسى وحميد نايلون يقفون أمام البيت، متحدثين فيما بينهم. ما كاد والده يراه حتى بادره: «ها... كيف كانت المدرسة؟» فأجاب الصبي باختصار: «جيدة». وقال عبد الله علي للرجلين الآخرين، مزهواً: «لقد دخل برهان المدرسة». فردّ خضر موسى: «لقد خسرته. كنت أريده أن يعمل معي». فقال الصبي، بامتعاض: «لست خروفاً عندك». فشتمه خاله، مداعباً، ولكن حميد نايلون ضحك قائلاً: «هذا الصبي

يعجبني، إنه معتدّ بنفسه». أما الصبي فقد دخل البيت، وصعد مرة أخرى إلى العليّة، في ضوء المساء الواهن، الذي كان لا يزال يتسرب عبر الكوّتين.

مرت أيام كثيرة على محلة جقور، دون أن يحدث فيها ما يشكل استثناءً كبيراً للقاعدة. كان كل شيء يحدث كما ينبغي له أن يحدث. كان الرجال يخرجون صباحاً إلى أعمالهم، وتحدث شجارات كثيرة بين النساء، بسبب الأطفال، وهي شجارات عادية، كان الرجال يحاولون ألا يتدخلوا فيها، رغم كلمات السباب الشديدة التي كانت النساء يطلقنها، وهنّ واقفات أمام أبواب بيوتهن، أو مطلات برؤوسهن من وراء ستائر أبوابهن. وكان يمر في المحلة كل يوم باعة ملح أعراب، يقودون حميرهم، وآخرون تركمان، بشوارب كثيفة، تغطي الفم، من قرية تسعين القريبة، يبيعون قناني ماء الورد. وكان الأطفال الذين تثيرهم شوارب هؤلاء يتبعونهم صائحين: «عمي، أين فمك؟» فيمدّ الواحد منهم يده إلى شاربه، ويزيحه بعيداً عن فمه، قائلاً: «وما هذا؟ أهو فرج أمك؟» وكان ثمة أيضاً حدادو سكاكين، ينبعث الشرر من الدولاب الحجري الدائر لماكناتهم، حالما تمسه السكين، وتجار «خرداوات»، يشترون الحديد العتيق، وباعة قطع صغيرة من الثلج في الصيف. وبين حين وآخر، كان يأتي بدويون شعراء ويجلسون أمام كل باب، ويعزفون على رباباتهم، منشدين القصيد في مدح رب البيت بالإسم، والذي يكونون قد عرفوه من الأطفال، قبل ذلك، ولا يغادرون مكانهم إلا إذا أثبت صاحب البيت كرمه معهم. وكان ثمة تركمان وأكراد يأتون مع قردتهم ودببتهم ويقدمون مشاهد تمثيلية في المحلة. كانت القردة تغمز النساء وتتحارش بهن، أما الدببة فكانت تقلد العجائز في مشيهن، بطريقة فكاهية، مثيرة الضحك. وكان الغجر الذين تشد نساؤهم رؤوسهن

بمناديل حمر يطوفون المحلة، عارضين الغرابيل للبيع، فيما كانت النساء يوصين أطفالهن بالابتعاد عنهم، لأنهم لا يتوانون عن خطف الأطفال، وخاصة البنات منهن، ليعلموهن الرقص والغناء في خيامهم، التي كانوا ينصبونها في السهول على أطراف المدينة. ومن بين هؤلاء جميعاً كان ظهور حنا المسيحي، مأمور قتل الكلاب السائبة، يثير ضجة كبيرة في المحلة، وهو يطارد هذا الكلب أو ذاك ببندقيته، التي كان يحملها دائماً على كتفه. ذات مرة، خرجت محلة جقور، كلها تقريباً، في المساء إلى ميدان المصلّى، حيث وقفت سيارة كبيرة، كُتب على جانب منها، بالعربية: «الاستعلامات البريطانية»، ووضعت قماشة بيضاء على جدار المدرسة، جلس أمامها، على الأرض في الهواء الطلق، المئات من الرجال والنساء والأطفال، الذين جاؤوا من المحلات القريبة ليشاهدوا فيلماً عن الحرب. كان الفيلم نشرة إخبارية قديمة لوزارة الحرب البريطانية، عن ظفر الحلفاء في معاركهم ضد ألمانيا ودول المحور. وقد أثار مشهد الدبابات والطائرات وهي تقصف، الكثير من الناس، خاصة النساء، اللواتي كان بعضهن يرتجف من الخوف. وعلى الرغم من أن الحرب كانت قد انتهت منذ زمن، فإن الناس عادوا إلى بيوتهم، وعلى ثغورهم بسمات السخرية والاستهزاء: «دعاية انكليزية»، معتقدين أن جيوش هتلر ما زالت تُنزل الخسائر بالانكليز وتتعقبهم، وكان ثمة من يؤكد أن يونس بحري[1] قد أذاع، هذا اليوم بالذات، من إذاعة «هنا برلين»، أن الإنكليز قد خسروا الحرب.

وفي مرة أخرى، جاء المختار سلمان، الذي كان يسكن في محلة

---

(١) يونس بحري صحافي عراقي عمل في إذاعة برلين العربية أثناء الحكم النازي. توفي في العراق في أوائل الثمانينات.

العرب، مع ثلاثة شرطيين ومفوض في سيارة جيب، توقفت أمام المنزل الذي يسكن فيه حميد نايلون وفتشوا الغرفتين الواقعتين فوق المدخل، دون أن يعثروا على أي شيء، ولكنهم اصطحبوا حميد نايلون معهم إلى المخفر، فيما ظلت زوجته فاطمة تبكي وتنتحب، لا تعرف ماذا تفعل. ولكن جارتها قدرية جاءت إليها، وأخذتها معها إلى البيت، محاولة تهدئتها. واجتمعت نساء كثيرات من المحلة، وقد أفزعهن ذلك.

وانتشرت في المحلة شائعة تقول إن حميد نايلون، يتاجر بالأسلحة. لكن الكثيرين استسخفوا ذلك، مؤكدين أن الأمر لا بد أن يكون متعلقاً بالمرأة الانكليزية اللعوب. واستبعد آخرون هذا الاحتمال، بعد أن مرت على الحادث شهور عديدة. كما همس ثلاثة أو أربعة منهم: «ربما كان شيوعياً، من يدري؟» ولكنهم سرعان ما استبعدوا هذا الخاطر من رؤوسهم: «لا، لا، إنه أعقل من أن يكون بلشفياً». وكانوا على حق. فقد عاد حميد نايلون في مساء اليوم نفسه، وهو يشتم الانكليز كلهم على وجه البسيطة. أحد ما كان قد أطلق بضع رصاصات على الحي الانكليزي المشجر في شركة النفط من وراء السياج، مما جعل شرطة الشركة تتحرّى وتحقق مع كل من يخطر على بالها، ولكن دون تأكد.

بعد أسبوعين أو ثلاثة من هذه الواقعة، أخذ خضر موسى زوجته وبناته الثلاث معه إلى الحويجة، ليعمل قصاباً هناك، فراحت أخته قدرية تغتابه مع زوجها عبد الله علي، قائلة إنه هرب من الخوف إلى هناك، بعد أن رأى الشرطة تقتاد حميد نايلون إلى المخفر، وهو أمر غير صحيح بالتأكيد. فقد كان خضر موسى، الذي لا يعرف معنى للعالم غير جمع النقود، قد خطط، منذ شهور، لهذا المشروع الذي كان يعتقد أنه سيجلب له الغنى والثروة. لم يفتقد أحد، بالتأكيد،

خضر موسى وزوجته نظيرة، ولكن انتقال العجوز هداية إلى البيت الذي تركاه خالياً جعل الكثيرين يتشاءمون، مستعيذين من شر الساحرات الماكرات، ومن ضمنهم فاطمة، التي كانت مضطرة للسكن معها في بيت واحد.

وبالفعل، ما كادت هذه العجوز تنتقل من محلة اليهود إلى محلة جقور، حتى انتقلت اللعنة معها. فقد صار الرجال يضربون نساءهم، كما لم يضربوهن من قبل، بل وحدثت شجارات كثيرة بين الرجال أنفسهم، دون أسباب معقولة. وأصيب كثير من الأطفال بالتيفوئيد والملاريا والتراخوما. وفقد آخرون أعمالهم. وارتفعت الأسعار، وازداد الناس فقراً، بحيث أنهم لجأوا إلى أرغفة الشعير بدل أرغفة الحنطة وإلى السكر الأصفر الغامق ثم التمر بدل قنانيد السكر الأبيض التي كانت تكسر إلى قطع صغيرة، يتذوقها المرء ممسكاً بها بين إبهامه وسبابته وهو يحتسي الشاي. ولكن الأسوأ، ما كان قد حدث بعد؛ فقد افتتحت الحكومة، لأول مرة في تاريخ المدينة، ملهى في شارع الأوقاف، ملأته بالراقصات والمطربات اللواتي كانت نساء المحلة يسمينهن القِحاب في كل حديث يدور بينهن حول هذا الوباء الجديد، الذي استقطب الكثيرين من شبان المحلة. كانوا يسطون على آخر فلس في البيت، بل ويبيعون كل ما تصل إليه أيديهم، على الرغم من احتجاجات النساء اللواتي ما كن يعقلن ويسكتن الا بعد ضربهن، ليقصدوا «ملهى الهناء»، على أمل أن تبتسم لهم هذه الراقصة أو تلك. كانوا يكتفون، بالطبع، بشرب قنينة أو قنينتين من البيرة، إذ ما كان في إمكانهم مجاراة الشيوخ من رؤساء العشائر، الذين كانوا يقدّمون للراقصات الويسكي ويشعلون لهن سجائرهن بأنواط الخمسة دنانير، كما كان يروى في محلة جقور، التي كانت تتضور جوعاً.

وذات ليلة، في الصيف، استيقظت المحلة كلها من النوم. بعضهم

اكتفى بالوقوف عند حواجز السطوح ومشاهدة المنظر من هناك، متحدثين إلى هذا وذاك في الشارع بصوت عال، بينما غادر الكثيرون أفرشتهم. وحتى النساء خرجن من الكلل البيضاء المنصوبة فوق السطوح، ورحن يتحدثن إلى بعضهن الآخر: «هذا ما كنا نتوقعه». كان الجميع يغطون في نومهم فوق السطوح المفتوحة على سماء مغطاة بالنجوم، تعبرها الشهب المحترقة بين فترة وأخرى، تاركة وراءها ذيولاً طويلة من الضوء، عندما سمعوا عويلاً حاداً في الليل، قادما من الزقاق المغلق الذي يلي الجامع، وأعقبت العويل ضجة وصرخات شديدة وإطلاق رصاص. إعتقد البعض، في البداية، أن الأمر قد يكون متعلقاً بصدام مع اللصوص، ولكن مرأى وقوف سيارة الشرطة عند مدخل الزقاق أبعد مثل هذا الاحتمال، فالشرطة لا تهتم كثيراً بما يفعله اللصوص، وهي لا يمكن أن تأتي حتى محلة جقور لمطاردة اللصوص. والأكثر من ذلك، أن الجميع كانوا يعرفون أن الشرطة تحصل دائماً على حصتها من كل سرقة تحدث. كان الأمر يتعلق إذن بشيء آخر، لا علاقة له باللصوص. وهكذا كان الأمر، فقد ألقت الشرطة القبض على عباس بهلوان، الذي لم يكن يأكل «التمن» إلا بعد صب العرق فوقه، كما تقول النساء، وهو أمر فيه الكثير من المبالغة، إذ كل ما في الأمر أنه كان يسكب قليلاً من العرق في الحساء الذي يؤكل عادة مع الرز لا لكي يسكر، كما كان يقول هو نفسه، وإنما لأجل النكهة. وهكذا اقتيد عباس بهلوان، مغلولا، بعد أن اضطر رجال الشرطة إلى مطاردته من سطح إلى آخر وإطلاق الرصاص لتخويفه. وقد استسلم أخيراً، فقد كان مخموراً إلى حد أنه شتم الحكومة أمام جمهور محلة جقور: «هذه حكومة خرائية، تحمي القِحاب». ولكن دون أن يأبه أحد لكلماته.

لم يحتج أحد من الناس في محلة جقور، هذه المرة، على هذا

التدخل الفظّ من قبل الشرطة؛ فقد كان الأمر أكبر من أن يعترض عليه أحد. عرف الناس كلهم، في لحظات، بالقصة، وهزوا رؤوسهم قائلين: «لقد كنا نتوقع ذلك». وسواء أكانوا قد توقعوا ذلك أم لا، فقد قتل عباس بهلوان، الذي كان يقصد كل ليلة تقريبا «ملهى الهناء»، ليرى الراقصة كواكب، التي كان يعشقها وينفق عليها كل ما يحصل عليه خلال عمله في النهار. ويبدو أنه في تلك الليلة، كان قد اصطحب معه اثنين آخرين من أصدقائه، متباهياً أمامهما بأنها لا تحب أحداً سواه. ولكن لسوء الحظ، كانت قد وقعت في تلك الليلة بالذات على صيد أفضل منه. دعاها في البداية إلى مائدتهم بكل أدب، ولكنها رفضت لانشغالها مع بعض الأغوات الأكراد. عاد وجلس، متجنباً النظر في عيون صديقيه اللذين راحا يسخران من ادعاءاته ضاحكين. شرب وشرب فزاد حزناً وثملاً. كان صديقاه يضحكان هازلين، وهما يحدّقان بكواكب، معشوقة عباس بهلوان، تتنقل من حضن آغا إلى حضن آغا آخر. ولم يعد في إمكان عباس بهلوان تحمل وطأة عذابه أكثر من ذلك. نهض واتجه إلى مائدة الأغوات ووقف يحدّق في كواكب. سأل أحد الأغوات الثلاثة، باللغة الكردية: «ما الذي يريده هذا الرجل؟» فأجابه أحد صاحبيه: «دعه، يبدو أنه مغرم بالقحبة». وانتبهت الراقصة كواكب إليه، وهو يقف، محدّقا فيها بغضب، فقالت له: «هيا انصرف عن وجهي ولا تكن حمارا»، ففتح فمه، بصعوبة: «يا لك من قحبة». ولكنها بدل أن تسكت أو أن تداريه، بصقت في وجهه: «أمك هي القحبة». كان ذلك أكثر مما يمكن أن يحتمله، هو المعتدّ بنفسه حتى الغرور. وفجأة، رأى يده تمتد إلى مسدسه الصغير، الذي كان قد اشتراه قبل أربعة أعوام من جندي بولندي، عسكرت وحدته الانكليزية، فترة من الزمن، داخل خيام، على مقربة من محطة قطار كركوك، وترفعه باتجاه كواكب التي بوغتت بالحركة، فظلت

تحدّق فيه مشدوهة. وضغط باصبعه على الزناد، فانطلقت رصاصة، ثم رصاصة ثانية وثالثة. واستيقظ، ربما بسبب الدم الذي انبثق، فشعر بنثاره على كفه. فرمى المسدس على الأرض، واندفع خارجاً، ناسياً حتى صديقيه.

ومع موت الراقصة كواكب، مات ملهى الهناء أيضاً. فقد أصدر المتصرف أحمد سليمان، الذي كان قد استلم منصبه قبل فترة قصيرة جداً، أوامره بإبقاء أبواب الملهى مغلقة، مؤقتاً على الأقل. ولكن عندما أراد أصحاب الملهى، بعد أسبوع من ذلك، وبعد دفع رشاوى لمدير الشرطة، وبعد جهود خاصة بذلتها فنانات الملهى عند مسؤولي المدينة، فتح أبواب الملهى مرة أخرى، جمعت أم عباس بهلوان، وهي عجوز، كانت تعتقد أنه من غير الإنصاف أن يُسجن ابنها، لأنه قتل قحبة ما، نساء محلة جقور اللواتي انضمت إليهن نساء كثيرات، جئن حتى من المحلات البعيدة، في القلعة والقورية وشاطرلو وإمام قاسم وصاري كهية، وخرجن معولات إلى الشارع وهنّ يصرخن: «ملهى العاهرات خرّب بيوتنا». وقد دلّهنّ بعض الصبيَة، الذين كانوا يتقافزون أمامهن كالشياطين، إلى حيث يقع الملهى في شارع الأوقاف. وفي الطريق أيضاً، انضم الكثير من الدراويش إليهن، حاملين شعارات: «القدس للمسلمين» و«تسقط الشيوعية» و«لا مكان لليهود في بلادنا». وقد أغاظ ذلك الشيوعيين الذين يوغتوا بهذه المظاهرة، معتبرينها استفرازاً دبرته الحكومة نفسها. وقد تأكد هذا الاعتقاد عندما وقف الشرطيون يتفرجون على النساء وهنّ يقذفن الملهى بالحجارة ويحطمن شبابيكه. وقد فزع بعض الفنانات اللواتي كنّ يعشن في الملهى نفسه، بسبب عدم وجود فندق يستقبلهن، فاضطررن إلى الهرب، عبر السطوح المجاورة، وهنّ نصف عاريات. ويبدو أن المتصرف وجد في هذه الاضطرابات الفرصة التي كان

ينتظرها، بل انه بالغ في تصوير الخطر الذي يتهدد الأمن في تقريره الذي رفعه إلى وزير الداخلية، ملقياً باللوم كله على عاتق المتصرف السابق، الذي لم يفكر لحظة واحدة في ما يمكن أن يجره افتتاح ملهى في هذه المدينة من ويلات على سكانها الأبرياء. وهكذا أغلق الملهى نهائيا، وختمت أبوابه بالشمع الأحمر. فاضطرت الراقصات والمطربات إلى الرحيل مرة أخرى إلى بغداد، باحثات عن العمل السريع بشروط سيئة، فيما عادت المصريات منهن إلى القاهرة، ما عدا واحدة منهنّ، أفلحت في البقاء، وأقامت وكراً سرّيا للدعارة، على مقربة من دار الضيافة، يؤمه علية القوم، تحت حماية مدير الشرطة نفسه. واستجلبت له عاهرات درجة ثانية من الميدان في بغداد، ومن مبغى مدينة الموصل. وفي الوقت نفسه، حصل مدير الشرطة على سمعة طيبة في المدينة، عندما أمر بإطلاق سراح عباس بهلوان، بعد أيام قليلة من الهجوم على الملهى، بل ولم يقدّم حتى للمحاكمة، بعد أن امتنع الجميع، بتوصية من المتصرف، عن الشهادة ضده. وهكذا سُجل الحادث ضد مجهول. فاستقبلت أمه الأرملة، ومعها محلة جقور، عباس بهلوان، كما يستقبل الحجاج الذين يعودون من مكة، ، بالطبول والدفوف. وقد بلغت الحماسة بها حداً جعلها تهتف بحياة الملك غازي، الذي كان قد تعب من الموت في قبره الكائن في الأعظمية في بغداد.

ولكن إذا كان هذا الأمر قد انتهى إلى ما أسر محلة جقور، بعد قلق لم يستمر طويلاً لحسن الحظ، فإن ثمة أموراً أخرى، وقعت في هذه الفترة أيضاً، أزعجت المحلة وأقلقتها، بل وأخرجتها عن طورها. فعلى الرغم من أن اللص محمود العربي كان مسؤولاً عن المحلة، بطريقة ضمنية، ضد السطو في الليالي على البيوت، فقد وقعت سرقات ليلية عدة عجز اللص محمود العربي عن ايجاد تفسير لها. فقد

كان الجميع يعرفون أن محمود العربي على صلة وثيقة مع لصوص كركوك، وباعتباره لصاً محترفاً لا يمكن له أن يخرج على قاعدة، تكاد تكون عقيدة دينية، وهي أن محلة اللص تظل بمنأى عن السرقة. فإذا ما وقعت سرقة في المحلة، فإن الأمر يكون متعلقاً بشرف اللص وهيبته، بل ان بعضهم كان يلزم نفسه بالتعويض عن الضرر، حتى إذا اضطر إلى دفع ذلك من جيبه الخاص، إذا ما فشل في العثور على اللصوص الفعليين واستعادة ما سُرق. ولم يكن مثل هذا الأمر ليحدث، وهو نادر على أي حال، إلا عندما تنعدم الوحدة بين اللصوص، ويدب الخلاف والصراع بينهم، أو أن يقدم لصوص جدد على العمل، من دون معرفة أو اعتراف بالتقسيم الجغرافي للمدينة بين اللصوص. وكانت الحكمة وبعد النظر، يرغمان هذا اللص أو ذاك، أحياناً، على شراء المسروقات من اللصوص وإعادتها مرة أخرى إلى أصحابها في محلته، مع كلمة اعتذار مناسبة، بأن ما حدث لن يتكرر مرة أخرى.

لقد سرقت في ذلك الصيف، حيث يرقد الناس آمنين في الليالي على سطوح منازلهم، في محلة جقور، بيوت عديدة، من بينها بيت الحاج أحمد الصابونجي الذي كان معروفاً بثرائه. كانت هذه البيوت قد نهبت تماماً، حتى لكأنها نُظفت بمكنسة سحرية. وقد أحرج ذلك اللص محمود العربي الذي أقسم، أمام سكان المحلة الغاضبين، واضعاً يده على القرآن الكريم، بأن يقتفي أثر الفَعَلة الذين استهانوا بوجوده في المحلة، وأن يصفّيهم واحداً بعد الآخر، مهما بلغت حماية الشرطة لهم. وقد غادر المحلة بالفعل، بعد أن دسّ مسدسه في حزامه، ولم يشك أحد بأنه سيفي بوعده. وغاب ثلاثة أيام، لم ينم خلالها كما يبدو ولا لحظة واحدة. وعندما عاد، كان مرهقاً حتى الإنهاك، وأعلن، بيأس: «لا علاقة للصوص المدينة بهذه

السرقات». وعلمت محلة جقور أن لصوص كركوك، ومعظمهم من العرب والأكراد، قد ذكروا، وأمامهم القرآن الكريم، أنهم لا يمكن أبداً أن يُقدِموا على محرمة من هذا القبيل، والأكثر من ذلك، أنهم أعلنوا النفير لمواجهة هذا التحدي الشرس. وهكذا أعلن اللص محمود العربي، في مجلس خاص، انعقد في فناء بيت الحاج أحمد الصابونجي، وحضره المختار سلمان حنش والملّا زين العابدين القادري وآخرون من شيوخ المحلة ووجهائها، أنه لا يملك من المال ما يمكن أن يعوّض به المتضررين. ولذلك، فإنه يوافق على أي قرار، تتخذه المحلة بشأنه، بما في ذلك طلب النزوح إلى مكان آخر، مؤكداً أنه إذا امتلك الوقت والفرصة فإنه سيمسك باللصوص، حتى إذا كانوا قد جاؤوا من مدينة أخرى، وأنه لن تقع سرقة أخرى في محلة جقور.

كان الجميع واثقين مما يقوله، ولذلك أكدوا له أنهم يحتاجونه الآن أكثر من أي وقت مضى. عند ذلك نهض اللص محمود العربي وقال: «هناك ما ينبغي عليّ القيام به. أما أنتم، فانصرفوا إلى بيوتكم وناموا مطمئنين على أموالكم وأرواحكم».

وعلى أثر ذلك، انتشرت في المحلة إشاعة غريبة، تناقلتها العجائز في البداية، ثم انتقلت إلى الآخرين، كما تنتقل النار في الهشيم. فقد أخذ سكان المحلة يروون لبعضهم أن اللصوص ليسوا من البشر، وإنما هم من الجن.

وقد بلغ الفزع ببعضهم حداً، قصدوا معه بيت المجنون دلي إحسان، متوسلين وطالبين منه التدخل لوقف الغارات الليلية للجن والعفاريت على محلتهم. ولم يفعل دلي إحسان شيئاً سوى النظر في عيونهم، ثم نهض، هائماً على وجهه في المدينة، وتاركاً إياهم مع أمه التي قالت: «لقد ذهب يحشد جنود الملائكة ضد جنود

الشياطين». وقد ازداد الأمر سوءاً، عندما أقدم بعض الصبية، الذين تنقصهم التربية الحسنة، على الخروج من الزوايا فجأة، في الليل، لمباغتة النساء المنفردات، سائرين على أرجل خشبية طويلة، مثل عمالقة أسطوريين، وقد غطوا أجسامهم بعباءات أمهاتهم. وقد انهارت نساء عديدات، بسبب الخوف والرعب. وسقطن على الأرض، يرفسن بأرجلهن، مختنقات بالزبد الذي كان يملأ أفواههن، ويسيل مختلطاً بتراب الزقاق. كما أجهضت الحوامل منهن. وعند ذاك، لم يجد الآباء المتشددون بداً من شد هؤلاء الصبيان بالحبال، داخل بيوتهم. وقد وجدت المحلة في النهاية طريقة لا تخطىء في القضاء على الجن والعفاريت والشياطين وإبعادهم عن محلة جقور، حيث أقدَم الناس على تعليق آية الكرسي على أبواب بيوتهم، بنصيحة من الملا زين العابدين القادري، ولكن أيضاً بطلب من اللص محمود العربي، الذي ذكر صراحة: «اكفوني شر الجن، وأنا أكفيكم شر البشر». وقد بالغ بعض الناس، فعلق فوق مداخل البيوت نعال خيول وأقراصاً من الخرز الأزرق، كما وضعت النساء النفساوات السكاكين والمدى تحت وسائدهن ووسائد أطفالهن الصغار لإبعاد الأرواح الشريرة، وبخاصة تللك الروح التي كانت مولعة بالنساء النفساوات، اللواتي كنّ يسمينها «آييه» التي كانت تتقمص شكل امرأة عجوز طيبة، وتخطف النفساء لتقدمها طعاماً للدببة أو تغرقها في النهر. وكان الرجال يتنبهون، أحياناً، إلى اختطاف نسائهم، فيلاحقون هذه الروح الشريرة وينقذون الضحية من الموت المحتم، ربما في آخر لحظة.

وهكذا، إذا كانت محلة جقور قد تكفلت بنفسها القضاء على الجن والأرواح الشريرة وإبعادها، فقد أوفى اللص محمود العربي بالوعد الذي قطعه على نفسه. كل ليلة، كان يأتي أكثر من عشرين رجلاً ملثماً، يضعون مسدساتهم في أحزمتهم، ويقفون عند المداخل

والأزقة المؤدية إلى محلة جقور، فيما كان بعضهم يقطع المحلة جيئة وذهاباً، طيلة الليل، حتى الصباح.

ولم تدّخر محلة جقور وُسْعاً في تكريم هؤلاء اللصوص وإظهار احترامها لهم، فقد أبقى الكثيرون أبواب بيوتهم مفتوحة أمامهم، يمكن لهم الدخول إليها، فيما إذا احتاجوا لشرب الماء أو لقضاء حاجة، كما أن البيوت كانت تتناوب على تقديم الطعام والشاي لهم. ولكن الأهم من ذلك كله، هو أن المحلة كانت تريد أن تُظهر ثقتها المفرطة بهم. ولم تكن المحلة، بالتأكيد، على خطأ في تقديرها هذا. مع مجيء هؤلاء الرجال الملثمين، عمّ الأمن والسلام المحلة، بطريقة لم يسبق لها مثيل، بل إن بعضهم صادق شبان المحلة، واشترك في ألعاب الزورخانة المغرية، كما أُغرم أحدهم بفتاة، يبدو أنها كانت تشجعه هي الأخرى. لقد دخلت روح جديدة إلى محلة جقور، روح قوة مغرية، جعلت المحلات المجاورة الأخرى تحسدها عليها. وقد أعمت الغيرة بعض النفوس الضعيفة في هذه المحلات، بحيث أنها اتصلت سراً باللص محمود العربي، عارضة عليه الانتقال إليها، لقاء مسكن مجاني وراتب شهري تدفعه له المحلة. ولكن محمود العربي ردّ عليهم بحزم، قائلاً، إنه يمتلك، قبل كل شيء، مهنة تدرّ عليه الذهب، ولن تبلغ به الوضاعة، في يوم من الأيام، حد استلام الرشوة من مواطنيه أو ابتزازهم أو التسوّل منهم، لقاء واجب؛ والأكثر من ذلك، ان الإنسان لا يخون وطنه ببساطة لقاء كسرة من الخبز، وكان يعني بالوطن محلة جقور.

الفصل الثالث

في ذلك الصيف الذي عبث فيه اللصوص في محلة جقور، انعقدت صداقة وثيقة بين حميد نايلون وعبد الله علي وفاروق شامل، زوج كولبهار، والذي كان يعمل في مطبعة بلدية كركوك التي كانت تقع في شارع الملكة عالية. وقد انضم إليهم، فيما بعد، الشاب التركماني، ذو الوجه الهادىء الرقيق، نجاة سليم، الذي كان يدرس في مدرسة التدريب المهني التابعة لشركة نفط العراق في نيوكركوك. كانوا يلتقون غالباً في المحلة، أو يقصدون أحد المقاهي القريبة، ليلعبوا الطاولي أو الدومينو. ورغم أن الأمر بدا بريئا، بالنسبة لمعظم الناس في محلة جقور، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم أصدقاء لبعضهم الآخر، حتى من دون إعلان للصداقة، فإن الأمر كان أكثر من ذلك هذه المرة. كان ثمة مصير أقوى من الصداقة، يوحد هؤلاء الرجال. فقد أخذوا يبشرون بأفكار جديدة، لم تكن مألوفة لدى معظم سكان محلة جقور. كانوا يشتمون الانكليز ويسخرون منهم، واصفينهم بالمستعمرين الذين يستغلون العمال. وقد ضحك فتح الله، ابن الملّا زين العابدين القادري، والذي كان يملك معملًا لصنع عصير الناميليت، وهو يتحث إلى حميد نايلون: «أكاد لا أفهمك يا حميد، لماذا تشتم الانكليز؟ ألا تعرف أنهم أهل فضل على هذه المدينة؟ كيف يستغلون العمال، إذا كان العامل في شركة النفط يقبض أضعاف ما يقبضه موظف عند الدولة؟»

الحق، أن موقف حميد نايلون والآخرين الذين يؤيدونه كان ضعيفاً

في هذه المناقشات، يصعب الاقتناع به. فقد كان حتى الخبازون والقصابون وسوّاق السيارات يعترفون بفضل الانكليز على المدينة، حاسدين العمال المترفين، الذين يقبضون رواتبهم من الشركة. والأكثر من ذلك، أن الشركة كانت تعوض العمال الذين تفصلهم، بسبب الشيخوخة، بمئات الدنانير مع ميدالية ذهبية لذوي الخدمة الطويلة. وقد ترك هذا العطف الانكليزي أثره على قلوب الناس، حتى أن الملا زين العابدين القادري نفسه أعلن، ذات مرة، في خطبة الجمعة، أن الانكليز هم أكثر رحمة من كثير من المسلمين. وعلى إثر ذلك، أشاع حميد نايلون وأصحابه في المحلة أن الملا زين العابدين القادري يستلم كل شهر «مظروفاً» كبيراً ممتلئاً بالنقود من الانكليز. وأخذت النساء يتحدثن باحتقار عن الملّا، زاعمات أنه يشرب العرق أيضاً، ويغطي الكأس عادة بعمامته، وأن العمال يكسبون نقودهم بعرق جبينهم، أما الملاّ فبدعايته للانكليز، وقد ساء موقف الملّا زين العابدين القادري في المحلة إلى حد أن الكثيرين قاطعوا مسجده، وراحوا يترددون على مسجد آخر قريب، كان إمامه شاباً متحمساً يدعو إلى الحرب ضد اليهود في فلسطين وحماية القدس. وهكذا، لم يجد الملّا زين العابدين القادري بداً من إلقاء خطبة نارية شتم فيها الانكليز بدون مناسبة، معلناً الجهاد ضدهم في كل مكان من البلدان الاسلامية. فظهرت، في صباح اليوم التالي، شعارات، مكتوبة بالصبغ الأحمر على الجدران: «يسقط الاستعمار الانكليزي» و«تسقط الصهيونية» و«تعيش نقابة عمال النفط» و«عاش الحزب الشيوعي العراقي»، أثارت لغطاً شديداً بين الناس، الذين لم يكونوا يعرفون معنى النقابة أو الحزب الشيوعي. ولكنهم أدركوا، نوعاً ما، خطورة هذه الشعارات عندما رأوا عند الظهيرة سيارة جيب، تدخل المحلة ويهبط منها شرطيون، يرتدون سراويل خاكية قصيرة، تتهدل إلى ما

تحت الركبة، حاملين في أيديهم سطلاً مليئاً بصبغ أبيض وبضع فراشٍ، حيث راحوا يغطون الشعارات الحمر بالصبغ الذي معهم، ولأنهم لا يعرفون القراءة، فقد لطخوا أيضاً بصبغهم الشتائم التي كان الأولاد يدونونها على الجدران ضد بعضهم الآخر. وقد فرح الأطفال بالجد الذي أظهره الشرطيون في عملهم، فراحوا يدلونهم على كل الكتابات الموجودة فوق الجدران، ولكنهم إذ رأوا أن هدف الشرطيين كان هو أزالة الشعارات الشيوعية وحدها، ملأوا جدران المحلة، بعيداً عن مرأى الشرطة، بشعار «يعيش الحزب الشيوعي» و«تعيش نقابة عمال النفط» وعادوا ليدلوهم عليها مرة أخرى. وقد تسبب عبث الأطفال في إجهاد الشرطيين، الذين لم يفطنوا أبداً إلى هذه المكيدة، حيث ظلوا يعملون حتى المساء، فاضطروا إلى الانسحاب بعد نفاد صبغهم، وبدون أن يزيلوا جميع الشعارات، واعدين بالعودة في اليوم التالي، وهو وعد لم يلتزموا به، على الرغم من أن الأطفال ملأوا جدران المحلة بشعارات أكثر من الشعارات التي أزيلت، بل إنهم ابتكروا شعارات أكثر إيلاماً وتقريعاً ومساً بكرامة الحكومة والدولة.

في الحقيقة، إن الشرطة عادت في اليوم التالي، ولكن بدون ملابس رسمية. فقد لاحظت النساء، اللواتي يجلسن، عادة، أمام بيوتهن، ثلاثة رجال غرباء، يدخلون المسجد، كما لو أنهم داخلون إلى الصلاة، ثم يخرجون بعد دقائق ومعهم الملاً زين العابدين القادري، الذي بدا مرعوباً من الخوف، وهو يرفع يديه عالياً نحو السماء، متحدثاً بصوت يكاد يقرب من الصياح. وعلمت النساء من الأطفال، الذين غادروا المسجد هم أيضاً، متابعين الموكب، أن الرجال الثلاثة هم سرّيون عند الحكومة، وأنهم أخذوا الملّا زين العابدين القادري معهم، لحبسه، بتهمة الوطنية، فنهضن تاركات أطفالهن الصغار، الذين كانوا يزحفون على الأرض بين الأرجل،

ورحن يشتمن رجال الأمن، الذين ترفعوا عن الردّ عليهن، تجنباً للفضيحة، حاثين الملّا، المتباطىء في سيره، على الإسراع. ولكن بعض النساء، المشهورات بالصفاقة وقلة الحياء، لاحقن الموكب، تاركات عباءاتهن ترفرف في الريح، وهنّ يشتمن الحكومة والانكليز، حتى السوق الصغير، حيث لم تعد الملاحقة ممكنة. وعند ذاك التفت أحدهم إلى صاحبيه، قائلاً: «الحمد لله الذي خلصنا منهن». ثم وجه كلامه إلى الملّا زين العابدين القادري، مستفزاً: «إذا كنت من الذين يخرون على أنفسهم بهذه السرعة، فلماذا ورطت نفسك في شتم الحكومة؟» فأقسم الملّا أنه كان دائماً من المؤيدين للحكومة ولنوري السعيد بالذات، وأنه هاجم رشيد عالي الكيلاني في خطبة الجمعة، بعد انهيار حركته، ملقياً بمسؤولية دم المسلمين الذي سُفك في واقعة سن الذبان في الحبانية على عاتقه. ضحك رجل الأمن، وقال له: «هذه قصص قديمة، لم تعد تهم أحداً».

وفي القشلة، الواقعة في الصوب الآخر من المدينة، مقابل النهر، أجلسوا الملّا على كرسي من الخشب، مقابل منضدة عتيقة، جلس وراءها رجل، عرف أنه المفوض حسين الناصري. قال المفوض للملّا زين العابدين القادري: «حسنا يا ملّا، باعتبارك من رجال الدين الذين نقدرهم، ما كان ينبغي لك أن تكون شيوعياً». فامتقع وجه الملّا حتى أنه ما عاد قادراً على التخلص من الرجفة التي داخلته: «أستغفر الله، يا ابني، أستغفر الله». وإذ لاحظ المفوض خوفه، طلب له كأساً من الماء و«استكاناً» من الشاي المحلّى بالسكر، حتى يهدىء من روعه، ثم قال له معاتبا: «إذا لم تكن شيوعياً فلماذا تهاجم الحكومة؟» ولم يجد الملّا فائدة في ذكر الأسباب، فقال مبرراً: «لا أُنكر أنني قد تهجمت على الانكليز، ولكنني فعلت ذلك لفصلهم حميد نايلون من عمله، وهو أمر لا علاقة له بحكومتنا، حفظها الله، فأنا معروف في

كركوك كلها بتأييدي لصاحب الفخامة نوري السعيد». فضحك مفوض الأمن، حتى يجعل الجو أكثر ودية: «هذا لا يهم، يمكنك أن تؤيد حتى الاشتراكي صالح جبر، فأنا نفسي اشتراكي متحمس. إن ما يهمنا هو القضاء على الشيوعية والنقابات السرية التي تدعو إلى الكفر والإلحاد». فوافقه الملّا زين العابدين، قائلاً: «لعنة الله على ستالين وكل الحمر في العالم». وعند ذلك، عرض عليه المفوض، الذي لم يخفِ تعاطفه معه، أن يكون وكيلاً للأمن في المحلة، لقاء سبعة دنانير في الشهر؛ إذ أن كل ما ينبغي عليه عمله هو مراقبة الشيوعيين وأعداء الحكومة والإسلام والتبليغ عنهم، منبّهاً إياه إلى امتلاء جدران محلة جقور بالشعارات الشيوعية، مما يدل على وجود شيوعيين فيها. شكره الملّا زين العابدين القادري على ثقة الحكومة به، نافياً أن يكون في محلته أي شيوعي، وموضحاً أن الذين خطوا الشعارات، ربما كانوا قد جاؤوا من محلات أخرى، ثم أضاف ان الله قد مَنّ عليه بفضله، حيث تملك العائلة معملاً لصناعة الناmليت وآخر لصناعة الثلج، بالإضافة إلى مطحنة عصرية. وقد أنهى اعتذاره بالقول: «ان مركزي لا يسمح لي أن أكون جاسوساً، ولكنني سأتحدث مع الفقيه الذي يعيش عندي في الجامع، فهو فقير ومحتاج ومن أهل الله، فقد يقبل أن يعمل سرياً عندكم» فابتسم المفوض، قائلاً:

دع فقيهك وشأنه، فالأمر ليس على هذا القدر من الأهمية». ثم اعتذر منه، لإزعاجه، وودعه حتى الباب، قائلاً: «أرجو ألا تتدخل في السياسة بعد الآن. وإذا ما أردت التدخل فاشتم الشيوعية وحدها، فهي الشيء الوحيد الذي يسمح بشتمه في هذا البلد».

ولكن الملّا زين العابدين القادري قرر، بعد إذلاله بهذه الطريقة، ألا يتدخل في السياسة بعد ذلك، ولا حتى أن يشتم الشيوعية. فإذا كان المفوض نفسه يؤيد الاشتراكية، فمَن يضمن أن مدير الشرطة لا

يؤيد الشيوعية سراً؟ الحق، أن الملّا زين العابدين القادري كان مخطئاً في بعض اجتهاداته، وبالذات في ما يتعلق بفقيهه، عزيز شيروان الذي رشحه أمام المفوض للعمل كوكيل في الأمن. فقد كان الملّا يجهل أن هذا الشاب الكردي القادم من السليمانية، ليدرس الفقه عنده، والذي كان يقيم في المسجد، ويطرق أبواب البيوت عصر كل يوم، حاصلاً على رغيف أو كسرة منه، فقد كان الناس يعتبرون ذلك واجباً دينياً لا يمكن نقضه، لم يكن شيوعياً فحسب، وإنما كان قد حوّل المسجد نفسه إلى مركز سري للبريد الحزبي. وكان قد فكر بالهرب عندما اقتاد رجال الأمن الملّا معهم، ولكنه عاد فعدل عن ذلك، عندما عرف بالحقيقة، مطمئناً الملّا المنزعج على أن رجال الأمن كثيراً ما يحاولون الضغط على رجال الدين، لتخويفهم.

منذ ذلك اليوم، اكتسب الملّا زين العابدين القادري احتراماً ما حظي به قط من قبل. فقد أخذ الناس يتحدثون عنه كوطني معارض، يلتزم بمبادىء دينه، بل ان بعضهم أشاع عنه أنه قد صفع مدير الشرطة نفسه، وأنه قد ذهب وفتح بوابة السجن وأطلق سراح السجناء، دون أن يجرؤ أحد على اعتراض سبيله. والحق، أن الملّا زين العابدين كان يشعر بالزهو وهو يستمع إلى هذه الإشاعات، التي كان يواجهها بإبتسامة ماكرة، رافضاً التعليق عليها، غير أنه أصبح أكثر حذراً، ملتزماً بنصيحة المفوض بعدم الخوض في السياسة، التي استبدل بالمناقشة حولها المناقشة حول جنس الملائكة: هل هم ذكور أم إناث؟ وكان من رأيه، على عكس رأي الكثير من العلماء المسلمين، أن الملائكة إناث، ولا وجود لملائكة ذكور. وكان يستدل على رأيه هذا بحقيقة أن كل ذكر لا بد وأن يملك قضيباً وهو أمر غير ضروري عند الملائكة، الذين لا يمارسون الجنس، بالطبع. ومنطقياً، إذا لم يكونوا ذكوراً، فإنهم يكونون إناثاً، وهذا ما يقول به العقل السليم

على أي حال. ولكن حميد نايلون رد عليه ذات مرة، أثناء جلسة مناقشة، كان يستمع إليها الرجال في المقهى، قائلاً: «لو أخذنا بمنطقك هذا لتوصلنا إلى أن الملائكة مخنثون. لماذا ينبغي للملائكة أن تمتلك فروجاً، إذا لم يكن هناك ملائكة ذكور؟» كان رأيه مقنعاً، ومع ذلك رفضه جميع الحاضرين، نظراً لاحتقارهم للمخنثين. فأبتسم حميد نايلون، وقال للملّا: «إنني من رأيك في الحقيقة يا ملّا، فإن ذوق الله أرفع من أن يخلق ملائكة ذكوراً يشبهوننا، نحن الرجال القبيحين، بدل الحوريات اللواتي يبهجن القلوب». وغص الرجال بالضحك، فيما قال له الملّا: «لعنة الله عليك يا حميد، أنت تحول كل شيء إلى نكتة». ومع ذلك فإن حجة حميد نايلون أثرت في الملّا زين العابدين القادري، الذي راح يبحث عن أدلة لا تُدحض أبداً.

كان ما قاله الملّا زين العابدين القادري للمفوض حسين الناصري، عن عدم وجود شيوعيين في محلة جقور، هو فوق كل شبهة أو ريبة، فلم يكن يوجد في هذه المحلة أحد من الكاكائيين ذوي الشوارب الكثّة، والتي كانت تعتبر العلامة الوحيدة الدالة على الشيوعية. وكان الناس محقين في اعتقادهم هذا، فقد عمد الشيوعيون في المدينة، خلال فترة الحرب العالمية الثانية، إلى تبنّي شارب ستالين واتخاذه رمزاً للكفاح الوطني، مما سهّل مهمة رجال الأمن في التعرف عليهم ومطاردتهم. وبالطبع، كانت للفقيه عزيز شيروان ولحميد نايلون، بل ولكل الرجال الآخرين في المحلة شوارب، إذ لا يمكن للرجل أن يكون رجلاً بدون شوارب، حتى أن أسوأ شتيمة كان الرجال يتبادلونها فيما بينهم، أثناء مشاجراتهم، هي أن يهدد أحدهم الآخر بالقول: «سوف أحلق شواربك». ولكن شواربهم كانت دقيقة، غير كثّة، أشبه ما تكون بضربتي فرشاة رسام تحت الأنف، بل إن شوارب عامل النفط عبد الله علي، الأسمر، النحيف، ذي الطول

المفرط، كانت مقصوصة من الجانبين وتكاد تشبه شوارب هتلر. ولذلك، ما كان يمكن لأحد أن يتصور أن لهؤلاء الرجال علاقة ما بالسياسة. فما عدا الفقيه عزيز شيروان، الذي كان شيوعياً قبل أن يقدم إلى المحلة، وفاروق شامل، الذي تعرف على الشيوعيين في المطبعة التي يعمل فيها، وهو في كل الأحوال من الطارئين على محلة جقور، لم يكن هناك أي شيوعي أصيل في المحلة. أما الآخرون، ومن ضمنهم حميد نايلون، الذي أخذ يقود سيارة خشبية عتيقة، لنقل المسافرين بين كركوك والحويجة، يملكها اليهودي شاموئيل، وهو صاحب متجر لبيع الساعات في شارع الأوقاف، والوكيل الوحيد لساعات فلكا ونفادا السويسرية، فكانوا مأخوذين بفكرة واحدة هي فكرة النقابة التي تدافع عن حقوق اعضائها. كانت الشرطة تعتبر النقابات الوجه الآخر للشيوعية، وتطاردهم دون رحمة. ولكن حميد نايلون كان يعتقد، جازماً أنه لو كانت هناك نقابة علنية لعمال النفط لما استطاع المستر ماكنلي وزوجته العاهرة هيلين من رميه، هكذا مثل فأر، إلى الشارع، بل انه تأثر حتى اغرورقت عيناه بالدموع، عندما عرف أن النقابة السرية أصدرت منشوراً تدافع فيه عنه. وعندما أوصل نجاة سليم المنشور إليه، ظل يحدّق فيه المرة تلو الأخرى، ثم أخفاه في طي حقيبة في البيت. وفي اليوم نفسه، طلب من نجاة سليم أن يعرفه على هؤلاء الناس. فقال له نجاة سليم: «ولماذا أعرفك عليهم؟ انهم أقرب إليك مما تعتقد». واستغرب حميد نايلون. فقال له نجاة سليم: «هيا نذهب، لنشرب الشاي عند النقابة». وقاده إلى الغرفة التي كان يسكنها فاروق شامل مع زوجته كولبهار، لصق بيته تماماً. وعند ذاك أطلق حميد نايلون ضحكة أقلقت هدوء مساء محلة جقور وقال: «يا لي من حمار!»

وهكذا، وجد حميد نايلون طريقه إلى النقابة، فعلى الرغم من أن

فاروق شامل لم يكن عامل نفط، إلا أنه كان في الخلية التي توجّه عمل النقابات في المدينة. وفي هذه الجلسة، أبلغه فاروق شامل أن يحاول، ولكن بحذر، كسب عمال محلة جقور إلى النقابات وربطهم بقيادة الحركة العمالية في المدينة. اختفى حميد نايلون، بعد ذلك، أسبوعاً كاملاً. عاد بعدها ومعه قائمة بأسماء واحد وعشرين شخصاً في محلة جقور، بينهم أربعة عمال نفط، يريدون الانتماء إلى النقابة. وقد اعتذر حميد نايلون لأنه لم يكن هناك ما يكفي من الوقت للاتصال بعدد آخر من الناس. كان هؤلاء، في الحقيقة، ينتمون إلى مهن مختلفة، بينهم ضابط برتبة ملازم ثانٍ، وشرطي، وثلاثة جنود، ودرويش كان معروفاً في المحلة بممارسة ضرب الشيش والتهام الزجاج، على الطريقة القادرية، في إحدى تكايا المتصوّفة، التي كانت تقع في المناطق الكردية من المدينة. واستغرب فاروق شامل أن يجد أيضاً في قائمة حميد نايلون اسم اللص محمود العربي. فقال لحميد، بكل وقار: «ما الذي قلته حتى كسبت واحداً مثل اللص محمود العربي إلى جانب النقابة؟» فرد حميد نايلون، ضاحكاً: «آه، كان ذلك سهلاً مع محمود. لقد اقترحت عليه أن يكون رئيساً لنقابة، تضم جميع لصوص كركوك. وقد كان هذا هو بالذات ما يحلم به».

ما كاد حميد نايلون ينتمي إلى النقابة ويتصل بالعمال، حتى حدث انقلاب واضح في موقفهم من الشركة التي اعتبروها مسؤولة عن الحيف الذي يحيق بهم، وخاصة بعد أن فصلت الشركة عدداً من الذين اعتبرتهم مخربين؛ انتهوا، بعد حين، إلى الوقوع في يد الشرطة، التي استخدمت في تعذيبهم كلابات خاصة لسحب الأظافر، ألمانية الصنع، أشتراها وزير الداخلية بنفسه، عندما كان يقضي عطلته السنوية في تركيا. هذا الهجوم الفظ على العمال جعلهم يدعون إلى الإضراب، كما لو أن الأمر يتعلق بشرفهم الشخصي الذي أُهين.

في الأسبوع الذي سبق الإضراب الذي أعلنه عمال النفط، شاهد رجال المحلة الذين يتجمعون، عادة، عصر كل يوم، أمام بيوتهم، رجلاً غريباً، يرتدي الدشداشة، يدخل المحلة على دراجة. وقد قطع هذا الرجل الغريب المحلة أكثر من مرة جيئة وذهاباً قبل أن يتوقف أمام الجامع، محدّقاً في الشبان المتجمعين في المحلة. وكان هؤلاء قد عرفوه: «أنظر، إنه سري، جاء يتجسّس علينا». أراد حميد نايلون أن يذهب إليه ليضربه، ولكن فاروق شامل منعه: «ما هكذا يكون العمل يا حميد. انتظر لحظة فقط!» ذهب فاروق شامل إلى بيته، وغاب دقائق قليلة، عاد بعدها ضاحكاً حتى من دون أن يلقي نظرة على الرجل، الذي كان قد جلس على دكّة الجامع، وأخرج من عبّه «صمونة» عسكرية سوداء، راح يقضمها بانتشاء. بعد لحظات، انتبه الرجال الواقفون إلى صوت كولبهار، وهي تصرخ في الرجل ذي الدراجة: «يا كلب، يا حقير، منذ أيام، وأنت تتحارش بنساء المحلة. أليست عندك ذرة من الغيرة والشرف؟» وقبل أن يتمكن الرجل من ازدراد اللقمة، التي كانت لا تزال بين أسنانه، نزعت نعليها محاولة ضربه. وفجأة، ضجت النساء، اللواتي يجلسن أمام بيوتهن، بالصراخ، بل وتركت أخريات أعمالهن وخرجن من البيوت، مهاجمات الرجل الذي انكفأ على نفسه وهو يردّد: «لا والله، لم أفعل شيئاً. كانت الضربات تنهال على رأسه من كل جانب. واشترك الأطفال أيضاً في الصراخ والضرب، حتى أن أحدهم غافله وأراد ان يدخل قضيباً من المعدن في مؤخرته، جزاء على وقاحته تجاه نساء المحلة. ولم ينقذه سوى عباس بهلوان، الذي أمسك به مثل فأر مذعور، وصفعه أكثر من مرة، فهوى في مجرى المياه القذرة الصغير، الذي يخترق المحلة. ثم رفعه وركله برجله مرة أخرى، فسقط على وجهه وانبثق الدم من أنفه. حاول الرجل أن يهرب، لكن الأطفال

أمسكو به، فسقط مرة أخرى. ورفع عباس بهلوان دراجته عالياً، ثم رمى بها بعيداً فتكسرت، وأمسك بالرجل فرفعه، قائلاً: «إذا دخلت هذه المحلة مرة أخرى، فاقرأ على مؤخرتك السلام». وأقسم الرجل: «لن أمرّ، في حياتي كلها بهذه المحلة». عند ذاك، توجه عباس بهلوان نحو الأطفال والنساء، قائلاً: «دعوه يذهب، لن تروا وجهه القذر بعد الآن». وغاب الرجل الذي كانت دشداشته قد تمزقت وتلطخت بالوحل والدم، يجر دراجته التي كانت تأبى السير، ولم يظهر بعد ذلك بالفعل.

في اليوم الذي أعلن فيه الإضراب، وقف حميد نايلون مع أكثر من عشرين عاملاً على سكة القطار التي تفصل ما بين المدينة والشركة، مانعين العمال الخائفين والمتردّدين من الذهاب إلى العمل، واصفينهم بالجبن والعمالة للانكليز. وقد حدثت مشادّات كثيرة بين المضربين وغير المضربين، سكبت فيها الأطعمة التي تحتويها «السفرطاسات» على الأرض، بينما استخدم بعضهم الملاعق وسكاكين الطعام للدفاع عن أنفسهم. وظلت الشرطة، طوال اليوم الأول، تقف على مبعدة وتتفرج على مشاهد القتال بين العمال، متحفزة للتدخل في اللحظة المناسبة. وانسحب حميد نايلون إلى الوراء مع ثلاثة من العمال الآخرين، حتى بدايات الأزقة، المؤدية إلى الشارع الرئيس. كان كلما رأى عامل نفط، يرتدي بدلته الزرقاء يحييه، قائلاً، بلامبالاة: «هيا عد، لقد أرجعونا هذا اليوم، إستمتع بعطلتك يا أخي». وكان العامل يسأل مندهشاً: «عطلة؟ أية عطلة؟» فيجيب حميد نايلون بسرعة: «ألا تعرف؟ الملك يزور كركوك اليوم». كان هذا هو أسلوبه مع من كان يفترض فيه السذاجة. أما مع الذين كانوا أكثر فطنة، فكان يمثل دور الهارب الذي نجا بجلده، مدّعياً أن معارك وقعت بين الشرطة والعمال، وأن الشرطة تلقي القبض، بل وحتى تطلق النار بدون

تمييز، على كل من تصادفه من العمال. ناصحاً لهم بالعودة من حيث أتوا. وكان الكثيرون يصدقونه حتى دون إلقاء المزيد من الأسئلة. وفي الحقيقة، فإن منطقه ما كان يُردّ إلا نادراً حتى مع العمال الذين كانوا مطلعين على حقيقة ما يجري. كان يقول لهم إن الإضراب يستهدف زيادة رواتبهم وتحقيق مكاسب لهم. ومن الأفضل لهم أن ينضموا إلى الأضراب، دفاعاً عن مصالحهم نفسها على الأقل، بدل إفشال العملية والإضرار بالآخرين. وفي كل الأحوال، فإنهم لن يحاسَبوا حتى إذا فشل الأضراب؛ لأنهم يستطيعون أن يدّعوا دائماً، أمام رؤسائهم، أن العمال المضربين هم الذين منعوهم من الوصول إلى العمل. كان عرضه مغرياً حقاً: «شاركونا النجاح، أما الفشل فارموه علينا وحدنا».

وهكذا، مرت أيام الإضراب السبعة عشر، ولكن دون نتيجة. صحيح أن العمل في الشركة قد شُلّ، بعد أن كثر عدد العمال المضربين، ولكن ما من أحد كان يفكر بالتنازل أمام المضربين. كان ذلك، ببساطة، خروجا على القاعدة، لا يمكن أن يسمح به مدير الشركة ولا المتصرف ولا حتى وزير الداخلية نفسه. كان المستر تيسو، مدير الشركة، يميل، في الحقيقة، إلى التفاهم مع المضربين، فقد كان هو نفسه، ذات يوم، في حزب العمال، عندما كان طالباً في جامعة كيمبردج، ولكن المتصرف قال له، بأدب: «إنني أفهم مشاعرك الإنسانية يا مستر تيسو، فأنتم الانكليز مغرمون بالديمقراطية. ولكن كيف يمكن ممارسة الديمقراطية مع الحمير؟»

ويبدو أن المترجم، الذي كان المتصرف قد اصطحبه معه، والذي لم يكن يتقن الانكليزية تماماً، قد التبس عليه الأمر، فاستبدل بكلمة الحمير القرود. وعند ذلك ابتسم المستر تيسو، قائلاً: «ينبغي يا صاحب السعادة أن توجّه هذا السؤال إلى داروين».

في الواقع، إن الأمر كان أكبر من المتصرف نفسه، على الرغم من أنه حاول الظهور بمظهر الرجل القادر على اتخاذ القرارات. فقد اتصل به وزير الداخلية، هاتفياً، وأمره بقمع الإضراب، مهما كلف ذلك من ثمن. وكان وزير الداخلية نفسه قد تلقى أمراً مماثلاً من رئيس الوزراء، الذي قرر اللجوء إلى العنف، بنصيحة من مستشاره الانكليزي، الذي كان لسوء الحظ من حزب المحافظين ومن الحاقدين على العمال، بسبب خسارة حزبه في الانتخابات الأخيرة.

كان العمال يجتمعون كل يوم، منذ الصباح الباكر، في كاورباغي، وهو بستان يكاد يكون قاحلاً، لا يبعد كثيراً عن مكاتب شركة النفط، ويلقون قصائد لمحمد مهدي الجواهري ومعروف الرصافي وشعراء آخرين أقل شهرة. وبالطبع، فإن نصف سكان مدينة كركوك كان ينتقل كل يوم إلى كاورباغي، وخاصة النساء والأطفال، ليس بسبب تأييدهم للعمال، وهو أمر كانوايفعلونه بالتأكيد، وإنما لأن الإضراب كان مهرجاناً غنائياً مثيراً، يستمر من الصباح حتى المساء، لم تكن كركوك قد شهدت مثيلاً له من قبل. وكان أطفال ونساء العمال المضربين يأتون حاملين إليهم الطعام حتى من أبعد محلة في المدينة. وقد منحت الهلاهل النسائية، التي لم تكن لتنقطع أبداً، القوة حتى لأولئك الذين كانوا يرتجفون رعبا في دواخلهم، ثم اعتبروا الأمر قضية شرف، تخصهم شخصياً، كما لو أنهم في معركة ضد قبيلة معادية أخرى.

ومرت الساعات الأولى من اليوم السابع عشر للإضراب مثل كل الأيام السابقة الأخرى. العمال يخطبون ويهتفون في البستان. النساء والرجال والأطفال يحيطون بالمكان متفرجين. رجال الأمن يراقبون العمال متنقلين على دراجاتهم. أطفال يجلسون على أغصان أشجار زيتون متناثرة هنا أو هناك. وظلت حتى سيارة الشرطة المسلحة واقفة، حيث هي، في بداية الشارع المؤدي إلى البستان. كان كل شيء يبدو

طبيعياً حتى الظهر، عندما جاء من يقول إن قوات كبيرة من الشرطة الخيالة تتجمع عند أول الشارع. دفع الخوف العمال إلى مزيد من الحماسة وأخيراً، اقتربت سيارة جيب مجهزة ببندقية رشاشة، يقف خلفها ثلاثة شرطيين ومعاون، فابتعد الجمهور المحيط بالمكان، فزعاً في البداية، ثم ما لبث أن عاد، ولكن بحذر، بعد أن أخذ المعاون، من مكانه داخل سيارة الجيب المفتوحة، يخاطب العمال: «إننا ننذركم بإخلاء المكان وإنهاء الإضراب والتوجّه إلى أعمالكم. إنكم ضحايا مؤامرة شيوعية. الشيوعيون يستغلونكم ويخدعونكم. الشيوعيون، أصدقاء اليهود، يريدون توريطكم. إذا لم تتفرقوا الآن فسوف تتدخل الشرطة».

قبل أن ينتهي المعاون من خطبته المنذرة، ارتفعت الصرخات الشاتمة من داخل البستان: «أيها الحقير عد إلى سادتك وقبّل مؤخراتهم». وتوجه الكثيرون إلى أغصان الأشجار، يقطعونها، محوّلينها إلى عصيّ، استعداداً للمعركة. وأطلق عامل ما هتافاً، ردّده الآخرون: «إضراب حتى الموت». وعند ذاك، تراجعت سيارة الجيب، وسط قهقهات العمال وسخريتهم: «الجبناء، انهم يفرون». ولكن ما كادت تمرّ سوى دقائق قليلة حتى عادت السيارة المسلحة، يتبعها عدد كبير من الشرطيين المسلحين بالهراوات، وهم على صهوات خيولهم. عند ذاك فقط، أدرك معظم المتفرجين خطورة الموقف، فابتعدوا راكضين في كل اتجاه، بدون أن يفقدوا الرغبة في متابعة المشهد، وظل آخرون في أماكنهم، إما خجلاً من إطلاق العنان لأرجلهم أو تضامناً مع المضربين، أو ربما بسبب خطأ في تقييم الموقف. وخيم الصمت على المضربين الذين ثبتوا في مواقعهم، ممسكين بأغصان الأشجار الطرية في أيديهم، كما لو أنهم يبعدون بذلك الخطر عنهم. وفجأة، دوّى سيل من الرصاص المتقطع،

فأخفض العمال المضربون رؤوسهم، وسط ضجيج وصراخ شمل المنطقة كلها. وأعقبت الرشة الأولى رشة ثانية وثالثة، فتشتت العمال، محتمين بجذورع الأشجار القليلة، الموجودة في البستان. وأصيب المتفرجون بالذعر، فاختلطوا بالمضربين، حتى أصبحوا جميعاً كتلة واحدة. وفي هذه اللحظات نفسها، اهتزت الأرض تحت حوافز الخيول التي بلغت البستان، والتي كان الشرطيون الذين يعتلونها يندفعون بها نحو الكتل البشرية، وفي أيديهم الهراوات، غير آبهين لمن يسقط تحت حوافرها. ولم تعد تسمع سوى طلقات منفردة، كان الشرطيون ورجال الأمن يصوّبونها بين الحين والآخر. واشتبك عدد من العمال مع رجال الشرطة الذين سقطوا من فوق خيولهم. وفي هذه المعركة، أظهر حميد نايلون، الذي كان ملثماً بغطاء رأس، مثل كل العمال الآخرين، على الرغم من قصره، شجاعة فوجىء بها هو نفسه، فقد أخرج من تحت قميصه خنجراً كان يحمله، مخالفاً بذلك تعليمات النقابة، وراح يطعن به بطون الخيول من الخلف، فكانت تصاب بالهياج، من الألم، فتقذف براكبها على الأرض أو يهويان معاً. وأمسك درويش كردي من أربيل، كان قد جاء ليقدّم عرضاً لخوارقه في تكية قريبة، بشرطي سقط على الأرض، وجرّه إلى وراء الأشجار، ثم ذبحه، بعد أن قرأ عليه سورة الفاتحة.

وأخيراً، انتهت المعركة بفرار العمال المضربين، مخلّفين وراءهم ثلاثة عشر قتيلاً، بينهم طفل، أصيب برصاصة، وظل في مكانه بين فروع الشجرة التي كان يجلس عليها، وامرأتان، وبائع باقلاء مسلوقة تكوّم فوق عربته. كان عدد الجرحى، الذين جرى اعتقالهم، أكثر من عشرين شخصاً، في حين تمكّن جرحى آخرون من الإفلات من أيدي رجال الشرطة والأمن. أما قتلى المهاجمين، فكانوا ثلاثة شرطيين، بينهم الشرطي الذي ذبحه الدرويش. واعتبر جميع المهاجمين أنفسهم

جرحى! وذلك للحصول على المكافأة التي خصصها وزير الداخلية للمصابين، وهي عشرة دنانير لكل منهم. الكثيرون من محلة جقور والذين حشدهم حميد نايلون شهدوا المذبحة، ولكنهم خرجوا منها سالمين، سوى بعض الرضوض التي أصيب بها هذا أو ذاك، وهي مما لا يؤبه له، ما عدا الضربة التي كان قد تلقاها هادي أحمد في رأسه، وهو صبي في العاشرة من عمره، كان والده يملك جهاز تصوير متنقل من النمط القديم، الذي ينتهي بقماشة سوداء، يدخل فيها المصور رأسه، بينما يجلس الزبون على صفيحة فارغة، توضع أما جدار، مغطى هو الآخر بالسواد، في مواجهة العدسة المتحركة، على الرصيف عند رأس الجسر الحجري إزاء القشلة. كانت الضربة التي تلقاها من هراوة شرطي على جواده قد جعلته يفقد الوعي. ولولا عباس بهلوان، الذي اختطفه وحمله حتى البيت، لمات بالتأكيد تحت حوافر الخيول. عندما آفاق كانت إحدى عينيه ميتة. ولكن الأسوأ من ذلك هو أنه كان قد أصيب بما يشبه اللوثة في عقله، فاقداً توازنه مرة وإلى الأبد، وهو أمر أخفق الأئمة والأطباء في إيجاد علاج له، على عكس عينه اليسرى التي سرعان ما استعادت ضوءها، بفضل مهارة طبيب شاب، كان قد درس في تركيا، بعد أن فقد كل أمل في أن يُقبل في كلية الطب في بغداد؛ أولاً، لمعدل درجاته الذي لم يكن ليزيد عن الخمسين؛ وثانياً، لتخرجه من القسم الأدبي. ولكن كل ذلك لم يمنع الطبيب من أن يُقدِم على تجربة لم يتوصل إليها أطباء العيون الأميركيون إلا بعد أربعين عاماً. فقد عرف هذا الطبيب التركماني أن ما يعانيه الصبي هادي أحمد هو مجرد هبوط في شبكية العين، وأن ما يحتاجه هو رفع الشبكية، ومن ثم تثبيتها في مكانها السابق. لم تكن المشكلة تكمن في رفع الشبكية، فهذا أمر يمكن أن يقوم به حتى المضمّدون، وإنما هي في تثبيت الشبكية، حيث ينبغي

أن تكون. ولما لم يكن هناك ما يخسره، باعتبار أن تلك العين عمياء في كل الأحوال، خطرت له فكرة بسيطة، لا يمكن أن تخطر حتى على بال الشيطان نفسه، وهي أن يقوم بإلصاق الشبكية بالصمغ العادي. وهكذا تحققت معجزة أخرى في محلة جقور، وإن كانت طبية هذه المرة. فقد نهض الصبي بعد نصف دقيقة وهو يبصر أفضل من ذي قبل، لأن الطبيب أعاد الشبكية إلى حيث ينبغي أن تكون بالضبط، متجاوزاً حتى العيوب الطبيعية.

أعقبت المذبحة حملة اعتقالات، شملت قادة الإضراب. وقلبت الشرطة الحقيقة، مدعية أن العمال هم الذين بادروا إلى الهجوم، مطلقين الرصاص على المعاون الذي جاء يطلب منهم مغادرة المكان. ولكن محلة جقور ظلت بمنجى من هذه الاعتقالات، التي تركزت على الذين كانت الشرطة تعرفهم واحداً، واحداً، ولم يكن هؤلاء من محلة جقور. ومع ذلك اختفى حميد نايلون، بدون أن يثير غيابه الظنون، وادعت زوجته، فاطمة، أنه سافر في رحلة عمل إلى لبنان، وأنه سوف يعود. ولكن عندما طال غيابه شهوراً، أشاع بعض الناس في المحلة أنه قد ذهب إلى تركيا، حيث انضم إلى الفرقة التركية التي أرسلت إلى كوريا، ليخوض الحرب إلى جانب الأميركيين ضد الثوار الشيوعيين. في حين قال آخرون إنه يقاتل، في الحقيقة، إلى جانب الشيوعيين ضد الأميركيين.

لقد أخافت المذبحة التي شهدتها كاورباغي العمال المضربين، فعادوا في اليوم التالي إلى أعمالهم في شركة النفط، كأن شيئاً لم يكن، متجنبين النظر في عيون بعضهم الآخر، خشية أن يكشفوا عن خجل قلوبهم. لقد خسروا معركتهم، ولم يعد أمامهم سوى العودة مرة أخرى إلى أعمالهم، من دون شروط، وقبل كل شيء، من دون نقابة.

وفي هذا الوقت بالذات، حيث اعترف العمال بهزيمتهم، أقدم

المستر تيسو على تلبية جميع ما كان العمال قد أضربوا من أجله، ما عدا الاعتراف بالنقابة؛ وهو أمر قال عنه إنه يخص السلطات المحلية لا شركة الآي. بي. سي، مؤكداً أنه لا يريد أن يكون هناك ستار حديدي بين العمال والشركة، شبيه بالستار الحديدي الذي أقامه الشيوعيون في أوروبا؛ وهو تعبير كان قد اقتبسه من ونستون تشرسل، الذي ابتكره قبل ذلك بشهور، ونقلته مجلة قرندل، التي كانت تصدر في بغداد، لأول مرة عل لسان المدير العام للشركة.

والحق، إن الموقف اللّين للمستر تيسو، جاء بعد اجتماع خاص عقده مع قسم المخابرات البريطانية في شركة الآي. بي. سي. وحضره المستر جون براون، الذي كان يلقب بالعربي، ويمتلك صفة مستشار سياسي في السفارة البريطانية، الواقعة على نهر دجلة، من جهة الكرخ، في بغداد. فقد أولى المستر براون أهمية استثنائية لإضراب عمال النفط، أكثر مما كانت توليه الحكومة العراقية نفسها، مؤكداً أن الإضراب يعتبر حلقة في سلسلة المؤامرة الشيوعية الآن في أوروبا الشرقية، واليونان الواقعة على تخوم الشرق الأوسط، وكردستان إيران الممتدة حتى العراق، والصين التي يسيطر ماوتسي تونغ عل معظم أراضيها، وكذلك في كوريا وفيتنام. وأوضح المستر براون أن الحكومة العراقية معزولة تماماً، «ولكن شكراً لله على التشكيلة العشائرية لهذا الشعب، فالناس هنا تسير، عادة، وراء شيوخها، والشيوخ هم في جيب صديقنا المستر نوري السعيد. هذه هي ضمانة وجودنا في هذا البلد الآن، ولا شيء آخر». ثم كشف المستر براون أن المركز العام للمخابرات البريطانية في لندن، يمتلك معلومات تشير إلى احتمال أن يكون لبعض موظفي الشركة من الانكليز أنفسهم دور في تحريض العمال العراقيين على الإضراب. وقدّم قائمة بأسماء موظفين انكليز يعملون في الشركة، كانوا منتمين إلى الحزب الشيوعي

البريطاني، أو أنهم كانوا من الفاعلين داخل الحركة اليسارية في بريطانيا. واختتم المستر براون حديثه بالقول: «إذا كان من الممكن القبول بمثل هذا الأمر، لاعتبارات تكتيكية، في زمن الحرب، فإنه من غير الممكن القبول به الآن». وفي هذا الاجتماع، الذي استمر أكثر من ساعتين، توصلوا، في النهاية، إلى ضرورة فرض رقابة سرية على الموظفين الانكليز اليساريين، حتى يتم نقلهم إلى انكلترا والاتصال بالمسؤولين العراقيين وإفهامهم أن الموقف الأفضل تجاه المضربين هو اللجوء إلى اللّين، لا التشدد، خشية انفجار العواطف الشعبية، وخاصة أن الكثير من العراقيين كانوا يعتبرون بريطانيا مسؤولة عن المذابح التي يرتكبها اليهود ضد العرب في فلسطين. وبعد ذلك، قاد المستر تيسو ضيفه المستر براون وأعضاء قسم المخابرات البريطانية في الشركة إلى حفلة عشاء خاصة، أقامها في النادي الانكليزي، أعقبتها حفلة راقصة، لم يشارك فيها المستر براون، بسبب التعب الذي كان يشعر به، بعد رحلته الشاقة من بغداد إلى كركوك، في مثل ذلك الحر الشديد الذي لم يتعود عليه، والذي كان يسبب له انخفاضاً مستمراً في الضغط. ولذلك انسحب معتذراً، طالباً من المستر تيسو ان يستمتع بوقته.

وفي اليوم التالي إستغرب المتصرف أحمد سليمان عندما طلب منه المستر تيسو ضرورة استخدام اللّين مع العمال المعتقلين، بل وحتى إطلاق سراحهم، بعد محاكمة شكلية، مؤكداً على خطورة توتير الموقف الآن. نظر إليه المتصرف، وهو يجهد أن يكتم عواطفه الجياشة: «لو علم العمال بموقفكم الانساني هذا لما جرؤ أحد منهم على أن يفتح فمه، داعياً إلى الإضراب». فابتسم المستر تيسو، مزهواً: «أجل يا صاحب السعادة، إننا نضع الزهور، كل يوم، على قبر كارل ماركس في لندن». واتصل المتصرف بمدير الشرطة، ناقلاً

إليه رغبة المستر تيسو في التساهل مع العمال المعتقلين. فقال مدير الشرطة: «لا أعرف إن كان ذلك ممكنا، فقد مات حتى الآن اثنان منهم تحت التعذيب والآخرون شبه موتى». أجاب المتصرف بسرعة: «هذالا يغير من الأمر شيئا، يمكنك أن تضيف هؤلاء إلى القتلى الآخرين، مدّعياً أنهم ماتوا في المستشفى، متأثرين بجراحهم. أما الآخرون فامنع رجالك من ضربهم، بل وعالجهم قبل أن نقدمهم إلى محكمة علنية، تطلق سراحهم، مؤكدين بذلك أننا ديمقراطيون بالفعل».

وهكذا، لم تجد المحكمة، التي انعقدت بعد ستة أسابيع من ذلك، ما يدين قادة الإضراب. وبرّأتهم من جميع التهم الموجّهة ضدهم، بل إن المحكمة تطرفت في نزاهتها، فأصدرت أمراً بإلقاء القبض على المعاون والشرطيين الثلاثة الذين كانوا معه في سيارة الشرطة المسلحة، متهمة إياهم بتدبير المذبحة. ولكن مدير الشرطة مزّق، فيما بعد، هذا الأمر بنفسه، قائلاً لرئيس المحكمة: «صحيح أننا طلبنا منكم ان تكونوا نزيهين في إصدار حكمكم، ولكن ليس إلى الحد الذي ترسلون فيه رجالي إلى السجن». انزعج رجال الأمن، وهم يرون قادة الإضراب يعانق بعضهم الآخر، فرحين بإطلاق سراحهم، فاتجهوا إليهم، هامسين: «لا تعتقدوا أنكم قد أفلتم من أيدينا. فسوف نعرف كيف نحطم جماجمكم إذا ما تنفستم مرة أخرى». ولكن العمال تجنبوا الردّ على هذا الاستفزاز، مستغربين النزاهة التي هبطت فجأة على الحكومة. كان في الأمر ما يريب، ولكنهم فسرّوا الأمر بتراجع الحكومة أمام الضغط الشعبي، مكتفين بالنجاة بجلدهم الذي كان لا يزال يحمل آثار السياط.

في الحقيقة، لم يحضر أحد من محلة جقور هذه المحاكمة، التي انعقدت في قاعة المحكمة الأولى في الطابق الثانث في السراي،

والتي استمرت سبعة عشر يوماً سوى الملّا زين العابدين القادري الذي كان يريد التعرف على الشيوعيين عن كثب. وقد ساعده ذلك على تكوين انطباع إيجابي، بعض الشيء، عن هؤلاء الذين كان يسميهم الملاحدة. فقد عاد، وهو يقول إنهم لا يتميزون عن الآخرين إلا بعماهم وتعصبهم لبدعة اسمها الشيوعية، مؤكداً على أن كل بدعة هي ضلال، وخاصة عندما تكون بدعة إلحادية. ولكنه أوضح أيضاً للرجال الذين كانوا يحضرون مجلسه في الجامع أن الشيوعية، في الحقيقة، ليست من بنات أفكار ستالين، كما يزعم الشيوعيون، وإنما هي من صنع أحمد بن قرمط، الذي أسس أول شيوعية، مستهدفاً تدمير الدولة الإسلامية.

ما بين إضراب عمال النفط الفاشل والنزوح اليهودي العام إلى فلسطين، بعد ذلك بسنتين أو ثلاث، لم تقع أحداث تثير اهتمام محلة جقور، سوى التأييد الذي أظهره الناس لإعدام الجاسوس اليهودي عدس في بغداد، والموكب الذي نظمته محلة جقور بالطبول والدفوف، احتفاء بعودة ثلاثة من أبنائها الجنود الذين ذهبوا مع الجيش العراقي للقتال ضد اليهود في فلسطين، وهم الجنود أنفسهم الذين كان حميد نايلون قد كسبهم، ذات يوم، إلى جانب النقابة. وقد روى هؤلاء الجنود الثلاثة قصصاً مثيرة، تحولت، مع الزمن، إلى أساطير. فقد ذكر هؤلاء أن الجيش اليهودي ما كان ليستطيع أن يصمد حتى بضعة أيام أمام الجيش العراقي، الذي كان يزحف باتجاه حيفا ويافا وتل أبيب لولا خيانة نوري السعيد، الذي كان يأمر القادة العسكريين، في كل مرة، بالانسحاب من أي موقع يحتلونه. بل وأقسموا أنهم شاهدوا اليهود يرفعون صور نوري السعيد، ويهتفون باسمه. وكان الجمهور يضحك كلما رووا له الرعب الذي كان يصيب اليهود عند سماعهم باسم الجيش العراقي، معتقدين أن العراقيين

يأكلون البشر. فقد أسرَ الجيش العراقي، ذات مرة، عدداً من الهاجانه اليهود الذين وضعوهم داخل منطقة مغلقة. ثم جاء القائد العسكري العراقي وتفحصهم واحداً، بعد الآخر، ثم اختار خمسة منهم، وهو يقول: «خذوا هؤلاء الخمسة واذبحوهم، ثم جهزوهم للطبخ هذا اليوم، ثلاثة للغداء واثنان للعشاء». وهكذا اقتادوا هؤلاء اليهود المرعوبين إلى خيمتين منفصلتين، وجبة الغداء في خيمة، ووجبة العشاء في خيمة أخرى. ثم سهّلوا أمر هروب وجبة العشاء، التي نقلت الخبر المخيف إلى اليهود؛ وهو أن العراقيين يأكلون أسراهم، وكان ذلك، هو بالذات، الرسالة التي أراد القائد العسكري العراقي إيصالها إلى الجنود اليهود. وقبل ذلك، كانت قد وقعت حادثة، أثارت المدينة كلها، لا محلة جقور وحدها. فقد سقطت طائرة صغيرة، ذات راكبين؛ وهو أمر يحدث لأول مرة في كركوك فوق أشجار حديقة نادي الضباط، وهدمت جانباً من الجدار الخارجي، مطلّة بجناحها الأيمن على الشارع، والذي ظل الأطفال يؤرجحونه، متعلقين به، على الرغم من وجود شرطي حراسة، كان يضطر، أحياناً، للذهاب إلى المقهى القريب للتبول أو شرب الشاي. وقد تمكن هادي أحمد، وهو الصبي الذي ألصق الطبيب شبكية عينه بالصمغ، من التسلل إلى داخل الطائرة، من بابها المحطم، حيث عثر على بوصلة، ظل يعلقها في عنقه سنوات طويلة، مثل تميمة مباركة، لا ينزعها حتى عندما يدخل الحمام. بعد عودة الجنود الثلاثة من حرب فلسطين إلى محلة جقور، أخرجت الحكومة اليهود من البلاد، واضعة إياهم، مع حقائبهم، في شاحنات مفتوحة، كانت تتجه بهم، عبر الصحراء، إلى شرق الأردن، ومن ثم إلى إسرائيل. كان الكثيرون منهم يبكون، طالبين البقاء، وقائلين: «العراق هو وطننا». غير أن الشرطة كانت تعتقل أمثال هؤلاء الرافضين، متهمة إياهم بالجاسوسية

والشيوعية، ثم تنقلهم في سيارات الشرطة لتقذف بهم إلى ما وراء الحدود. ولم يفلت من هذه المطاردة سوى بعض الفتيات اليهوديات، اللواتي كنّ على علاقة حب مع بعض الشبان المسلمين، الذين هربوهن وعقدوا قرانهم عليهن، بعد اشهارهن الاسلام. وقد رحبت محلة جقور كلها بالفتاة اليهودية حياة ساسون، التي غيرت اسمها إلى حياة يوسف، بعد أن تزوجت من نجاة سليم، الذي كان قد أنهى الدورة التدريبية في الشركة، واحتل مركزاً جيداً هناك، حيث أظهر براعة في اللغة الانكليزية، وهي براعة امتلكها من وَلَعِه بقراءة كتب مكسيم غوركي باللغة الانكليزية، والتي كانت مكتبة يوجين، الواقعة قرب سينما العلمين، تستوردها، من دون إثارة أية شكوك عند الشرطة التي لم تكن تعرف الانكليزية بالطبع. وقد ذهبت نساء محلة جقور، ومعهن أطفالهن، للتفرج على الفتاة اليهودية المسلمة والترحيب بها. ففي صباح يوم الزفاف، رقصت أم نجاة سليم ونساء أخريات، استبد بهن الطرب، مشاركات الرقاص، وهو «الباقله» التركماني، الذي كان يهز خصره على إيقاع فرقته المكونة من عازف مزمار وقارع طبل، رقصه. ولم تكن النساء ليخجلن من هؤلاء الرقاصين، الذين كانوا يحضرون هذه الحفلات المغلقة، مرتدين ملابس النساء، وواضعين الحمرة والبودرة على وجوههم. وبين حين وآخر، كانت إحدى النساء تدس قطعة نقد في يده وتبلغه بالاسم، فيتوقف، وهو يصيح بأعلى صوته: «شوباش» ثم يعلن عن اسم العائلة المتبرعة. ويضرب صاحبه مرة أخرى على الطبل، فيهتز خصره في حركة سريعة، تتابع الإيقاع.

وفي أثناء هذا الحفل، جاء من يقول إن والدي حياة يقفان امام البيت ناويين اختطافها، فخرجت أم نجاة وقذفتهما بالحجارة، شاتمة، وهي تقول: «لقد أسلمت حياة، لا أمل لكم بها بعد الآن». فاضطرا إلى الانسحاب، وهما يبكيان. وعندما أراد الأطفال

ملاحقتهما منعتهم أم نجاة من ذلك، قائلة: «هيا ارجعوا إلى العرس. انهما والدا حياة، رغم كل شيء».

كانت الشاحنات تأتي كل يوم إلى محلة اليهود، التي فتحت أبواب منازلها أمام المسلمين، بائعة كل ما يمكن بيعه، من الأثاث المنزلي حتى القدور واستكانات الشاي. ومن هناك، اشترت أم برهان سريراً حديدياً بنصف دينار، استحوذ عليه الصبي حال دخوله البيت. وعلى الرغم من أنه سقط من فوقه أثناء النوم مرات عدة، إلا انه اعتاده في النهاية، بل انه أصبح أفضل مكان يكتب ويقرأ فيه دروسه، ومنع الآخرين من الصعود عليه.

وظهر حميد نايلون مرة أخرى بعد غياب استمر أكثر من ثلاثة أشهر؛ كما لو أنه بزغ من باطن الأرض فجأة، مؤكداً أنه كان في لبنان، ومع ذلك لم يكن هناك ما يوحي بأنه قد جمع ثروة ما. فقد عاد للعمل على خط كركوك ـ الحويجة في سيارة جيب، ناقلاً الاعراب مع أغنامهم ودجاجاتهم. في الحقيقة، ان حميد نايلون كان قد أخفى حتى عن زوجته، فاطمة، سر اختفائه. فعندما أخفق الإضراب، الذي واجهته الحكومة بالرصاص، ركب السيارة واتجه إلى جمجمال التي تقع ما بين كركوك والسليمانية، ومنها اتجه، مشياً على الأقدام، بدون دليل، إلى الجبال القريبة، باحثا عن خوله بيس، وهو لص كردي، كان قد قتل ثلاثة من رجال الشرطة، ثم لجأ إلى الجبل عاصياً، حيث تبعه كل من كانت عنده مشكلة مع الحكومة. وعندما حاولت الشرطة مطاردته بعد ذلك قتل العشرات من رجالها، فرجعت مدحورة ذليلة. ظل حميد نايلون يبحث عنه من جبل إلى آخر، حتى عثر عليه، ذات يوم، أمام مغارة في نهاية أحد الأودية، فعرض عليه منذ لقائه الأول به أن يحوّل العصابة إلى جيش للتحرير الشعبي، على غرار جيش ماوتسي تونغ، ولكن هذا اللص، الذي كان أمّياً وقصير النظر، حدق

في حميد نايلون ملياً، ثم قال له: «وماذا أكسب من ذلك؟» فأجابه حميد نايلون، بذكاء من يقرأ أفكار الآخر: «سوف تكون بطلاً شعبياً». ابتسم اللص، وقال: «ولكنني الآن بطل شعبي». وفشلت كل الجهود، التي بذلها حميد نايلون معه بعد ذلك، خلال الشهور الثلاثة التي أمضاها معه، فقد كانت في رأس الرجل فكرة واحدة فقط، هي أن يقتل أكبر عدد ممكن من رجال الشرطة؛ كما كانت هذه هي أول مرة يفشل فيها حميد نايلون في إقناع أحد ما بفكرته. وقد فكر حميد نايلون أن يعلن هو بمفرده العصيان والثورة المسلحة، على غرار ثورة ماوتسي تونغ، الذي كان يجلّه كثيراً، لولا أنه لم يكن يملك حتى بندقية لإطلاق رصاصة الثورة الأولى. وهكذا، عاد حميد نايلون من حيث أتى، ولكن بدون أن يفقد الأمل، فرحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، كما يقول ماوتسي تونغ، وهي عبارة طالما رددها فاروق شامل أمامه.

الفصل الرابع

عاد الغنام خضر موسى من الحويجة بعد سنوات دون أن يحصل على الثروة التي كان يحلم بها، بل انه كاد ينتهي إلى السجن، لولا الرشاوى الكثيرة، التي دفعها لمدير الناحية والمعاون والمفوض، بل وحتى لرجال الشرطة الذين ظلوا يحومون حوله مثل الذباب. والحق، أنه أصاب في البداية حظاً كبيراً فأصبح، خلال شهور قليلة، أحد المتنفذين وشريكاً لمدير الناحية والمعاون وبعض شيوخ القبائل في لعب القمار. عمل في البداية قصاباً، ثم سرعان ما بدل مهنته، وافتتح متجراً قريباً من منزله لبيع السكر والشاي والحبوب بعد أن أصبح المتعهد الوحيد للتموين الحكومي في الناحية، لقاء مبلغ مئة دينار رشا بها الحكومة، استلمها منه مدير الناحية وطاقم الشرطة. ومع الزمن، تعلم أن يخسر، ولكن ليس كثيراً، عندما كان يلعب القمار مع ممثلي الحكومة. وكان عليه أيضاً أن يعلن ولاءه للحكومة باستمرار، عن طريق أكياس السكر والحبوب وصناديق الشاي السيلانية، التي كانت تحتوي عادة على فيلة سوداء صغيرة، لها أنياب من العاج، والتي كان الشرطيون يأتون من تلقاء أنفسهم، بحكم العادة، ويحملونها إلى رؤسائهم، هدايا من المتعهد خضر موسى. أما هم فكانوا يكتفون، شاكرين، حتى بحفنة سكر أو لفافة شاي صغيرة، يجود بها المتعهد عليهم. ومع ذلك فإن تجارته هذه ما كانت لتقارن بمهنته السابقة كغنام أو قصاب. فقد أقام، في البداية، علاقات وثيقة مع الأعراب الذين

كانوا يقصدونه من القرى المحيطة بالحويجة، مشترياً منهم أغنامهم التي كان يرسلها إلى كركوك، ولكنه اكتشف، مع الزمن، أن الأغنام كانت تبعده عن متجره، وتكلفه الكثير من الجهد والوقت، من دون أن تدر عليه ما يكفي من الأرباح. وهكذا، تخلى عن هذه التجارة، ولو جزئياً، عندما عثر على تجارة أخرى أكثر جدوى. فقد لاحظ أنه ما من تجارة يمكن أن تدر أرباحاً بقدر ما تدره تجارة الأسلحة المهربة، وبالأخص بنادق برنو التشيكية التي كانت حلم كل فلاح، يسكن في أطراف الحويجة، فالبندقية، في هذه القرى الواقعة في السهول رمز للقوة الاجتماعية والشرف، بقدر ما هي أداة للقتل وسلاح مخيف في السلب والنهب ومواجهة القبائل المعادية التي ما كانت الحروب لتنقطع بينها. بل انه كان يصعب على الأعرابي الحصول على زوجة له ما لم يقدّم لوالدها بندقية جيدة، كمهر، يُسترجع إذا ما هجرته أو كانت عاقراً. ولما لم يكن هناك أعرابي واحد، لا يفكر في اقتناء واحدة أو اثنتين من النساء، اكتسبت البندقية، مع الزمن، منذ وصولها إلى رجال القبائل، عن طريق الهايته العثمانيين، في بدايات القرن التاسع عشر، بل وربما حتى قبل ذلك، قيمة استثنائية، لا يعادلها حتى الذهب نفسه. وهكذا، دخل خضر موسى عالماً جديداً، كاد يكلفه حياته أو ينتهي به إلى السجن. صحيح انه اشترى بسهولة صمت الحكومة، وربح الكثير من المال. إلاّ أن الأمور انقلبت ضده في النهاية، بصورة عير متوقعة. وقد عزا ذلك، بكل بساطة، إلى الحظ أو القدر، الذي ما كان بمقدوره التدخل في مجراه. فذات ليلة، هاجم الفلاحون العُبيد، وهو أمر لم يحدث إلا مرة واحدة في عشرة أجيال، قصر رئيس عشيرتهم الشيخ محمود الهندي نفسه في منطقة العاصي، معترضين على سلب أراضيهم

وطردهم منها. ولكن الشيخ محمود الهندي، الذي كان قد احتاط للأمر، وحوّل قصره إلى حصن منيع تصدى، هو وأتباعه المدججون بالأسلحة، للفلاحين المهاجمين، مستخدمين الطلقات الضوئية، لكشف مواقع الخصوم، والتي كانت ترى من الحويجة نفسها، بل ويقال إن ابنه أسرع لنجدته بطائرة هليكوبتر، قصفت الفلاحين بالقنابل. وقد انتهت تلك المعركة، التي استمرت ليلة كاملة، إلى مقتل سبعة وعشرين رجلاً من الفلاحين، حيث نقلت الشرطة جثثهم في اليوم التالي إلى الحويجة. ولما لما يكن ثمة مكان في مركز الشرطة؛ وربما أيضاً للتخلص من رائحتهم التي بدأت تزكم الأنوف، بسبب الحر الشديد، فقد صفهم رجال الشرطة، الواحد جنب الآخر، دون أغطية، على الأرض، أمام المقهى المواجه للمركز، عند ساقية ماء صغيرة، تدلت أرجل بعضهم فيها.

لا شك أن خضر موسى لم يكن مسؤولاً عن مقتل هؤلاء، ولكنه كان الرجل الذي باعهم ما يكفي من البنادق، لإعلان عصيانهم ضد شيخهم. ويبدو أن مدير الناحية ومأمون المركز والمحققين، الذين قدموا إلى الحويجة وجدوا أخيراً فرصتهم ليجردوا خضر موسى من كل ما ربحه، وبالذات بعد أن أقسم الشيخ الهندي على قتله، عقاباً له على فعلته تلك. فقد كادوا يرمون به في السجن، لولا أنه رشا الجميع، حتى آخر شرطي في الناحية. ثم هرب هو وعائلته، ناجياً بجلده، ولم يظهر مرة أخرى هناك.

عاد خضر موسى إلى محلة جقور، وهو لا يعرف من أين يبدأ، شاعراً بالمرارة والخيبة ووطأة الزمن، بعد أن تجاوز الخمسين من عمره. فقد سلم ما بقي عنده من نقود إلى زوجته نظيرة، التي شاركت أمها العجوز هداية في شراء الأقمشة وبيعها. أما هو فلم يعد يفعل

شيئاً سوى الجلوس ساعات طويلة والتحديق في الناس. وفي الأيام الباردة، كان يجلس على حافة التنور، ويدلي ساقيه فيه بعد أن تكون زوجته قد انتهت من الخبز، وخفت حرارة التنور، متلقياً شتائم زوجته التي ما عاد يرد عليها إلا نادراً.

ثم بدأ، فجأة، يصلي، هو الذي لم يكن قد دخل مسجداً من قبل. وأهداه حميد نايلون سبحة من «الكهرب» لم يعد يتركها تفلت من بين أصابعه حتى أثناء النوم. وأخذ يذهب كل ليلة جمعة، إلى حلقة ذِكر، يقوم فيها شيخ الطريقة بطعن أتباعه بالسيوف والحراب، التي كانت تظل معلقة بأجسادهم، دون أن تسقط قطرة دم أو يظهر أثر لجرح. كانت الدفوف تضرب، على إيقاع التراتيل الصوفية، التي تمجد النبي وتشيد بذكره. وكان الذكر يستبد ببعضهم، على الإيقاع المكرر اللانهائي لكلمة الله، فيمسك الحاضرون به بقوة أو يرمونه أرضاً، حتى يهدأ بعد حين، مكررين كلمة الله، المرة تلو الأخرى. وكان خضر موسى يصطحب معه، أحياناً، ابن أخته برهان عبد الله، الذي كانت تثيره كثيراً رؤية الدراويش، وهم يسيرون على النار المتقدة أو يلتهمون الزجاج، أو عندما يقدِم شيخ الطريقة على ذبح أحد أتباعه، حيث يلقون عليه، بعد ذلك، قطعة من القماش، يغطونه بها، يرفعها الشيخ بنفسه، بعد أن يدمدم بدعائه السري، صائحا، بصوت يسمعه الجميع: «هيا انهض الآن». فينهض الرجل، كما لو أنه لم يذبح، ولكن كان يحدث أيضاً أن لا ينهض المذبوح. وعند ذاك، ينادي الدراويش الجمهور: «هناك من لم يغتسل بعد الجماع. فليغادر المكان رجاء!» ولم يكن الذبيح لينهض إلا بعد أن يتسلل واحد من الحاضرين ويغادر المكان. وكانت التهاليل تدوي في الحلقة عندما تعود الروح إلى الذبيح وينهض مرة أخرى. وكان خضر موسى يروي، أحياناً، لابن أخته، في طريق العودة إلى البيت، أن الشيخ وهو من

النقشبندية، لا يؤثّر فيه حتى الرصاص. فقد أسند، ذات مرة، ظهره إلى الجدار، وطلب من أحد أتباعه أن يفرغ فيه كل رصاصات مسدسه، ففعل؛ وعجزت الرصاصات حتى عن خدش الشيخ.

وفكر الفتى: «كان ينبغي على الحكومة أن تعينّ هذا الشيخ النقشبندي في الجيش، وتحوّل الجنود كلهم إلى دراويش عنده، ثم ترسلهم إلى الحرب ضد أسرائيل. ترى مَنْ يقدر أن يهزمهم بعد ذلك؟»

وفي النهاية، دخل خضر موسى الخلوة في تكية، كانت تقع بين محلة جقور ومحلة المصلّى. واعتزل الناس لمدة أربعين يوماً، لم يكلم فيها أحداً، حيث كان يمد له بالطعام من فتحة في الباب المغلق.

كان هذا هو الامتحان الذي يفرضه الباحثون عن الحقيقة والأولياء على أنفسهم. لقد استغرب الناس، في البداية، هذا التّحوّل الروحي، الذي طرأ على الغنام، الذي لم يكن يعرف من دنياه غير كنز الأموال، بل راحت حتى أخته قدرية تسخر منه قائلة: «أكيد انه اكتشف طريقة، يخدع بها الله للحصول على مزيد من الأموال». أما حميد نايلون، فقد ذكر، معلقاً: «لقد كشف الله أمامه الحقيقة في وجوه الفلاحين الذين قتلتهم بنادقه».

ما كاد الغنام خضر موسى يغادر خلوته، حتى أعلن في جامع محلة جقور، وسط دهشة المصلين وإعجابهم، أنه استلم، خلال خلوته، رسالة من الغيب تأمره بالخروج والبحث عن شقيقيه، الضائعين منذ الحرب العالمية الأولى. وكان هذان الشقيقان، اللذان يكبرانه، قد ذهبا، مع الجنود العثمانيين، للقتال ضد الروس، وانقطعت أخبارهما بعد ذلك. ثم انتشرت، بعد سنوات، إشاعة تقول إنهما قد قتلا في الحرب، ودفنا في جبال القفقاس. ومع الزمن، نسي الناس قصة هذين الشابين اللذين عثر الصبي برهان عبد الله على آثارهما المتروكة في

العلّيّة. ولكن ها هي رسالة الغيب تهبط على شقيقهما خضر موسى بعد أكثر من ثلاثين عاماً، لتبلغه أنهما ما زالا أسيرين في روسيا، ينتظران من يأتي ليعيدهما إلى بيتهما في محلة جقور. وقال خضر موسى: «سوف أذهب، ولن أرجع بدونهما». ورغم أنه ما كان أحد ليجرؤ على الشك في رسالة الغيب، حتى إذا كانت مما يصعب تصديقه، فإن الكثيرين سعوا إلى إقناعه بالعدول عن هذه المهمة المستحيلة، مؤكدين له أن من يحكم روسيا الآن هم البلاشقة، الذين لن يترددوا في قطع عنقه إذا ما رأوه يصلّي. واستخدم حميد نايلون معه المنطق، مؤكداً: أولاً، أنه لا يملك عنوان شقيقيه؛ وروسيا بلاد واسعة جداً. وثانياً، أنه لا يتكلم اللغة الروسية، ليسأل عن الأسيرين. وثالثاً، انهما إذا كانا لم يقتلا في الحرب العالمية الأولى، فإنهما ربما قتلا في الحرب العالمية الثانية. واتهمته زوجته نظيرة بالخرف والجنون، مهددة بربطه بالحبل واقتياده إلى سيد عربي، كان يعيش في كوخ على طرف المدينة، ليُخرج الشياطين التي تسكن روحه. ولكن الناس نهروها غاضبين، مؤكدين لها، أنه واحد من الذين أنار الله أفئدتهم، وفتح أمام عيونهم أسرار الغيب.

وهكذا، بدأت محاولات خضر موسى الألف للهرب من البيت، والتي كانت تنتهي دائماً بالفشل. فقد كانت زوجته نظيرة تلحقه، في كل مرة، وتعيده إلى البيت. ففي المرة الأولى، أمسكت به من تلابيبه، وهو يجتاز الجسر الحجري باتجاه القورية. وفي المرة الثانية، أعادته، وهو يصعد تلة مصافي إسالة الماء، عند حديقة أم الربيعين، باتجاه قرية شوان. وفي المرة الثالثة، لم تبلغه إلا في مدينة آلتون كوبري، وفي الرابعة في داقوق، وفي الخامسة في راوندوز، وفي السادسة في القرنة، وفي السابعة في وادي الذهب في الصحراء الغربية. كانت تندب حظها، قائلة: «سوف تفترسه الذئاب أو تمزقه

الدببة، قبل أن يبلغ شقيقيه اللذين لم يبق منهما حتى عظامهما». وكان المحير في أمره، هو أنه كان يسير في كل اتجاه كما لو أنه سوف يبلغ روسيا أنّى وَلّى وجهه وسار. وأخيراً، وبعد محاولات كثيرة فاشلة، اختفى خضر موسى، ولم تعثر عليه زوجته التي ظلت تبحث عنه طيلة أشهر ثلاثة، متنقلة بين المدن والقرى، ثم عادت يائسة، وهي تشتم العثمانيين الذين أخذوا شقيقيه معهم، وتركوهما يقتلان بالحراب، على أيدي الجنود الروس، في مكان ما في القفقاس. وبكت قدرية موسى، أخت خضر، وهي تقول: «أكيد أنه سيموت فوق الجبال الوعرة أو في الصحارى المقفرة». وأوشك ابنها برهان عبد الله أن يبكي هو الآخر، متاثراً ببكاء أمه، إلا انه فكر في أن يصعد إلى العلّيّة، ويهبط إلى وادي الملائكة، ليسأل الشيوخ الثلاثة السائرين منذ الأزل، متجهين إلى محلة جقور، حاملين إليها الربيع، عن خاله «المنور»، الذي ذهب يبحث عن قتيلين منذ الحرب العالمية الأولى، فلعلهم يخبرونه بمصيره.

كان الشيوخ الثلاثة، الذين يشبهون الملائكة، يسيرون في صحرأ مفتوحة على الأفق، تاركين أثار أقدامهم على الرمل الذي تسفه الريح. وكانت الشمس تسطع فوق الرؤوس، والأرض التي ينتشر فيها العاقول والصبار تحترق تحت الأقدام. ومن بعيد، رأى برهان عبد الله قافلة جمال تتجه نحو قباب من ذهب في مدينة أسطورية على امتداد الأفق، وفكر، لا بد أنه السراب، قائلاً في نفسه: «ترى لماذا مرّ هؤلاء الشيوخ بهذه الصحراء المقفرة؟» ثم أجاب: «لا بد أن الطريق إلى محلة جقور يمر من هنا». ورآه الرجال الثلاثة الذين يشبهون الملائكة فصاحوا به: «ها قد جئت مرة أخرى يا برهان!» ثم مازحه أحدهم، قائلاً: «هيا سِرْ أمامنا وشاركنا التعب!» ولكن برهان عبد الله تردّد قليلاً، محدقاً فيهم، ثم قال: «جئت أسألكم عن مصير

خالي خضر موسى». سأل أحدهم: «ما به؟» رد برهان عبد الله، بحزن: «خرج يبحث عن شقيقيه المفقودين منذ زمن طويل في روسيا». سأله أحدهم، مبتسماً: «ألا تبحث عن أخيك إذا ضاع؟» فقال برهان عبد الله: «ولكنهما مفقودان منذ زمن بعيد». فوضع أحد الرجال يده على كتف برهان وقال: «لا يدفن الزمن الحقيقة، تذكّر ذلك يا برهان ولا تنسه!» وهبط برهان عبد الله من العلّية، وهو لا يعرف إن كان خاله على حق أم ضلال.

وفي المساء، حضر برهان عبد الله جلسة خاصة في بيت يقع في محلة بيريادي، دعاه إليها معلم اللغة العربية، الذي كان ينتمي إلى جمعية «الحياة الآخرة»، التي كانت قد اتخذت مقراً لها في بداية شارع أطلس، إزاء معتقل القشلة. ما كاد الصبي يدخل الغرفة الطويلة التي فرشت بالبسط والسجاد، ويجلس على الأرض، في المؤخرة، عند الباب، حتى أطفئت الأنوار، ورأى في الضوء الشاحب، الذي كان يتسلل إلى الغرفة، شبحاً يخرج فجأة من سقف الغرفة، ويهبط على مهل، ثم يستقر، متربعاً في جلسته، في صدر المجلس، فضج الحاضرون، الذين كان عددهم يربو على الأربعين، بالتهليل والتكبير. كان الشبح رجلاً ذا وجه عريض نوراني وعينين تلتمعان في الظلمة، حتى لكأنهما عينا قطّ في الليل. وسأل برهان عبد الله جاره، الذي كان يجلس لصقه على الأرض: «من يكون هذا الرجل؟» فأجابه، هامساً: «ألا تعرف؟! إنه المرشد العام بنفسه». وشعر برهان عبد الله أنه أمام حدث سوف يظل عالقاً بذهنه فترة طويلة من الزمن.

لا شك أن ذلك الهبوط الدراماتيكي للرجل من سقف الغرفة، مثل قديس هابط من سماء أخرى، كان ضربة معلم. وبدأ الرجل خطبته في الظلام، حيث بدا الصوت كما لو أنه أتٍ من لا أحد، بل من لا مكان. كان الصوت في الظلام أشبه بنداء، لا زمان له، يدخل القلب

فيرهبه بتجريده. وأخذ المرشد العام يتحدث، كما لو أنه يغني. كان صوته يرتجف، فتهتز معه الجدران. بدأ الرجل خطبته بآيات من القرآن الكريم قبل أن يقول ما كان يريد قوله: «جئت أعلّمكم تجارة، ما بعدها تجارة. انظروا إلى الباعة في السوق، كيف ينادون على بضاعتهم بأحب الأسماء إلى المشترين. انظروا إلى الشيوعيين، كيف يزينون مبدأهم، مغرين الشباب بالاشتراكية. انظروا إلى الغرب كيف يتحدث عن الحرية والديمقراطية. ان واجبنا هو أن نبيع الإسلام، وننادي عليه بأسماء أكثر جاذبية حتى من مسميات الآخرين».

وبعد ساعة أو أكثر من الخطابة، حول مأساة كشمير، وطغيان عبد الناصر في مصر، ومصدّق في إيران، طلب من الحاضرين العمل على محاربة الإلحاد الذي يعّم العالم؛ وهو أمر يعتمد، قبل كل شيء، على الطريقة التي يُثبت بها المرء وجود الله: «لا تدّخروا جهداً في الوصول إلى مثل هذا الهدف، فهو أكثر جدوى من كل العلوم التي تتلقونها».

ثم نهض وقدّم عرضاً أخيراً؛ ربما كان قد أراد به إثبات وجود الله. رفع يديه عالياً، ثم مدّهما إلى الأمام وأخيرا إلى الجانبين، حيث راح يرفرف بهما، مثل عصفور. فارتفع في الظلام نحو السقف، كما لو أن قوة ما اجتذبته إليه، وهو يقول: «وداعاً». ثم اختفى، مثل نجمة يحجبها السحاب فجأة، أو دخان يتلاشى في الفضاء. وفي اللحظة عينها، أضيئت الأنوار، فضج الحاضرون بالتهليل والتكبير، مأخوذين بسحر المعجزة التي وقعت أمام عيونهم، وهي معجزة لم يكن لأحد أن ينكر حدوثها في ذلك اليوم المقدس، على الرغم من عتمة الليل.

في الطريق إلى البيت، فكر الصبي أن هذا لا يثبت وجود الله، ففي إمكان أي ساحر أن يقدّم عرضاً أفضل منه. فقد رأى، ذات مرة، في النادي الرياضي، في العيد، ساحراً يأكل رأسه، بل إن أحدهم اختفى

حتى من دون إطفاء الأضواء. ومنذ تلك اللحظة، قرر برهان عبد الله أن يقوم، هو نفسه، بمعجزة أكثر إثارة من مجرد الاختفاء في الظلام. والأكثر من ذلك، ان شكوكاً مبهمة، ساورته في أن الأمر كله، ربما، كان مسرحية مدبرة، تدرّب عليها الرجل طويلاً حتى أتقنها. وهكذا، بدأ، منذ اليوم التالي، بحثه المضني للوصول إلى أسرار السحر. فقد اشترى كل كتاب يتحدث عن السحر والتنويم المغناطيسي؛ وهي في معظمها كتب صفراء رخيصة، تباع على الأرصفة. كما اتصل بالمنجمين والفلكيين، الذين كانوا ينتشرون في رؤوس الأزقة في المدينة، بل انه حاول إغراء حتى العجوز هداية، لتبوح له بأسرار اتصالها مع الشياطين. إلا أنها طردته، شاتمة أمه، التي لا تعرف كيف تربي أطفالها. وفكر في الإنضمام إلى الدراويش، لكنه تردد خائفاً؛ لأن هؤلاء لم يكونوا يعرفون غير الذبح والطعن بالسيوف والشيش، ولم يكن هو ليريد أن يجازف. وفي النهاية، فإنه بعد أن جمع عدداً كبيراً من كتب السحر والتنويم المغناطيسي والفلك والأطباق الطائرة، القادمة من عوالم أخرى، جلس وقرأها بإمعان، مطبّقاً كل التعليمات والتوجيهات التي تتضمنها.

كان أحد كتب السحر يقول إنه يمكن للمرء أن يختفي عن الأنظار، إذا ما قرأ سورة الناس مئة وخمسين مرة متتالية دون توقف. ففعل ذلك. وخرج إلى الفناء، ليرى في ما إذا كان الآخرون يرونه أم لا. فأصابه حزن شديد، عندما سمع أمه تقول له: «لماذا تحدّق فيّ هكذا، كالأبله؟» وتأكد من أنه ما زال مرئياً. فعاد وقرأ السورة مرة أخرى، ولكن دون جدوى. فتخلى عن الأمر، معتقداً أن ثمة إشكالاً، لا يعرف حله. وفي كتاب آخر، اطلع على طريقة تمكّن المرء من السيطرة على الآخرين؛ وهي طريقة تجمع بين السحر والتنويم المغناطيسي. كانت الطريقة تقول: سر وراء أي شخص في الشارع

وركز عقلك وبصرك على أسفل عنقه، حتى تشعر أنك تسيطر عليه. ثم مُره أن يلتفت يميناً أو يساراً، وحتى إلى الخلف، بل يمكنك أن تأمره بالوقوف والإستدارة والسير في الإتجاه الآخر. والحقيقة، أن برهان عبد الله حقق، هنا نتائج أفضل بعض الشيء من نتائج تجربته السابقة. فقد كان بعضهم يلتفت، أحياناً، بعد جهد جهيد، ولو إلى غير الجهة التي كان الصبي قد قررها. وإذ لم تثمر هذه المحاولة تماماً، انتقل إلى التنويم المغناطيسي؛ بعدأن جمع عدداً من رفاق صفه، الذين كانوا يلتقون، عصر كل يوم، في غرفة ما، متخذاً من أحدهم وسيطاً، ينوّمه بتركيز النظر على طرف سبابته، التي كان يمررها أمام عينيه، مردداً في أذنه: «ها إنك تنام، استرخ، ونم. ستفعل كل ما أطلبه منك». كان ذلك يستمر، أحياناً، ساعة أو بعض الساعة، فينام الوسيط أو يتظاهر بالنوم، وسط الهدوء في الغرفة المعتمة. إذ ذاك، يطلب إليه برهان عبد الله أن يخبره عمن يمر، اللحظة، أمام الباب في الشارع، فيفتح الوسيط فمه، وربما يقول: «إنني أرى جندياً يسير». فيهرع واحد أو اثنان منهم إلى الشارع، ليروا إن كان يقول الحق.

وأخيراً، اشترى منظاراً مقرَباً بخمسين فلساً من دكان في السوق، راح يراقب به، وهو فوق السطح، أرجاء السماء الزرقاء الصافية، لعلّه يرى واحداً من الأطباق الطائرة، الكثيرة، التي تأتي من كواكب أخرى، وتزور عالمنا الأرضي.

وكان أحد الكتب التي اشتراها من بائع، يفرش كتبه على الأرض، عند جدار مقر الشرطة الخيالة، ينقل اقوال طيارين وقساوسة وشرطة ومعلمين وربات بيوت، شاهدوا بأمّ اعينهم هذه الأجسام الغريبة، القادمة من حضارات غير أرضية؛ بل ان سلاح الجو الأميركي نفسه، طارد هذه الأطباق الطائرة أكثر من مرة، ولكن عبثاً، فقد كان هؤلاء الزوار الغرباء يفلتون دائماً. وكان الكتاب يتضمن أيضاً حكايات عن

أناس، تمكنوا من الإتصال مع هؤلاء الزوار. ولكن، والحق يقال، كان برهان عبد الله يدرك أن مشاهدة هذه الأطباق الطائرة غالباً ما تعتمد على الصدفة، حتى مع الإمكانات التي يتيحها منظاره المقرّب.

وإذ أخفقت محاولاته هذه في السحر والتنويم المغناطيسي والاتصال بالكواكب الأخرى، صعد إلى العلّيّة، منحدراً إلى وادي الملائكة الثلاثة السائرين في الزمن، والقاصدين محلة جقور، ليسألهم العون. قال الصبي برهان عبد الله: «جئت أطلب أسرار القوة». إبتسم أحد الشيوخ الثلاثة: «القوة؟ ماذا تقصد بذلك؟» أجاب الصبي بهدوء: «أن يقف الحبل إذا ما أمرته بالوقوف، أن تشرق الشمس في الليل، أن ينهق الديك، وينبح الحمار، إذا ما أردت ذلك». ضحك الشيوخ الثلاثة، وجلسوا على الأرض، تحت شجرة مورقة، طلباً للراحة، ثم قال أحدهم: «ها أنت تطلب المستحيل يا برهان، تطلب أن تكون الله». استغرب برهان عبد الله الأمر، وأجاب، مستنكراً: «أردت أن تكون لي معجزاتي، مثل الآخرين. لقد مشى المسيح فوق الماء. ورمى موسى عصاه، فتحولت إلى حية تسعى. ورفرف المرشد العام بيديه، مثل عصفور، وطار». صمت الشيوخ الثلاثة، محدّقين في الصبي، ثم قال أحدهم مُطرقاً برأسه ومتأملاً: «نحن لسنا سوى شيوخ ثلاثة، منَهكين، نسير في الزمن، لا نملك في أكياسنا سوى هذا الربيع، الذي نحمله إلى جقور». ثم نهض الرجال الثلاثة، وحملوا أكياسهم على أكتافهم وابتعدوا، سائرين مثل أشباح خارجة من الماضي. فعاد الصبي برهان عبد الله، أكثر حيرة مما مضى.

وعلى الرغم من اليأس الذي داخل قلب برهان عبد الله، فإن حياته شهدت، بعد شهر أو أقل من شهر، انقلاباً، جعله ينسى كل محاولاته المحبطة السابقة. فقد قرر والده عبد الله علي مد الكهرباء إلى البيت، بل انه اشترى أيضاً جهاز راديو خشبياً، كبير الحجم، كان يفتح، كل

يوم، بأعلى صوته، إرضاء للجيران، الذين كانوا يهوون الإستماع إلى الأغاني والأحاديث الدينية. كما فرح سكان محلة جقور عندما جاءت البلدية وبلطت شاارع المحلة. ولكن الفرحة سرعان ما تحولت إلى شتائم للبلدية التي جاءت تطالبهم بدفع كلفة التبليط، محتسبة الأمتار المطلة على الشارع لكل بيت. وأخيراً رضخ الناس لقدرهم، بعد أن قررت البلدية تقسيط المبالغ. وهي مبالغ ظلوا يماطلون في دفعها إلى أن يئست البلدية فقررت إلغاءها.

كان برهان عبد الله يدرك، بصورة غير واضحة، أن الزمن يتغير. فقد اختفى من المقاهي الغرامافون، ذو الكلب الذي يقرفص أمام مكبر الصوت، واستبدل بأجهزة راديو، توضع عالياً، فوق رف في مقدمة المقهى، كانت تبث دائما، تقريباً، أغاني لميعة توفيق وخضير أبو عزيز. وفي الليالي، كان صوت عبد الباسط يملأ فضاء المدينة كلها ويضيء أرواح الفقراء بآيات القرآن التي يعيد ترتيلها المرة تلو الأخرى، حتى لكأن صوته يتدفق من نبع في الأبدية. وفي ذات ليلة صيف، أطل كثيرون من الناس في محلة جقور برؤوسهم من السطوح، بل ان بعضهم هبط إلى الشارع وهرع إلى بيت عزة، وهو فتى كان وحيد والديه العجوزين، ويملك دكاناً في المحلة، يديره معهما. كان والدا عزة العجوزان يتشاجران ويشتم أحدهما الآخر بصوت عال. كان الرجل وزوجته يفضحان عيوب بعضهما، بطريقة لا ينبغي أن تصل إلى آذان الآخرين. وهكذا هبّ الناس إليهما، لإسكاتهما وإحلال السلام بينهما. ولكنهم بوغتوا عندما رأوهما يجلسان أمام البيت، مناديين على ابنهما أن يفتح لهما باب البيت المغلق على الأقل. وسأل الناس، مندهشين: «ومَنْ هذان اللذان يتشاجران بأعلى صوتيهما فوق السطح؟» أجابت أم عزة: «لا أعرف. انه الشيطان. لقد تشاجرت مع العجوز ظهراً، وها هو الشيطان يعيد

شجارنا كلمة، كلمة، في الليل». وهكذا، تعرف الناس على المسجّل، الذي دخل محلة جقور بشجار علني بين العجوزين.

كان اختفاء خضر موسى المأساوي قد دفع قدرية، أخته، إلى البكاء عليه كل يوم، ناسية كل اغتياباتها السابقة ضده. أما زوجته، نظيرة فقد انتظرت أوبته ثلاثة أشهر، وعندما لم يعد ارتدت ثوب الحداد، وصلّى شيوخ محلة جقور على روحه صلاة الغائب. وكان ذلك إيذاناً بنسيان الرجل الذي خرج يبحث عن شقيقيه المفقودين.

ولكن هذا النسيان لم يدم طويلاً، فبعد أقل من عام من اختفاء خضر موسى، شاهد الناس، ذات صباح، منطاداً يحلّق فوق المدينة، كان أول منطاد تشهده كركوك على الإطلاق. أثار ظهور هذا المنطاد فوق مدينة كركوك فضول الناس ومخاوف المتصرف ومدير الشرطة وقائد الفرقة الثانية، الذين اتخذوا الإجراءات الدفاعية الضرورية، خشية أن يكون المنطاد طليعة هجوم معادٍ. وبطريقة ما، وصل الخبر إلى مراسل إحدى وكالات الأنباء الأجنبية، فبث الخبر، مشيراً إلى وضع الجيش تحت الإنذار، توقعاً لتطورات محتملة. وظل الناس يعدون من شارع إلى آخر، متابعين حركة المنطاد، الذي كان يحلّق عالياً فوق المدينة. وأخيراً هبط المنطاد في حديقة المصلّى، حيث احتشد أُلوف الناس، محيطين بالمكان، وخائفين، في الوقت نفسه، من الاقتراب من المنطاد، ولكن خوفهم تلاشى عندما رأوا ثلاثة رجال يغادون المنطاد، ملوّحين بأيديهم للناس. وإذ اقتربوا أكثر، هتف القادمون من محلة جقور: «ها هو ذا خضر، لقد عاد. ولكن يا إلهي، لكم تغير!» فقد رأوا الغنام خضر موسى، الذي ما ارتدى، في حياته كلها، غير الجلباب يرتدي بدلة كحلية أنيقة، ويعتمر قبعة سوداء، ويضع على عينيه نظارات طبية. وقف خضر موسى أمام المحتشدين، وألقى كلمة قصيرة، أوضح فيها أنه ذهب يبحث عن

شقيقيه أحمد ومحمد، اللذين كانا مفقودين منذ أعوام طويلة، حتى عثر عليهما في الغربة وعاد بهما. وكان شقيقا خضر موسى يحدّقان، مبتسمَين، في وجوه الناس. وعندما وصل المتصرف ومدير الشرطة بنفسيهما، قال لهما خضر موسى بهدوء: «هل يمكن أن نتحدث في الأمر في مكان آخر؟» وصعد رجال المنطاد الثلاثة في سيارتي المتصرف ومدير الشرطة اللتين اختفتا عن الأنظار، فيما أحاط رجال الشرطة بالمنطاد، مانعين الناس من الوصول إليه.

بعد ثلاث ساعات أو أربع، عاد الأشقاء الثلاثة داخل سيارة المتصرف نفسه، مع سيارة شرطة ترافقها، إلى محلة جقور التي استقبلتهم باحتفال ما شهد له الناس مثيلاً من قبل، رافعة الأعلام واللافتات التي علقت فوق أعمدة الكهرباء: «محلة جقور ترحب بعودة أبنائها الغائبين». والحق، أن نصف سكان كركوك انتقلوا إلى هذه المحلة المنسية، لرؤية رجال المنطاد الثلاثة، مما أدى إلى سقوط الكثير من الأطفال والنساء تحت الأرجل، بل أن رجال الشرطة أنفسهم عجزوا عن إيقاف هذا المد البشري، الذي كان يكتسح كل شيء أمامه.

ورجا مدير الشرطة خضر موسى أن يلقي كلمة، يطلب فيها إلى الناس الإنصراف، لأن استمرار هذا الزحف على محلة جقور قد يؤدي إلى وقوع اضطرابات، تصعب السيطرة عليها. ولما كان من الصعب على أية بقعة في المحلة احتواء هذا الحشد البشري الهائل، اقترح الملّا زين العابدين القادري أن يلقي خضر موسى كلمته من منارة المسجد، حيث توجد أربع مكبرات للصوت. وهكذا، صعد خضر موسى إلى المنارة، وألقى خطبة قصيرة مؤثّرة، شكر فيها المتصرف ومدير الشرطة والمسؤولين الآخرين على حسن استقبالهم له ولشقيقيه، كما حيا أبناء محلة جقور ومدينة كركوك على عواطف

أبنائها السامية، مؤكداً أنه عاد مع شقيقيه إلى الوطن بعد غياب طويل، ليعملوا من أجل رفعته وسموه، طالباً إليهم الإنصراف، ليتسنى لهم النوم، بعد رحلتهم الطويلة المضنية، التي قطعوها بالمنطاد. وهكذا، بدأ الناس ينصرفون، آسفين، وإن ظل بعضهم يجرجر رجليه، بتكاسل، وخاصة أولئك الذين جاؤوا من أحياء بعيدة، ليستمعوا إلى قصة الغنام الذي عاد مع شقيقيه من روسيا، داخل منطاد قطع بهم أُلوف الكيلومترات.

ومع ذلك، فإن القصة الحقيقية لهذه المغامرة، كانت على كل لسان في اليوم التالي. فقد تناقلها الناس، حتى بدون حاجة لإضفاء شيء من الخيال عليها. ولماذا يفعلون ذلك إذا كانت هي نفسها أكثر إثارة من الخيال؟ وعلى أي حال، فإن خضر موسى نفسه، اضطر إلى رواية قصته المرة تلو الأخرى، بدون ملل، ونشرتها جريدة «كركوك» في البداية، ثم ظهرت بطريقة مقتضبة ورديئة في جريدة «الزمان»، التي كانت تصدر في بغداد. وأخيراً قدِم صحافيون من أميركا وانكلتره وألمانيا وفرنسا، طالبين إليه شراء قصته. وهكذا، عادت إلى خضر موسى عادته القديمة في حب المال، فباع قصته، في وقت واحد، إلى عدة صحف، من بينها مجلة أميركية عرضت عليه مبلغ مئة ألف دولار، لقاء كتابة مذكراته، والتحليق مرة أخرى بالمنطاد فوق مدينة كركوك، لتصويره من جديد، فوافق بعد أن قال له المتصرف، الذي كانت المفاوضات تجري في غرفته، إن هذا المبلغ يزيد عن الثلاثين ألف دينار. في الحقيقة، إن خضر موسى، الذي حصل على أكثر من خمسين ألف دينار، بضربة واحدة، بعد تقديم الهدايا المالية المناسبة إلى المتصرف ومدير الشرطة ورئيس البلدية، قرر أن يكون عادلاً هذه المرة. فوزع عشرين ألف دينار على شقيقيه وأختيه، قدرية وسلمى، وزوجته، نظيرة، وأمها الساحرة العجوز، هداية، وحميد نايلون

وزوجته، فاطمة، بل وحتى على الصبي برهان عبد الله، الذي أفلح في أن يسلب منه مئة دينار. كما وزع خمسة آلاف دينار على بيوت محلة جقور، من دون استثناء أحد، اعترافاً منه بالاستقبال الحافل الذي أعدوه له ولشقيقيه، ولم يحتفظ لنفسه إلا بنصف المبلغ الذي هبط عليه من السماء، كما كان يقول. ولم يكن هذا كل ما في الأمر، فقد أصبح، فجأة، شخصية مرموقة في كركوك، حتى أن المتصرف عرض عليه الإنتقال إلى أحد الأحياء الراقية في المدينة، إلا أنه رفض ذلك، مشيراً إلى أنه لا يمكن أن يغادر محلة منحته الحياة.

روى خضر موسى قصته، التي جلبت له الجاه والمال، في الحقيقة، قبل أن يسمعها أحد، وهو يجلس بين شقيقيه على الأرض في محلة جقور، بتفاصيل لم يذكرها حتى للصحف والمجلات الغربية التي دفعت له بسخاء. وسط ضحك أبناء محلة جقور، روى الغنام كيف أنه ضلل زوجته نظيرة واستطاع الأفلات منها، وهي تلاحقه من مكان إلى آخر. اتجه أولاً نحو الجبال الكردية، سائراً على قدميه حتى بلغ وادي جبل حاج عمران، واتصل بشيخ عشيرة برزان، الذي أهداه بغلاً، وبعث معه مَنْ يرافقه في رحلته الصعبة تلك إلى روسيا. وهكذا سلك خضر موسى، مع دليله الممر الجبلي السري نفسه، الذي كان الملّا مصطفى البرزاني قد قطعه قبل ذلك بسنوات، أثناء انسحابه مع قواته من الفلاحين الأكراد، شاقاً طريقه إلى روسيا، وسط معارك ضارية مع القوات العراقية والإيرانية التي كانت تطارده. وأخيراً، بعد مسيرة شاقة، وصل خضر موسى ودليله الحدود الروسية، حيث شاهدوا العلم الأحمر، ذا المنجل والمطرقة، يرفرف فوق مخفر الحدود السوفياتية الذي اتجه إليه الدليل وطرق بابه المغلق، حيث استقبلهما آمر المخفر مرحباً بالدليل، الذي كان قد قدّم إليه الهدايا، التي جلبها معه، والتي اعتاد البارزانيون تقديمها في كل مرة يعبرون

فيها الحدود. وكان آمر المخفر من الكرم، بحيث أخرج ثلاث قنانٍ من الفودكا ووضعها أمامهما، طالباً إليهما مشاركته الشرب، ولكنهما رفضا برقة، على الرغم من إلحاحه وإصراره. عند ذلك، قال الرجل: «لا بأس، سأشرب بدلاً عنكما»، فجرع القناني الثلاث وحده، قبل أن يودع خضر ودليله البارزاني، من دون أن يظهر عليه أي أثر للسكر، حتى أنه قدّم لهما رقصة قوقازية، بقدمين ثابتتين، مثل قائمتَي الدب.

ثم سار الرجلان مدة ثلاثة أيام أخرى حتى بلغا قرية المهاجرين الأكراد، ذات الحكم الذاتي، حسب العادة السوفياتية. ولما كان الغنام، القادم من العراق، على عجلة من أمره، فقد صعد إلى القطار في اليوم التالي، متجهاً إلى طاشقند، وليس معه سوى رسالة توصية إلى مفتيها، من مدير الكولخوز الكردي، وبضعة روبلات، دسها رجال القرية في جيبه. وصل خضر موسى طاشقند في الصباح، فوجد الناس هناك يتكلمون لغة محلة جقور نفسها. قبل أن يقصد مقر المفتي، جلس في أحد المقاهي وشرب «استكاناً» من الشاي، رفض صاحب المقهى أن يأخذ منه ثمنه، عندما اكتشف أنه من العراق، طالباً إليه أن يجلب له نسخة من القرآن الكريم، إذا ما زار طاشقند مرة أخرى، بل ان الرجل كان من اللطف، بحيث ترك عمله في المقهى التابع للدولة، وصحبه إلى مقر المفتي، الذي كان من الصعب على رجل غريب، مثل خضر موسى، العثور عليه وحده. وقد فرح المفتي كثيراً، بعد أن قرأ رسالة صديقه، مدير الكولخوز، وقال، مداعباً: «كان ينبغي عليه أن يرسل لي معك خروفاً على الأقل». ثم اقترح عليه أن يعينه مؤذّناً في مسجد طاشقند الكبير، لأن الله منح العرب موهبة النطق الصحيح للكلمات العربية. وقد وافق خضر موسى على هذا الاقتراح، الذي كان يتناسب تماماً مع مؤهلاته، موضحاً

للمفتي أن ما دفعه للمجيء إلى طاشقند هو رغبته في البحث عن شقيقيه الأسيرين عند الروس. فوعده المفتي بالإتصال بصديقه، مدير الشرطة، للبحث عنهما في كل الأماكن المحتملة.

مرت شهور عديدة قاسية على خضر موسى في غربته، وهو ينتظر في كل يوم خبراً، ينقله مدير الشرطة إليه. ولولا الأمل الذي كان يعمر قلبه لقفل راجعاً مرة أخرى إلى العراق. ولكن ما كان في إمكانه أن يعود خائباً، لأنه كان سيجعل من نفسه أضحوكة في محلة جقور كلها. لذلك، صمد في زاوية المسجد، الذي كان يعيش فيه، وما من عزاء له سوى المرات الخمس التي كان يرتقي فيها شرفة المنارة، كل يوم، ليؤذّن، داعياً المؤمنين إلى الصلاة.

وفجأة، ذات يوم، عند الظهر، دخل المفتي ومعه مدير الشرطة إلى الجامع، يتبعهما رجلان عجوزان. فنهض خضر موسى لاستقبالهم محيياً، وقد أدركَ، مثل ضوء يبزغ في العتمة، أنه يعرف الرجلين، اللذين كانا يحدقان فيه مندهشين. فعانقهما حتى من دون أن يسألهما. كانا يشبهانه تماماً. وقال المفتي التركماني:

لقد جئناك بشقيقيك. فماذا تريد أكثر من ذلك؟»

وأخذه شقيقاه معهما إلى بيتهما الذي كانا يعيشان فيه معاً. ورويا له كيف أنهما أُسرا وأُخذا إلى طاشقند، وشهدا كل أهوال الحرب الأهلية، التي استمرت عدة سنوات. وبعد ذلك، منعا من مغادرة البلاد، أسوة بالمواطنين الآخرين. ولكنهما لم يفقدا الأمل في العودة ذات يوم إلى محلة جقور، ومن أجل ذلك، رفضا أن يتزوجا، حتى لا يستبدلا بالوطن المرأة.

وكان عليهما الآن أن يتدبرا أمر عودتهما، بعد أن اعترفت الشرطة بكونهما أجنبيين، لا تنطبق عليهما القيود المفروضة على السفر. كان خضر موسى يريد العودة بهما من الطريق السري نفسه، الذي سلكه

بين جبال كردستان، ولكن مدير الشرطة نهاه عن ذلك، مؤكداً أنهم إذا ما وقعوا في أيدي حرس الحدود في إيران أو العراق، وهو احتمال قائم دائماً، فإنهم سيرمّون بالرصاص، كجواسيس، حتى قبل أن يستمع إليهم أحد. والأسوأ من ذلك، أنهم ما كانوا يملكون حتى جوازات سفر عراقية. واضطر مدير الشرطة للجوء إلى المخابرات السرية؛ فيما عرض المفتي قضيتهم على اللجنة المركزية التي كان هو نفسه عضواً فيها لإيجاد حل للأخوة الثلاثة. كان الأمر معقداً للغاية، بحيث اضطرت اللجنة المركزية إلى عقد ثلاثة اجتماعات، بدون أن تتوصل إلى حل، مما اضطرها هي الأخرى إلى طلب النجدة من المخابرات، التي كان في إمكانها أن تفكر في كل شيء تقريباً، حتى التفاصيل الصغيرة. وقال كوليانوفسكي، مدير المخابرات للمفتي، مبتسماً: «لا عليك، كل شيء سيكون على ما يرام». وقد أرتعب خضر موسى، في البداية، عندما قيل له إنهم سوف يطيرون، إلى كركوك، داخل منطاد. إذ لم تكن في رأسه سوى فكرة مبهمة عنه، ولكن شقيقيه، اللذين كانا قد عملاً في العديد من المصانع الحربية، أكدا له أن السفر في المنطاد متعة، ما بعدها متعة. وفي الحقيقة، ان المخابرات، التي قررت إعادتهم في منطاد إلى العراق، فكرت في كل الاحتمالات. فقبل كل شيء، كانت العلاقات الدبلوماسية والسياسية مع العراق مقطوعة؛ وهذا يعني أنهم سوف يتعرضون إلى خطر شديد، إن هي قذفت بهم، ببساطة، خارج الحدود، أو حتى لو أنها زوّدتهم بوثائق مزوّرة. أما السفر في منطاد، فكان يعني أنهم سيصلون إلى العراق بسرعة، تجنب الشيوخ الثلاثة وعورة الطريق، التي قد لا يتحملونها. ولكن الأهم من ذلك، وهو ما سيضلل السلطات العراقية، ويجعلها تغفر لهم كل شيء، هو أن يدّعي الرجال الثلاثة الهرب من الشيوعية في منطاد، في قصة متقنة، كرروها المرة تلو الأخرى، حتى

لا ينسوا تفاصيلها، وهي القصة نفسها التي أعادوها أمام الجميع، من المتصرف وحتى المجلة الأميركية، التي نشرت مذكرات خضر موسى تحت عنوان مثير: «هربوا في منطاد من جحيم الشيوعية».

في الحقيقة، ان المخابرات السوفياتية، التي افتعلت هذه العملية، كانت قد قدرت أن الروح الدعائية عند الأميركيين سوف تعميهم عن رؤية أي شيء آخر. صحيح أن المخابرات السوفياتية كانت لا ترى بأساً في ان يعود الرجال الثلاثة إلى بلادهم، ولكن ما كان يهمها أكثر من ذلك، هو تحديد مواقع القواعد العسكرية التي كان حلف بغداد قد بدأ بإنشائها، وعما إذا كانت تحتوي على أية أسلحة نووية. وهكذا، ملأوا المنطاد بغاز خاص، كان لا يزال يعتبر أحد أسرارهم العسكرية، يبث أشعة، تحدد موقع كل قاعدة عسكرية، بل وحتى أنواع الأسلحة التي تتضمنها. وبالطبع، فإن الشيوخ الثلاثة، بل وحتى المفتي ومدير الشرطة واللجنة المركزية كانوا يجهلون كل ذلك؛ وهو أمر لم يكن يخصهم على أية حال. وقد كانت رحلة المنطاد، التي استمرت سبعة عشر يوماً، ممتعة حقاً، لولا بعض المخاطر التي تعرضوا لها في الطريق! ومنها أن نسراً، كان قد أثاره، كما يبدو، المنظر السماوي الغريب، هاجم المنطاد حتى خشي شقيقا خضر، اللذان كانا يتوليان القيادة، أن يتسبب النسر في سقوطهم. ولكنه تركهم، عندما راحوا يصرخون، بأعلى أصواتهم، قاذفين إياه بكل ما يمكن رميه. وفي الطريق أيضاً، أطلق بعض الأكراد الجبليين النار على المنطاد، معتقدين أنه مركبة يقودها الشيطان، ، مما أرغم الرجال الثلاثة على الارتفاع أكثر في الجو. وما عدا ذلك، فقد سار كل شيء على ما يرام، مستدلين على الطريق تارة بالبوصلة وأخرى بعيني خضر موسى، الذي كان يحفظ، عن ظهر قلب، كل المعالم المهمة في الطريق.

وتركت عودة خضر موسى، مع شقيقيه، إلى محلة جقور، داخل منطاد، أثراً لا يمحى في قلب الصبي برهان عبد الله، الذي زاد إيمانه بقوة العلم والمخترعات الحديثة، وتخلى عن كل رغباته السحرية في التحليق أو الاختفاء على طريقة المرشد العام، مكرساً الكثير من الجهد لوضع نظرية علمية، ربما رياضية، تكشف عن سر وجود الكون، السؤال الذي لم يعثر على جواب له حتى في الدين.

وفي الحقيقة، ان هذا التأثير لم يقتصر على الصبي برهان عبد الله وحده، فقد انقلبت حياة محلة جقور كلها. أعاد الكثيرون ترميم بيوتهم، وملأوا مخازنهم بالحبوب والرز، واشترى بعضهم دكاكين صغيرة في السوق. كما تخلى حميد نايلون، ولو مؤقتاً، عن فكرة تشكيل جيش للتحرير الشعبي، بعد أن اشترى سيارة خاصة به، وعثر على عاهرة، يزورها خلسة، مرتين في الأسبوع، هارباً من بكاء وصراخ الطفلين التوأمين، اللذين وضعتهما زوجته، دفعة واحدة، معتقدة أن ذلك قد حدث بسبب قوة الأدعية التي حصلت عليها من الأئمة.

وقد اكتسبت محلة جقور شرفاً كبيراً، عندما جاء الملك فيصل الثاني إلى مدينة كركوك في سيارة رولز رويس، يسبقها شرطيا مرور على دراجتين بخاريتين، وتتبعها سيارة جيب، تابعة للشرطة، يقف فيها ثلاثة رجال، للحراسة. كان تلاميذ المدارس قد خرجوا واصطفوا في شارع الأوقاف، منتظرين مليكهم الشاب، الذي كان يحيي شعبه، مبتسماً من وراء زجاج السيارة. ذبح خضر موسى بنفسه خروفاً أمام السيارة. وهتف برهان عبد الله، الذي اختير من قبل مدرسته: «يعيش صاحب الجلالة، مليكنا المفدّى فيصل الثاني». ولكن السيارة الملكية كانت قد تجاوزته، فلم يسمع الملك هتافه. وفي المساء، استقبل

الملك الشاب خضر موسى وشقيقيه، العائدين من روسيا، وقلدهم وسام الرافدين، من الدرجة الثانية، مشيراً إلى أن شجاعتهم النادرة ومحبتهم لوطنهم، جعلت العالم كله يتحدث عنهم. هذه اللمسة الإنسانية من الملك الشاب مست أعماق الحاضرين، حتى أن المتصرف نفسه اغرورقت عيناه بالدموع، وكابد الآخرون، كي لا تفضحهم عواطفهم، التي فجرها حضور الملك.

الفصل الخامس

ما كاد الناس، في محلة جقور، يسمعون بنية البلدية في شق طريق عبر المقبرة القريبة، الواقعة في منطقة المصلّى، حتى اتصلوا بخضر موسى، طالبين إليه التدخل لوقف هذا الانتهاك الفظ، والتوسط لدى المتصرف أو حتى الملك، إذا ما أصرت البلدية على تحدي مشاعر المسلمين. كان ذلك، في الواقع، أكثر مما يطيقه أبناء مدينة كركوك، إذ يمكن للمرء أن يقبل أي شيء، ولكن أن تقوم الحكومة بنبش قبور الآباء والأجداد، وبينهم كثير من الأولياء الصالحين، فهو الكفر بعينه. ضم الوفد الذي تشكل، كالعادة، بطريقة عفوية، وجهاء المحلة وشيوخها، ومن بينهم الملّا زين العابدين القادري، على الرغم من أنه كان قد قرر، منذ جره إلى مخفر الشرطة والتحقيق معه، بسبب شتائمه النارية ضد الانكليز، أن يطلّق السياسة نهائياً، إلا أنه اعتبر الأمر، هذه المرة، قضية دينية، لا يجوز التهاون فيها. صحيح أنه كان قد قال للمفوض الشاب، وهو يودعه، عند الباب: سوف أبتعد عن ذِكْر أبي ناجي[1] ما دام ذلك يزعج حكومتنا الرشيدة»! إلا أنه لم يلتزم أمامه أبداً بالإبتعاد عن الله. بل إن المفوض نفسه طلب إليه الإلتزام بكتاب الله وسنة رسوله؛ فالسياسة للسياسيين والدين لرجال الدين، ولا يصح لأحد الطرفين أن يتدخل في الشؤون الخاصة للطرف الآخر. وكان هذا الصواب عينه، في نظر الملّا زين العابدين القادري. فالمقبرة

---

(١) أبو ناجي: لقب كان العراقيون يطلقونه على الإنكليز أيام الحكم الملكي.

تخص رجال الدين، ولا علاقة لها بأبي ناجي أو حتى بالحكومة. وقال خضر موسى، بعد صمت طويل، بدا مضنياً للرجال الذين حسبوا أنه قد نسي الكلام: «سوف نتصل برئيس البلدية أولاً، ونعرض عليه الأمر. لا ينبغي القيام بأي عمل طائش قبل انجلاء الموقف. هناك الكثير الذي يمكن عمله». ورد سلمان حنش مختار محلة جقور: «لا أشك أن رئيس البلدية مسلم، مثلنا، ولا يمكن أن يقبل بتدنيس قبور أجداده». وتدخل الملّا زين العابدين القادري، مخاطباً خضر موسى: «كنت احبذ أن تتصل بالملك فيصل نفسه، حتى يدرك الجميع أن محلة جقور ليست لقمة سائغة بيد كل من هب ودب». وابتسم خضر موسى: «لا ينبغي أن نشغل الملك بكل صغيرة وكبيرة. إنه موجود يمكن الاتصال به في أي وقت، إذا ما انغلقت في وجوهنا الأبواب الأخرى. تذكروا أن المقبرة لا تخص محلة جقور وحدها، وإنما كركوك كلها. لسنا وحدنا المسؤولين عن ذلك». وهكذا، قصد الوفد الذي تقدمه خضر موسى، والذي ضم الملّا أحمد الصابونحي، في اليوم التالي، مكتب رئيس البلدية، الواقع وراء حديقة العلمين. وقد قادهم الفرّاش، الذي يقف في الباب، إلى مكتب رئيس البلدية، الذي خرج، هو الآخر، لاستقبالهم، مرحباً بهم بحرارة. كان رئيس البلدية رجلاً في حوالي الأربعين من عمره، يضع وردة حمراء على الجانب الأيسر من ياقة سترته الزرقاء، وينتعل حذاء «جم جم»، أسود اللون، وهو حذاء ذو مقدمة منحنية إلى الأعلى، استمد اسمه الغريب من أغنية «جم جم» الهندية، التي انتشرت، في ذلك الحين، بطريقة غريبة، في كركوك وباقي المدن الأخرى.

ورغم أن منظر رئيس البلدية بدا فكاهياً، بشكل ما، بصلعته المبكرة، التي اجتاحت وسط رأسه، فغطاها بالشعر الأكثف عند صدغيه، مثبتاً إياه بـ«سبراي» كان يباع في معظم الحوانيت الموجودة

في شارع الأوقاف، وبشاربه القصير، المعتنى به جيداً، فإنه كان من النمط القادر على كسب ودّ الآخرين، بسهولة، دون أن يُفقده ذلك هيبة الوظيفة التي يمثلها. وقد أضفت رائحة أعواد البخور الخضراء المحروقة، والتي وضعها داخل زجاجة، فوق رف خشبى وراءه على الجدار، تحت صورة الملك فيصل الثاني، والوصي عبد الإله، جواً من الألفة على الغرفة الأنيقة المستطيلة، التي كانت تنتهي بمنضدة من المعدن الرمادي. وعلى طرفي المكتب، كانت توجد بضعة مقاعد من قماش أصفر، شحب لونه بسبب القِدَم، ولكنه ظل نظيفاً. ودخل الفراش بـ«استكانات» الشاي، التي وضعها على مناضد صغيرة، ملحقة بالمقاعد. ونهض رئيس البلدية مقدماً اليهم لفافات تبغ من علبة «جون بلاير»، بلاستيكية سوداء، مذهبة بحروف لاتينية، فقال الملّا زين العابدين القادري: «جزاك الله خيراً يا بني». وتدخل الحاج أحمد الصابونجي: «أكاد أعرفك. قل لي، ألست أنت ابن عزة أفندي؟» وابتسم رئيس البلدية: «بالطبع، يا عم، إن والدي يذكرك دائماً بكل خير». وسأل الحاج أحمد الصابونجي، بمودة: «وكيف هو؟ إنني لم أره منذ مدة طويلة». وردّ رئيس البلدية: «انه يستمتع بوقته الآن في تركيا. تعرف كم يحب والدي استانبول». وقال الحاج أحمد الصابونجي: «تذكرت الآن، أنت إحسان بالتأكيد». وضحك رئيس البلدية: «لقد عرفتني أخيراً». ثم حدّق في خضر موسى والملّا زين العابدين القادري، مستطرداً: «إنني أعرفكم جميعاً، وانه لشرف كبير لي أن يتكرم بزيارتي أشخاص مثل خضر موسى والملّا زين العابدين القادري وصديق شخصي لوالدي، مثل الحاج أحمد الصابونجي».

وعند هذا الحد، وجد خضر موسى أن الوقت قد حان للدخول في الموضوع: «تعرف أنه لا يحق لأحد إزعاج الموتى في الحياة الآخرة. ثم ان هؤلاء الموتى هم أباؤنا وأجدادنا الذين ينتظرون منا الدفاع

عنهم وحمايتهم من الأذى. ولكن ها هي البلدية تريد نبش قبور موتانا، بحجة شق طريق جديدة. لقد جئنا لنقدّم لك التماساً بالعمل على إيقاف هذا المشروع، الذي سوف يثير بلبلة شديدة بين كل أبناء كركوك». كان خضر موسى قد قال، في الحقيقة، كل ما كان يريد قوله، بأقل الجمل، إيجازاً، مشيراً في الوقت نفسه إلى العواقب الخطيرة لمثل هذا العمل. وأطرق رئيس البلدية إحسان عزة أفندي برأسه، كما لو أنه يستجمع أفكاره، في حين راح الملّا زين العابدين القادري يكرر، مع نفسه، دون انقطاع: «استغفر الله العلي العظيم، استغفر الله العلي العظيم». وأخيراً، قال رئيس البلدية، بحياء من يخجل من نفسه: «إن انزعاجي ليس أقل من انزعاجكم. ومقبرة المصلّى هي كل تاريخنا في هذه المدينة. يكفي أنها تضم رفات سيد قزي. ولكن الأمر ليس في يدي. إنه أمر من فوق». وتدخل الملّا زين العابدين القادري، الذي كان يهمه تجنب الدخول في صدام مع الإنكليز، بعد الوعد الذي قطعه على نفسه أمام المفوض: «لا يمكن أن تكون للإنكليز علاقة بمثل هذا الأمر الذي يخص المسلمين وحدهم». ولكن الملّا كان على خطأ هذه المرة، فقد هز رئيس البلدية رأسه، قائلاً: «إن الأمر يتعلق بشركة النفط التي تريد شق هذه الطريق، عبر المصلّى إلى حقولها النفطية الجديدة». هذا الأمر فاجأ وفد محلة جقور، بحيث لم يجد خضر موسى ما يقوله سوى: «سوف نفكر في الأمر من جديد». وأعلن رئيس البلدية أنه يضع نفسه وجميع الموظفين والعمال التابعين لدائرته تحت تصرف محلة جقور، من أجل خدمة هذه القضية العادلة.

عاد الوفد، وهو أكثر حيرة مما مضى. ومع ذلك، فإن وجهاء المحلة لم يقطعوا الأمل في وضع حد لمثل هذا العمل الجائر. فهناك، بعد كل شيء، خضر موسى، الذي سوف يتصل بالملك

ويبلغه بهذا الظلم الفاحش، إذا ما أصر الإنكليز على شق طريقهم عبر قبور المسلمين. ووجد الملّا زين العابدين القادري أن من الشرف أن يتصل بالمفوض حسين الناصري، ليحرر نفسه أمامه من الوعد الذي كان قد قطعه على نفسه بعدم مهاجمة الانكليز أو التعرض لهم؛ فالأمر لا يقبل الاجتهاد هذه المرة، وهو، كما قال الملّا زين العابدين القادري للمفوض الشاب: «جهاد من أجل الدفاع عن المقدسات الاسلامية». وبلغت الجرأة بالملّا، الذي تملكه شعوره الإسلامي، حد الطلب إلى المفوض حسين الناصري أن ينضم هو ورجاله من الشرطة، العلنيين والسريين أيضاً، إلى جبهة مسلمي محلة جقور، في مقاومة هذا العمل المستهجن، الذي لا يحترم حتى راحة الأموات. ولكن المفوض ابتسم، وهو يقول: «لا بد أن ثمة خطأً في الموضوع. لا يمكن للإنكليز أن يرتكبوا مثل هذه الحماقة. ومع ذلك، نرجوك أن تعمل على تهدئة الخواطر، حتى يكون أمامنا ما يكفي من الوقت لعمل شيء ما. وثقْ أن كل شيء سيكون على ما يرام». وخرج الملّا زين العابدين القادري من القشلة، مزهواً بنفسه؛ فقد أصبح، أخيراً حراً من ذلك الوعد، الذي كان قد قطعه على نفسه في لحظة ضعف. فالمفوض لم يطلب إليه، هذه المرة، الابتعاد عن شتم الانكليز، بل رجاه العمل على تهدئة الخواطر. وشعر بالقوة، مكرراً مع نفسه: «صحيح أن الله ينهى الإنسان عن رمي نفسه في التهلكة، ولكن الجهاد واجب على كل مسلم ومسلمة». وفي المساء، انعقد اجتماعان في محلة جقور. أحدهما في جامع محلة جقور، على السطح، بعد صلاة العشاء، حضره شيوخ المحلة، كالعادة. والآخر في الخرابة، التي كانت تضم الزورخانة، وحضره شبان المحلة ومعظمهم من الرياضيين، بالإضافة إلى النساء اللواتي تكتلن حول الخرابة بعباءاتهن السود مع أطفالهن الصغار المحمولين على الصدور.

وفي هذين الاجتماعين، اللذين انعقدا حتى بدون دعوة، أعلنت محطة جقور التمرد ضد البلدية وإحباط مشروع شق طريق عبر المقبرة، مهما كلف ذلك من ثمن. كان القرار قاطعاً في الاجتماعين، على الرغم من اختلاف السبل. فإذا كان الشبان الرياضيون قد قرروا منع البلدية، بالقوة، من شق الطريق، فإن شيوخ المحلة، المجتمعين على سطح المسجد، كانوا قد قرروا الاتصال بالمتصرف، للتدخل ولإيقاف هذا العدوان الجائر.

وفي اليوم التالي، أصدرت اللجنة النقابية في المحلة بياناً، كتب بخط اليد، واستنسخ بالكاربون، دعت فيه عمال البلدية إلى الإضراب والتضامن مع الموتى المسلمين، الذين تريد شركة النفط الانكليزية الإستعمارية نبش قبورهم.

كان الموقف، في واقع الحال، متوتراً، على الرغم من الهدوء الظاهري المضلّل؛ وهو هدوء ما كان ليتحقق لولا إلحاحات شيوخ المحلة بتجنب الصدام مع الشرطة وموظفي الحكومة، انتظاراً لما ستسفر عنه اتصالاتهم مع المسؤولين. وكان الكثيرون منهم يعولون، في الحقيقة، على ما يمكن أن يقوم به خضر موسى، الذي راح بعضهم يلقبه بالباشا، اعتباطاً، وهو لقب استنكره خضر موسى بشدة، مؤكداً لأبناء محلته أن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وكان خضر موسى يدرك هو أيضاً أن ثمة امتحاناً ينتظره، وان عليه أن يجتاز هذا الامتحان بنجاح. فإذا كان الله قد مَنّ عليه بفضله ومنحه هذه المرتبة العالية بين أبناء مدينته، فعليه أن يثبت لهم الآن أنه جدير بكل ذلك. ولكن موضوع الاتصال بالملك كان يقلقه، فإذا ما رفض الملك طلبه، فإنه يكون قد وضع نفسه في موقف محرج. وقد نصح له شقيقاه، العائدان من روسيا، واللذان كانا يمتلكان خبرة واسعة في التعامل مع السلطات

البيروقراطية، أن يبدأ عمله من الأسفل اولاً، قبل اللجوء إلى الكبار، وخاصة الملك. فقد يستطيع، أحياناً، موظف صغير أن يحل ما لا يستطيع رئيس الوزراء البتّ فيه. ونصحا له بتقديم الهدايا، لأن الهدية المناسبة، تفتح أكثر القلوب انغلاقاً. وهكذا، حمل خضر موسى هداياه في عربة يجرها حصانان، بينما صعد هو ووفد شيوخ ووجهاء محلة جقور في عربتين أخريين، متجهين جميعاً نحو بيت المتصرف، الذي كان يقع في منطقة شاطرلو، في الجانب الآخر من مدينة كركوك، مودعين بهلاهل نساء المحلة وصلواتهن وابتهالاتهن إلى الإمام أحمد والشيخ عبد القادر الكيلاني، القادر على كل شيء. وإذا كانت النساء قد اخترن التوسل إلى هذين الإمامين، فذلك لأن الإمام أحمد، الذي لا يعرف أحد قصته بالضبط، كان يعتبر الإمام الحامي لكل منطقة المصلّى، التي تقع فيها محلة جقور، أما الشيخ عبد القادر الكيلاني، الأعلى مقاماً، بالتأكيد، من الإمام أحمد، فكان يستشيط غضباً في مواجهة الظالمين. فقد رأى مرة، وهو يتوضأ في بغداد، السلطان همايون، وهو يحكم، ظلماً، على مسلم هندي فقير في مدينة أكرا، التي سميت، فيما بعد، باسم أكبر آباد؛ نسبة إلى ابن همايون، الذي حكم أكثر من خمسين عاماً، فناداه الشيخ الكيلاني: «ارجع عن حكمك يا سلطان همايون، فأنت تمثل إرادة الله فوق الأرض، أطلق سراح الرجل، فإنه صاحب عائلة، تنتظره في البيت». ولكن السلطان، كما يبدو لم يشأ أن يسمع صوت الحق. إذ ذاك، استشاط الشيخ عبد القادر الكيلاني غضباً، وأمسك بقبقابه، الذي كان يضعه قربه، عند حافة الحوض الذي يتوضأ فيه، في الحضرة الكيلانية، الواقعة في جانب الرصافة في بغداد، ورمي به السلطان همايون الجائر، في الهند، فأصابه في ذقنه، مطيحاً به أرضاً من فوق العرش الذي كان يجلس عليه. وكانت نساء محلة جقور متأكدات

تماماً من أن جيوش الانكليز كلها، لن تصمد لحظة واحدة أمام قبقاب الشيخ الكيلاني، إذا ما مد يد العون إلى مسلمي كركوك في الدفاع عن قبور موتاهم.

ذات صباح، سارت العربات الثلاث، الواحدة بعد الأخرى، عبر السوق الصغير، ومن ثم السوق الكبير، حيث كان القصابون يجلسون على كراس موضوعة مباشرة أمام خطاطيفهم، التي تتدلى منها الذبائح، واضعين سكاكينهم في الأحزمة الجلدية التي يشدونها على أوساطهم، فوق دشداشات غامقة اللون، ملطخة بالدم، وفوق رؤوسهم «الجمدانيات» التي يشدونها بطريقة تميز التركمان عن غيرهم من العرب والأكراد، وأصحاب الدكاكين الصغيرة التي تبيع العطاريات، وباعة الفواكه والخضراوات، الموضوعة في زنابيل من القش على الرصيف، وباعة الكباب، الذي تشتهر به مدينة كركوك، والذي يجهز بطريقة تكاد تكون سرية؛ حيث يخلط اللحم بالخبز اليابس، الذي يسحق ويطحن وتضاف إليه بهارات خاصة، كان العطارون اليهود يجلبونها من قرية تدعى تورخام، تقع على ممر خيبر في أفغانستان؛ وهو الممر الذي سلكه الاسكندر المقدوني بجيوشه، ذات يوم، في طريقه إلى الهند. كل هؤلاء كانوا ينهضون احتراماً، ويحيّون شيوخ محلة جقور، المتجهين إلى بيت المتصرف داخل عربات سود مفتوحة، تجرها الخيول، بل ان الموجودين في حمام السوق الكبير للرجال، والواقع إلى الجهة اليسرى من السوق، في زقاق يربط السوق الكبير بالشارع المؤدي إلى محلة الجاي، خرجوا هم أيضاً إلى الشارع، شادّين الأزر الحمراء على أوساطهم، وفي أيدي بعضهم «استكانات» الدارسين، التي تحتسى بعد أكل البرتقال في الحمام، لتقديم آيات الاحترام إلى الشيوخ الذين تناهت أخبارهم إلى كل مكان في المدينة. واجتازت العربات الثلاث الجسر الحجري

الضيق، منحدرة نحو الصوب الآخر من المدينة. بعد ما يقرب من نصف ساعة، كانت العربات تقف أمام بيت المتصرف، الذي كان يحرسه شرطي، يجلس في الحديقة على كرسي خشبي، ويرتدي سروالاً قصيراً من الخاكي، يهبط إلى ما تحت الركبة، وقد وضع بندقيته على العشب. نهض الشرطي، مستغربا، وهو يرى الرجال يهبطون من العربة، بينما تولى الحوذيون إنزال الهدايا التي يحملها الوفد، والمكونة من صفائح دهن ودبس وراشي وأكياس سكر وصناديق شاي. ونادى خضر موسى الشرطي: «تعال وساعدنا في الحمل». وخرج رجل آخر من البيت، كان من الواضح أنه من الخدم، بينما هرع البستاني الذي كان يعمل في الحديقة الخارجية الواقعة أمام البيت، وحملوا الهدايا إلى الداخل مع الحوذيين. وعاد الخادم إلى الشيوخ الأربعة الذين ظلوا ينتظرون في الحديقة، طالباً إليهم الدخول، حيث قادهم إلى غرفة الضيوف، وقدّم لهم عصير البرتقال. كان الرجال الجالسون ينتظرون ظهور المتصرف في أية لحظة. وراح خضر موسى يستجمع في رأسه أفكاره، بل وحتى الجمل التي ينبغي قولها للمتصرف. ولكن غياب المتصرف طال، حتى شعر الرجال بالقلق. وأخيراً، عاد الخادم، ليعلن، بأسف، أن المتصرف اضطر إلى السفر إلى بغداد في صباح اليوم عينه، وأن «المدام» تشكرهم على هداياهم، وأنه يمكن لهم أن يبلغوه بما يشاؤون، لينقله إلى المتصرف عندما يعود. وقد أدرك الرجال، بالفطرة، أن المقصود بـ «المدام» هي زوجة المتصرف، حاسبين أن الخادم أخطأ في اللفظ، حيث تطلق مدينة كركوك لقب «مدامة»، في العادة، على كل سيدة سافرة، تنتعل حذاء ذا كعب عال. رغم أن غياب المتصرف أزعج الرجال، بصورة ما، إلاّ أن خضر موسى أنقذ الموقف، عندما قال: «ما من شيء مستعجل. بلغّه فقط تحيات محلة جقور، عندما يعود». وهكذا، خرج

الرجال، وقد انتابتهم الحيرة مرة أخرى، وسقطوا في اليأس. ولكن خضر موسى باغتهم، وأعاد الأمل إلى قلوبهم، عندما قال: «يبدو أنه لم يبق أمامنا بد من الاتصال بالملك نفسه». ووافقه الملّا زين العابدين القادري، الذي قال، كما لو أنه يتفوه بحكمة: «من الأفضل دائماً أن يتجه المرء إلى الرأس، بدل التوسل إلى الأذناب». وهكذا، اتجه الرجال، هذه المرة، داخل العربة التي ظلت تنتظرهم، قاصدين دائرة البريد، الواقعة على ضفة نهر خاصة صو، مقابل حديقة العلمين، لمخابرة الملك، بينما ظلت العربتان الأخريان، تتبعان العربة الأولى، دون هدف واضح.

إرتعب موظف البريد، وهو شاب في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، كان قد نقل من قضاء طوزخورماتو إلى كركوك قبل حوالي ستة أشهر، عندما تقدم منه خضر موسى وسأله بلهجة ودية: «هل لك أن تطلب قصر الزهور في بغداد؟ أريد أن أتحدث إلى الملك». ظل الشاب يحدّق في خضر موسى، فاغراً فمه، كأنه يطلب المزيد من التوضيح. فقال له خضر موسى: «يمكنني أن أحدثك باللغة التركمانية إذا كنت تجهل العربية. لقد قلت إنني أريد مخابرة الملك». فهز الشاب رأسه، قائلاً: «لحظة، رجاءً». ثم نهض ودخل غرفة جانبية اختفى فيها بضع دقائق، حيث عاد بصحبة رجل بدين، يضع فوق عينيه نظارات طبية سميكة. وعرّف خضر موسى بنفسه: «إنني خضر موسى، حامل وسام الرافدين من الدرجة الثانية». فمد الرجل يده، وصافح شيوخ محلة جقور، الواحد بعد الآخر، ودعاهم للجلوس في غرفته. ولما لم تكن هناك كراس كافية، فقد طلب إلى خضر موسى أن يجلس على كرسيه وراء المنضدة، مكتفياً هو بالجلوس على طاولة صغيرة للشاي، بعد أن غطاها بنسخة من جريدة النهضة، التي كانت موضوعة أمامه على المكتب. وقال الرجل، مرحباً: «انه لشرف كبير لنا أن يزورنا

رجال في مثل مقامكم». فقاطعه الحاج أحمد الصابونجي: «جزاك الله كل خير». قال الرجل: «إننا لا نملك رقم التلفون السري، الخاص بالملك، مع الأسف. ولكن تلفون قصر الزهور موجود، بالتأكيد، في الدفتر الخاص بنا». فانفرجت أسارير الملّا زين العابدين القادري، الذي قال: «ما الفارق؟ ان الملك يسكن في قصر الزهور، وهو أمر يعرفه الجميع». وغمغم الرجل: «هذا صحيح». ثم نهض ورفع سماعة الهاتف، الذي كان موجوداً أمامه على المكتب، طالباً إلى عامل البدالة الإتصال بقصر الزهور في بغداد.

بعد قليل، رن جرس الهاتف، فرفعه موظف البريد واستمع إلى شيء ما، ثم قدَّم السماعة إلى خضر موسى، قائلاً: «هذا قصر الزهور، هيا تكلم». شعر خضر موسى بحرج شديد. كان قلبه ينبض بقوة، وقد تدفق الدم إلى رأسه. ولم يعد يعرف ما يقول. كان يرفع السماعة، بدون أن يلصقها بأذنه، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها بالهاتف. وخيم الصمت على شيوخ محلة جقور، حتى لكأن على رؤوسهم الطير، منتظرين ما سيقوله خضر موسى في هذه المكالمة التاريخية. ونهض موظف البريد، ضاغطاً على يد خضر موسى برقة وهو يقول: «قرب السماعة أكثر إلى أذنك». وفي تلك اللحظة سمع الرجال الجالسون المرهوبون خضر موسى يفتح فمه ويقول: «السلام عليكم، مَنْ يتكلم؟ حضرة الملك فيصل الثاني؟» مرت لحظات صمت، قال بعدها خضر موسى، الذي بدأ العرق يسيل من وجهه: «أنا خضر موسى، الحائز على وسام الرافدين من الدرجة الثانية، إنني أتحدث من كركوك». وانفرجت أسارير خضر موسى دفعة واحدة، حيث أطلق ضحكة مجاملة: «أنت تعرفني إذاً. أجل أنا الرجل الذي طار في منطاد من روسيا إلى العراق». ومرت لحظات صمت، كان خضر موسى يستمع فيها إلى المتحدث في الطرف

الآخر، قال بعدها: «هناك وفد من أعيان مدينة كركوك يريد أن يتشرف بمقابلة جلالة الملك فيصل الثاني، حفظه الله ليقدِّم له ولاء الطاعة». وأصغى مرة أخرى بانتباه، ثم قال: «مناسب جداً، يوم الخميس القادم، الساعة العاشرة صباحاً. سنكون هناك بإذن الله. بلغ سلامي إلى جلالة الملك، وكذلك سلام الملّا زين العابدين القادري والحاج أحمد الصابونجي والمختار سلمان حنش. جزاكم الله خيراً، مع السلامة». وهكذا، انتهت هذه المكالمة التي ظل سكان كركوك يتحدثون عنها، بفخر واعتزاز، حتى مقتل الملك في الثورة، التي قادها العقيد الركن عبد الكريم قاسم، بعد ذلك بسنوات كثيرة.

لم يكن الرجل الذي تحدث مع خضر موسى من قصر الزهور في بغداد هو الملك، ولكنه كان، بالتأكيد، واحداً من العائلة الملكية، كما قال الملّا زين العابدين القادري. فقد عرف الرجل خضر موسى منذ اللحظة الأولى، بل انه مازحه، قائلاً: «أما خفت أن تسقط من المنطاد؟ لقد أعجب صاحب الجلالة وسمو الأمير كثيراً بمغامرتك». وبصورة ما، كان الملّا زين العابدين القادري على حق، إذ لا بد أن يكون الرجل من أقرب المقربين إلى الملك، ليعرف أن الملك فيصل والوصي عبد الإله معجبان بشجاعة خضر موسى. وقال المختار سلمان حنش، الذي شعر بالزهو وهو يسمع خضر موسى يذكر إسمه، لإبلاغ تحياته إلى الملك: «ربما كان المتحدث هو الباشا». ولكن خضر موسى استنكر هذه الفكرة، مؤكدا، أنه لو كان المتحدث هو نوري السعيد لتحدث معه، بالتأكيد، باللغة التركية التي يتقنها. وقد لام خضر موسى نفسه، علناً، أمام الآخرين، لأنه نسي أن يسأل الرجل عن اسمه. ولكن الحاج أحمد الصابونجي، الذي اختلط بالكثيرين من علية القوم، اعترض عليه، قائلاً: «حسناً فعلت، ما كان من اللائق أن تسأل الرجل عن اسمه، فهو يمثل الملك، وحديثك معه

هو مثل حديثك مع الملك نفسه». نادى خضر موسى موظف البريد، قائلاً: «كم هي أجرة التليفون يا بني؟» اعترض موظف البريد، قائلاً: «لا يمكن أبداً، إنها على حسابي». فقال له الملّا زين العابدين القادري، بحزم: «لا يصح ذلك يا بني، فأنت تجلس على باب الله». رد الموظف، بخجل: «إنه مبلغ تافه. ثلاثة دراهم. ما قيمة ذلك!» وتدخل الحاج أحمد الصابونجي مرة أخرى، مانعاً خضر موسى من مد يده إلى جيبه، واضعاً في الوقت نفسه ورقة نقدية صغيرة في يد موظف البريد، كان من الواضح أنها ورقة ربع دينار. وخرج الرجال الأربعة مرة أخرى، حيث كان الحوذيون الثلاثة ينتظرونهم أمام عرباتهم. واقترح الملّا زين العابدين القادري أن يتجهوا إلى مقهى الحاج أحمد آغا، لاحتساء «استكان» من الشاي «السنكين» بعد يوم ناجح من العمل، وللإلتقاء بوجهاء القورية، الذين يجلسون هناك، عادة، ويدخنون النرجيلة. وهكذا، صعدوا جميعاً، مرة أخرى، إلى العربة الأولى، التي راح الحوذي يستحث حصانيها بمهمازه الطويل، ذي القبضة الخشبية، وتبعتها العربتان الأخريان أيضاً، قاصدين جميعاً مقهى الحاج أحمد آغا. ولما لم يكن هناك الكثير الذي يمكن عمله في المقهى، إذ اتضح أن وجهاء المدينة يقصدون المقهى، عادة، في العصر، أمضى الرجال حوالى الساعة هناك، شرب خلالها كل واحد منهم «استكانين» من الشاي، كما لعب خضر موسى الطاولي مع الحاج أحمد الصابونجي الذي غلبه. واقترح الملّا زين العابدين القادري العودة إلى محلة جقور: «ينبغي لنا أن نوصل بشرى مخابرة الملك إلى أهلنا في جقور». وهكذا، سار موكب العربات الثلاث، قاطعاً شارع الأوقاف، باتجاه الجسر الحجري. ولكن ما كادت العربات الثلاث تنحدر بمحاذاة القلعة، نحو السوق الكبير، حتى بوغت الشيوخ الأربعة بما لم يكونوا يتوقعونه. فقد اصطف الرجال

العاملون في السوق والنساء الخارجات للتسوق، واللواتي يرتدين العباءات السود ويضعن على وجوههن براقع «البوشي»، والأطفال الذين خرجوا بدشداشاتهم الوسخة. اصطفوا جميعاً على جانبي الشارع وراحوا يصفقون للرجال الأربعة، الذين كانوا يردون على تحياتهم برفع الأيدي. وألح الشيوخ الثلاثة على خضر موسى أن يقف، على الأقل، حتى يراه الناس الذين يحبونه. ثم قال الملّا زين العابدين القادري: «ربما كان من الأفضل أن تجلس جنب الحوذي». وتسلق خضر موسى الحاجز، ساحباً وراءه ذيل «زبونه» المخطط، وجلس قرب الحوذي، رافعاً يديه إلى الأعلى، محيياً أبناء مدينته الأوفياء. وقد تأثر كثيراً لهذا المشهد، دون أن يفطن حتى للدموع التي ملأت عينيه.

شهدت محلة جقور عيداً حقيقياً، حيث نحرت الذبائح ووزع الأغنياء الصدقات على الفقراء. ولم يعرف خضر موسى والرجال الثلاثة، الذين كانوا معه، كيف عرفت المدينة كلها باتصاله الهاتفي بقصر الزهور، بعد ساعة أو ساعتين فقط من تلك المكالمة الهاتفية التاريخية. في الواقع، إن الحوذيين الثلاثة نقلوا الخبر إلى المارّة، حال دخول خضر موسى والرجال الآخرين إلى دائرة البريد. وعندما وصل الخبر إلى غازي دعاية، وهو شاب يتولى الإعلان عن الأفلام التي تعرضها سينما العلمين، بطريقة جذابة؛ إذ كان يسير أمام لوح ألصقت عليه صورة كبيرة من الفيلم ويقدّم بنفسه المشاهد بصوت عال، يسمعه المارة حتى في الشوارع الأخرى: «أقوى بطل في العالم. معارك بالأيدي. القوس والسهم. حرب القراصنة. طرزان ملك الغابة يصارع الأسد ويشطره نصفين. سوبرمان يعود ثانية»، رأى أن يستغل هذه الفرصة أيضاً، لاجتذاب أنظار الجمهور، فأضاف مكالمة خضر موسى مع قصر الزهور إلى دعايته للفيلم الذي يعلن عنه:

«انتباه، انتباه، آخر خبر: ابن كركوك البار، خضر موسى، اتصل بالملك فيصل الثاني. بعد التحية، قال له الملك: انه لشرف كبير لي أن يزورني رجل عظيم مثلك. ليعش خضر موسى. فاتن حمامة في أروع فيلم لها حتى الآن. سامية جمال، ملكة الرقص الشرقي، تخلب الألباب بلوحاتها الرائعة. دعوة من جلالة الملك فيصل الثاني إلى خضر موسى لحضور عيد التتويج». وهكذا انتشر الخبر حتى قبل أن يكمل خضر موسى مكالمته مع قصر الزهور.

هذه المكالمة أحدثت وقعاً شديداً، ليس في محلة جقور وحدها، وإنما في مدينة كركوك كلها. فقد كان الشعور بالفرح شاملاً بين الناس، وخاصة في أوساط «الملالي» الذين كرس الكثيرون منهم خطبة يوم الجمعة للإشادة بالاهتمام الملكي في الدفاع عن حرمة مقابر المسلمين، ذاكرين اسم خضر موسى بعد الملك والمتصرف مباشرة. ولكن كان ثمة آخرون أيضاً يتوجسون شراً، ولا يتوقعون خيراً من أحد، حتى من الملك نفسه. فالملك لا يزال في نظرهم شاباً، في مقتبل العمر، يسيطر عليه خاله، المتواطىء مع الإنكليز، ويقوده نوري السعيد، الذي كانوا يعتبرونه، سواء عن حق أو عن غير حق، رجل الانكليز الأول في العراق. لقد واجه خضر موسى، في الحقيقة، مشاكل كثيرة، كان عليه أن يحلها بحكمته وأناته اللتين عرف بهما، وقبل كل شيء بمعرفته الفطرية بطبيعة البشر وطريقة التعامل معهم. كان يعرف أن أية حركة مخطئة يقدِم عليها أحد ما، يمكن أن تنسف كل شيء.

فقد أثار الشيوعيون ضجة مفتعلة، مدّعين أن محلة واحدة لا يمكن أن تمثل المدينة كلها. وأشاعوا أن الوفد يقتصر على العرب والتركمان وحدهم، ولا يضم حتى كردياً واحداً، وهو إغفال مقصود لدور الأكراد، الذين أكدوا حقهم في القيادة، معتبرين كركوك جزءاً من

كردستان العراق، وهو أمر استنكره التركمان، الذين يعتبرون كركوك وطنهم القومي، بل ان شاكر أفندي الذي كان يصدر جريدة محلية، باللغتين العربية والتركمانية، تعمد كتابة مقالة افتتاحية، يؤكد فيها الطابع التركماني لمدينة كركوك، منذ أكثر من ألف عام. وعل إثر ذلك أيضاً قررت العوائل التركية العريقة في المدينة مفاتحة خضر موسى في أن يضم وفده إلى الملك الوجهاء الحقيقيين في المدينة، لا كل من هب ودب، من أمثال الملّا زين العابدين القادري والمختار سلمان حنش، الذي هو في الواقع مخبر سري. ولكن هذا لم يكن كل ما في الأمر. فقد انتقلت العدوى حتى إلى محلى جقور، حيث علم خضر موسى أن الشبان الرياضيين، وربما بتحريض من حميد نايلون وفاروق شامل، قد اجتمعوا في الزورخانة، وقرروا تشكيل عصابة، أطلقوا عليها اسم العمالقة، مهمتها منع البلدية، بالقوة، من شق الطريق عبر مقبرة المصلّى، بعد أن أقسموا، واضعين أيديهم على القرآن الكريم، على الإخلاص والتفاني في الدفاع عن كرامة آبائهم وأجدادهم.

وبينما كان الجميع منهمكين في تدبير الدسائس والمؤامرات، متخذين من شق طريق المقبرة والسفر إلى بغداد لمقابلة الملك ذريعة للحصول على أي مغنم، حتى إذا كان مغنماً معنوياً، غادر خضر موسى منزله، ملقياً فوق كتفيه فروة من وبر الإبل، مزركشة باللونين الأزرق والأحمر، كان قد أهداه إياها شيخ عشيرة الجبوريين، التي ينتمي إليها، على الرغم من أن الشتاء كان في نهايته ولم يكن الطقس بارداً، ولكنه كان قد اعتاد أن يفعل ذلك، كلما أراد الإختلاء بنفسه، منذ عودته من روسيا. كانت الأفكار تتضارب وتتقاطع في رأسه، وهو يقطع شارع بيريادي، باتجاه وادي حصان آدم، الذي يقال إن آدم هبط إليه، وهو على حصانه، قادماً من الجنة. ومرّ، في طريقه، بالمدبغة، المفتوحة على الطريق، فزكمته رائحتها النتنة، التي كان قد اعتادها في

الماضي، وهو يحمل جلود أغنامه على ظهره، ليقبض ربع دينار عن جلد الخروف الصغير، وأكثر من ذلك عن جلد النعجة. ولم يكن في مزاج يجعله يمر على أصحابه القدامى، ليسلم عليهم. ولكن أحدهم تعرف عليه، فناداه، من بعيد: «لم تعد تجلب لنا الجلود يا خضر. هل هربت منك خرافك؟» فرد خضر موسى، من بعيد: «بل أنا الذي هربت، لم تعد يدي تطاوعني على حمل السكين». وسار مخترقاً ممراً داخل حقل من الخيار، حيث انحنى وقطف خيارة، مسحها بكمه، قبل أن يقضمها. وما كاد يصل بستاناً للخس حتى رجع مرة أخرى إلى الطريق الترابية، ليتجنب الخراء الذي يحمله «نزاحو» المدينة إلى بساتين الخس، حيث يقبضون من أصحابها عشرة فلوس عن كل برميل. ورأى خضر موسى نفسه خارج المدينة في منطقة الحجارين، الذين يقتطعون الكتل الحجرية من الأرض الصخرية، حاملينها على حميرهم إلى المدينة، التي كانت تستخدمها في بناء البيوت. وكان الحجارون يتركون وراءهم حفراً كبيرة، تمتلىء بمياه الأمطار، فتتحول إلى برك خطرة، يسبح فيها أطفال الأحياء القريبة في الأيام القائظة؛ إذ ما كان يمر صيف بدون أن يغرق طفل أو طفلان. وكان الحجارون، المعروفون بشذوذهم الجنسي، يقفون فوق الصخور الناتئة، محاولين استمالة أنضر الأطفال إليهم. ولكن لم يكن ثمة أحد هذه المرة سوى بضعة حجارين، يضربون بمعاولهم الصخور في الطرف الآخر. كان، وهو يرتقي الطريق الصخرية، مبصراً الفزاعات في الحقول الواقعة على منحدر وادي حصان آدم والغربان المتناثرة فوق الصخور، يفكر في مخرج من المأزق الذي وجد نفسه غارقاً فيه. كان في إمكانه أن يختار مَنْ يأخذهم معه لزيارة الملك. ولكنه كان يعرف أن ذلك يمكن أن يعرضه لسخط وجهاء المدينة، الذين كان يشعر باحترام خاص تجاههم، وهو سخط ما كان يريده بالتأكيد. وكان

خائفاً، في الوقت نفسه، من أن يلجأ شبان المدينة المتحمسون إلى العنف في مواجهة عمال البلدية، أو حتى الاصطدام مع الشرطة، مما سيحرج موقفه أمام الدولة التي أولته ثقتها. ولكن ما كان يقلقه أكثر، هو أن يرفض الملك مسعاه أو أن يهمله ببساطة. وكان يعرف، بحكم خبرته الطويلة ومعرفته بحقائق الحياة، أن ذلك ليس مستحيلاً. وانتهى به السير إلى شجرة تين، أمام مغارة واقعة على سفح الهضبة. فنزع فروته، المصنوعة من وبر الإبل، وفرشها على الأرض وجلس، متربعاً، عليها، بعد أن نزع حذاءه وركنه جانباً، حيث راح يحدّق في الورود البرية، النامية بين شقوق الصخور، مؤذنة بالقدوم المبكر للربيع.

رفع خضر موسى رأسه وحدّق في السماء الزرقاء، التي كانت تبقعها غيوم بيضاء هاربة في الريح. وكانت ثمة طيور ترتفع ببطء، مرفرقة بأجنحتها، ثم تسكن، عالياً، لحظات، تنحدر بعدها إلى سهوب يكسوها العشب وتمتد حتى الأفق. وتذكر خضر موسى تاريخه، كل هذا السقوط، كل هذا الصعود، الفقر والغنى، الذل والمجد: «إنها الدنيا يا خضر بن موسى، إنها الدنيا، فلا تغرنك منها ضحكتها الغادرة». أحنى رأسه، ممسكاً صدغيه بكفه اليمنى، وأغمض عينيه، متأملاً في اللاشيء، في الظلام المحيط به، في الظلام الذي لا اسم له وانتابته نوبة حادة من البكاء. كان يبكي على نفسه، وربما على الدنيا: «إبك يا خضر بن موسى، إبك على نفسك». وراح يشهق، بفعل عواطف وذكريات تعصف به من كل الماضي الذي يعرفه، ممتلئاً بسلام جديد مع نفسه، متذكراً أقوال جده، الذي كان يحضنه، وهو طفل صغير، قائلاً له: «إبك يا خضر، فالدموع تغسل النفس». كان يبكي داخل نفسه، المخدرة برائحة الربيع، الهابط فوق الهضبة، عندما شعر بيد تربت على كتفه وصوت أجش يقول: «هيا

انهض يا بني، وكن ضيفي في مغارتي هذه». وجفل الغنام، الذي ما كان يتوقع أحداً، فرفع رأسه، ملقياً نظرة على من حرمه من بكائه، قائلاً: «لم أعرف أن أحداً يسكن هنا». وردّ الرجل العجوز، الخارج من المغارة بلحيته الكثيفة وثوبه الأسود والطاقية الحمراء، التي يضعها فوق رأسه والقبقاب، الذي ينتعله: «هذه مغارة الله المفتوحة لمخلوقاته كلها». ودخل العجوز إلى المغارة، يتبعه خضر موسى الذي كان قد بوغت بالأمر، بدون أن يمتلك فرصة الاعتذار. كان المدخل فجوة بين صخرتين، تمتد قليلاً، ثم تنفتح على بهو واسع من الرخام، في وسطه حوض ونافورة ماء تتدفق. قال رجل المعارة، بنبرة لا تخلو من حنان: «كنت أتوضأ، إذ سمعتك تبكي. حسناً فعلت يا خضر، فالدموع تغسل النفس». واستغرب خضر موسى، قائلاً: «أنت تعرف إسمي أيضاً». ردّ الرجل العجوز بشيء من الرصانة: «أجل يا خضر، وقد بلغني أنك ذاهب لزيارة الملك وفي حيرة من أمرك. لا تهتم يا خضر، سوف نجد حلاً لمشكلتك!» قال خضر موسى، وقد استبدت به الحيرة: «لو لم أكن مؤمناً لاعتقدت أنك الله». أطرق الدرويش العجوز برأسه طويلاً نحو الأرض، حتى حسب خضر أنه لا يريد البوح باسمه. ثم رفع رأسه وحدّق في الغنام القديم بعينين اتقدتا فجأة، وقال: «بل أنا الموت يا خضر». انتابت خضر موسى رجفة، هزت جسمه كله، ولكنه تمالك نفسه، وقال، كما لو أنه يخاطب نفسه: «هذا هو الموت إذاً. ما كنت أحسبه بمثل هذا اللطف». فقهقه العجوز الذي يُدعى الموت، حتى ظهرت أسنانه الاصطناعية التي تبيّنها خضر موسى جيداً، فداخلته الريبة من أن تكون للموت أسنان اصطناعية. وفطن الرجل إلى ما يقلق خضر موسى، فقال له، ممازحاً: «أظننت أن الزمن لا يؤثر فيَّ. حتى أنا أهرم يا خضر». وهز خضر موسى رأسه مرة أخرى: «هذا هو الموت إذاً. مغارة يدخلها

المرء صدفة». قال الموت: «الموت شيء آخر تماماً يا خضر. اطمئن، فأنت ما زلت في مدخل المغارة، ولسوف ترجع إلى أهلك». ثم نهض وأمسك، برفق، بكتف خضر موسى، الذي ما عاد يعرف شيئاً، قائلاً: «تعال انظر إلى الموت إذا كنت تريد ذلك». كانت ثمة فتحة من زجاج رقيق في جدار المغارة، يتدفق عبرها الضوء الذي كان يُسقط ظلاله على المكان. ألقى الرجل العجوز نظرة خاطفة، عبر الفتحة، ثم انسحب، قائلاً: «هيا انظر فقد تتعلم شيئاً مما ترى». شعر خضر موسى بقلبه يضطرب، ولكنه تقدّم، ملقياً نظرة على المملكة الأخرى، المملكة التي سوف يقصدها، هو الآخر، ذات يوم. وأذهله ما رأى. كانت جموع لا تحصى من الرجال والنساء والأطفال تتدافع بالمناكب، فوق جسر لا نهاية له، وجوه شاحبة وحزينة، وصراخ لا صوت له. تراجع، وسأل رجل المغارة: «ترى إلى أين تذهب كل هذه الجموع الغفيرة؟» ابتسم الموت، وقال: «هذا هو السؤال الذي لا أعرف حتى أنا جوابه». نظر خضر موسى، عبر الفتحة، مرة أخرى، ثم قال: «يا إلهي إنهم ليسوا سعداء. لا يبدو أنهم سعداء أبداً».

كان خضر موسى قد اتكأ على جدار المغارة المقوس، طافياً فوق موجة غير مرئية، تضرب أغوار نفسه. وبدا، في الضوء الشاحب المتسلل إلى الداخل وكأنه رجل من عالم آخر. فتركه الرجل العجوز، الذي كان قبقابه يطقطق فوق المرمر، أثناء سيره، يلتقط أنفاسه، بعد أن ألقى نظرة على ما لم يره إنسان من قبل، مفكراً أن ذلك، ربما كان أكثر مما تحتمله أعصاب رجل، عرف أنه سيسير هو الآخر، ذات يوم، على ذلك الجسر الذي لا نهاية له. ولما ظل خضر مغمض العينين، ساهياً عما يدور حوله، ناداه الموت بصوت، جاهد أن يكون رقيقاً، ففتح خضر موسى عينيه الفاحمتين، وتطلع في وجه الرجل الذي خلا من أي تعبير، ثم انفرجت شفتاه المصفرّتان: «قل

لي ما الذي تريده مني إذا لم تكن ساعتي قد دنت!» صمت الموت برهة قبل أن يقول: «لاشيء، لا شيء بالتأكيد». ثم نظر إليه، مثل من يريد أن يذكره بأمر كان قد نسيه: «إعتقدت أنك قد تحتاجني». لم يحِر خضر موسى جواباً، إذ لم يكن يعرف كيف يمكن أن يحتاج هو الموت. وبدا الموت بلحيته الكثة، السوداء، التي خالطها البياض، وقامته الضامرة، محرجاً جداً وهو يعرض عليه بأدب أن يضمه هو الآخر إلى الوفد الذاهب إلى بغداد لزيارة الملك. ولم يجد خضر موسى الذي بوغت بهذا الطلب الغريب، والذي كاد يدفعه إلى الضحك، بدأ من أن يسأله، من دون أن تفارق الابتسامة عينيه: «ولكن لماذا؟ أي مجد يعوزك حتى تطلب لقاء الملك؟» قال الموت، الذي بدا متفهماً لاعتراض خضر موسى: «لقد تعلمت ألا أؤمن بالمجد. كل مجد هو إلى زوال، وهم وقبض ريح». كان هذا الرجل، الذي يسمي نفسه الموت، قد أثار إعجاب خضر موسى، بهدوئه وتواضعه وحكمته وأطواره الغريبة، ولكنه جاهد في داخله ألا يستسلم أمامه. فإذا كان هذا الساكن في المغارة يمثل الفناء، فهو يمثل البقاء. ينبغي أن يكون نداً له، ما دام حيا على الأقل. قال الموت: «إنني أحق من غيري في أن أكون في وفدك. لا تنسَ أن الأمر يخص الأموات قبل الأحياء. من حق الأموات أيضاً أن يقولوا رأيهم. أليس كذلك؟» التمع برق خاطف داخل رأس خضر موسى، الذي بهرته الفكرة، وشعر أنه على حق. مد يده، وصافحه، بإخلاص: «يشرفني أيها السيد الموت أن تنضم إلى وفدي المتواضع». ثم اتجه نحو مدخل المغارة، ليخرج، ولكنه استدار فجأة، كمن تذكر شيئاً، وسأل: «هل ينبغي أن أبحث عنك هنا، عندما أريدك؟» ردّ الموت: «لن تعثر على هذه المغارة ثانية. ستجدني حيثما أردتني. ولكن لا تقل ما رأيته لأحد، فالناس تؤمن بالأوهام والخرافات أكثر مما تؤمن

بالحقائق الظاهرة!» فردّ خضر موسى، كما لو أنه يقرّ قاعدة راسخة: «هناك أسرار، يحتفظ بها المرء لنفسه إلى الأبد. أنت تعرف ذلك بالتأكيد». وغادر خضر موسى المغارة، حيث بهرته الحياة التي شعر كما لو أنه يراها لأول مرة، في الصخور التي نمت فوقها الطحالب الخضراء وفي الأصوات المختلطة، القادمة من بعيد، وفي الرهبة التي كانت في قلبه. وانحدر مرة أخرة إلى الوادي المنبسط، المنحدر باتجاه المدينة، مفزعاً اليمامات البرية، التي كانت تحلّق مبتعدة، وهو يقترب منها. وسمع هديراً في الجو، فرفع رأسه، بتلقائية، محدّقاً في الطيور التي كانت تفر أمام طائرة هليكوبتر، محلّقة باتجاه المدينة. كان يريد نسيان كل ما رآه، وهو يعود إلى محلة جقور، ولكن منظر الأموات المتزاحمين على الجسر الممتد، ربما حتى الأبدية، كان ما زال عالقاً في ذهنه، لا يفارقه. وبدا له أنه رأى في تلك الزحمة الشديدة، وعَبْر كل تلك المسافة التي كانت تفصله عنهم، وجوهاً تعرّف عليها في حياته، ولكنه لم يكن متأكداً؛ «مثلما يتشابه الأحياء، كذلك الأموات». وشعر أنه لا يزال يسمع ذلك العويل، الخافت الرتيب، الذي كان يهز عظام جمجمته، آتياً من مملكة الأموات، كما لو أنه نداء صفارة إنذار أو موسيقى مكتومة بعيدة، تعزف خارج الزمن. التفت إلى الوراء، ليلقي نظرة أخيرة على المغارة التي رأى فيها الموت، ربما ليطمئن نفسه إلى أن ما رأته عيناه لم يكن حلماً. كانت المغارة تحترق. ثم سمع انفجاراً، اهتزت له الأرض تحت قدميه، ورأى الصخور ترتفع في الجو، ثم تختفي بين الغيوم البيض. ورفع الحجارون، الذين يعملون في الطرف الآخر من الوادي، رؤوسهم، متطلعين إلى الإنفجار الذي باغتهم، ثم عادوا إلى العمل مرة أخرى، معتقدين أن حجارين آخرين قاموا بهذا التفجير الذي ما كان غريباً عليهم. وكان ثمة خيط دقيق يشد خضر موسى إلى الحياة،

وهو يرى المغارة تنهدم، وتختفي فجأة، مثل كل الأشياء الأخرى التي يعثر عليها المرء ويفقدها، مثل الحياة نفسها. وكان في قلبه ما بدا له أكبر من الحياة نفسها: سرها الذي رآه في وجه رجل المغارة، ذلك البهلول الذي يُدعى الموت. لم يكن ما داخله هو الخوف من الموت وإنما هو الرهبة من حضوره، ولكنه شعر بقوة لا تفسير لها، عبر اقترابه من الموت، الذي سيكون واحداً من أفراد وفده الذاهب إلى الملك.

وهكذا، عاد خضر موسى إلى محلة جقور، دون أن يتوصل نهائياً إلى تسمية الذاهبين معه إلى البلاط الملكي. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد رأى، في عصر اليوم عينه، وهو يجلس في المقهى القريب من «ناقشلي مناره سي» صورة على الجدار لرجل مهيب الطلعة، ذي شعر كثيف ولحية، تذكر المرء بالقديسين. وعندما سأل عنه الملّا زين العابدين القادري، الذي كان يجلس لصقه على التخت، ابتسم الملّا قائلاً: «انه أعظم شاعر أنجبته كركوك حتى الآن. هذا هو دده هجري الكبير». وراح الملّا زين العابدين القادري يقرأ مقاطع من شعره، المنظوم باللغة التركمانية، حتى شعر خضر موسى أن روحه تحلّق في سماء أخرى، لا تقطنها سوى الملائكة، فقال متحمسا: «أعتقد أنه ينبغي علينا أن نضمه إلى وفدنا». وأجاب الملّا، بعد تردد قصير: «إنها فكرة جيدة، ولكنني لا أعرف إن كان الرجل لا يزال على قيد الحياة». حينذاك تدخل آخرون، كانوا يجلسون على مقربة منهما: «بل انه حي ومعافى، حيث يخرج كل يوم إلى البساتين القريبة، وينظم الشعر في الطيور والأشجار». وتبرع بعضهم: «هل تريدون أن نجلبه إلى المقهى؟ انه يسكن في القلعة». وهكذا، أصبح دده هجري الكبير واحداً من الوفد، الذي انضم إليه بعد ذلك المجنون دلي إحسان، وذلك بسبب إلحاحات والدته

العجوز، التي وقفت في محلة جقور تشهّر بأعضاء الوفد، مؤكدة، أن للملائكة أيضاً الحق في تقبيل يد الملك. وكانت تعني بذلك، بالطبع، ابنها دلي إحسان، أما الشيوعيون، الذين قال خضر موسى عنهم، إنهم لا يتقنون سوى فن الضجيج الفارغ، فقد وافقوا على أن يمثلهم حميد نايلون، ولكن بدون إعلان ذلك، بصفته سائقاً للسيارة التي سوف تقل الوفد إلى بغداد. كما فرض فتح الله إسماعيل، مدير أمن كركوك، نفسه على الوفد في اللحظة الأخيرة، بدعوى حرص الحكومة على ضمان أمن الوفد وكان خضر موسى قد وافق، قبل ذلك، على وفود أخرى، يختارها التركمان والأكراد والعرب والآشوريون بأنفسهم، بالإضافة إلى وفد محلة جقور والوفد الخاص الذي اختاره هو بنفسه، على أن تلتقي الوفود كلها، قبل نصف ساعة من الموعد، أمام قصر الزهور، وتقابل الملك، ممثلة مدينة كركوك كلها.

وخرجت السيارات، قبل يوم من الموعد، متوجهة إلى العاصمة، التي يحكم منها الملك العراق. سارت في المقدمة سيارة حميد نايلون، الذي رفع العلم العراقي عليها، حيث جلس إلى جنبه خضر موسى، الذي أعطي موضع الصدارة. بينما انحشر مدير الأمن فتح الله إسماعيل، الذي كان يحاول إضفاء أهمية خاصة على نفسه، بين خضر موسى وحميد نايلون، وقد أخرج مسدسه مرة أو مرتين، للتباهي، ولكن خضر موسى نهاه عن ذلك، قائلاً: «اخف مسدسك. لن يتعرض أحد بسوء لوفد مثل وفدنا». وفي المقعد الخلفي، جلس كل من الموت، الذي أطلق على نفسه، للتمويه، اسم درويش بهلول؛ وهو أمر اعتبره حميد نايلون مادة للتندّر والسخرية، طوال الطريق، ولكن دون أن يزعج ذلك الموت، الذي كان يشف عن ابتسامة ماكرة، بين الحين والآخر، قائلاً: «لا شيء أفضل من الضحك في

هذه الحياة». ودلي إحسان الذي ظل صامتاً، كعادته، متأملاً الفراغ الهائل، الممتد على مدى البصر. وبينهما جلس الشاعر دده هجري مثل قديس هابط من الجبل.

ووراء هذه السيارة، انطلقت السيارات الأخرى، التي حملت وجهاء محلة جقور ومدينة كركوك، الذين شعروا بزهو خاص، لكونهم اختيروا ممثلين لطوائفهم أمام الملك، الذي كانوا يكنّون له محبة لا تشوبها شائبة. وكانوا يدينون، ، بهذه الفرصة، لخضر موسى، الذي ما عاد أحد يشك في السلطة الكبيرة التي يمتلكها، معتبرين ذلك امتيازاً لمدينتهم، التي كانوا يريدون لها ان تحتل الموقع الذي تستحقه. كان الناس، في الحقيقة، قد خرجوا منذ الصباح الباكر، واجتمعوا على طول شارع المحطة، الذي كان يفترض أن تسلكه سيارات الوفد الذاهب إلى بغداد. فقد عطلت المدارس، وجاء المعلمون مع تلاميذهم، حاملين الأعلام العراقية، واصطفوا على جانبي الشارع. كما خرجت الفرقة الموسيقية العسكرية التي راح أفرادها، وهم ببذلاتهم العسكرية، يضربون على الطبول والصنوج، يتقدمهم عريف ضخم الحجم، أسود اللون يحمل في يده عصا ذات رأسين معدنيين، يتلاعب بها بمهارة مثيرة للإعجاب على إيقاع الموسيقى. واستبد المرح بحميد نايلون، فراح يقود سيارته، بالعكس، إلى الوراء، وسط تصفيق الجمهور وضحكه. ولم يعدل عن طريقته هذه في قيادة السيارة، التي كانت تتقدم الموكب، إلا بعد الخروج من المدينة، حيث تمتد السهوب المتموجة، المحيطة بها.

ما كاد الموكب يغادر مدينة كركوك، حتى غرق الشاعر دده هجري حزيناً، داخل نفسه، وقد استبد به قلق، لم يقدر حتى درويش بهلول على إزاحته عن صدره. ولم تعد الابتسامة إلى وجهه البرونزي، إلا بعد ولادة القصيدة، عند جبال حمرين، التي تشكل سلسلة صخرية،

تمتد من العراق إلى إيران. وعلى الرغم من كل الإلحاح الذي واجهه، فإنه رفض البوح بأي بيت من أبياتها، بدعوى الرغبة في العودة إليها ثانية، عندما يكون خارج الحالة، حتى يستطيع الحكم عليها؛ لأن الحالة قد تطغى على الشعر نفسه، فيختلط ما لا يقبل الإختلاط، وهو أمر أيده فيه دلي إحسان، الذي بدا متأثراً أكثر من غيره بكلمات دده هجري التي قال مدير أمن كركوك إنه لم يفهم أي شيء منها، بينما أشار خضر موسى إلى أنه لا يمكن للمرء أن يفهم كل شيء، إذ ثمة أمور تُدرك بالحس وحده، على العكس من كل منطق.

بلغ الموكب خان بني سعد عند الظهر. فتوقفت السيارات أمام مبنى طيني خرب، طُليت جدرانه بالجص، يقدم الطعام والشاي، وقد رُميت، أمامه وداخله، تخوت عتيقة، وُضعت فوقها حصائر من القش ومناضد خشبية طويلة، غُطيت بقطع من النايلون الذي يسهل تنظيفه. في هذا المكان القذر المفتوح على الغبار، والممتلىء بِالذباب، ألقى خضر موسى كلمة قصيرة على أعضاء وفد كركوك من التركمان والأكراد والعرب والآشوريين؛ قال فيها انه من حق أعضاء الوفد أن يستمتعوا بوقتهم في بغداد، بالطريقة التي يرغبون فيها، وربما كان لبعضهم أقارب أو أصدقاء أيضاً يريدون زيارتهم. ولذلك، فإنه يمنح الجميع حرية الحركة التي تناسبهم، ولا يطلب إليهم سوى الحضور قبل نصف ساعة من موعد الزيارة، أمام قصر الزهور، للدخول معاً على الملك. ثم دعاهم لتناول «التشريب» على حسابه، الوجبة الوحيدة التي كان يقدمها هذا المطعم للمسافرين إلى بغداد أو القادمين منها. وهي وجبة وجدها الجميع لذيذة، ولكنهم استغربوا عندما جاءهم الشاي، الذي لا بد منه بعد «التشريب»، في قنانٍ حولت إلى كؤوس، بعد شطرها من منتصفها. وقد أثار ذلك غضب خضر موسى، الذي وبخ صاحب المطعم، طالباً إليه تقديم الشاي في «استكانات». ولكن

الرجل اعتذر من أن «الاستكانات» تكلفه غالياً، وأنه لا يرى فارقاً كبيراً بين «الاستكان» وقعر القنينة؛ فالمهم هو الشاي الذي يحتسيه المرء، لا الوعاء الذي يوجد فيه. ولكن خضر موسى صرف هذا الرجل، الذي كان من الواضح أنه صورة بدائية للجشع. كان خضر موسى نفسه قد لجأ إلى أقداح قعر القنينة، ذات يوم، خلال فترة الحرب، عندما ارتفعت أسعار «الاستكانات» بصورة فاحشة، لم يكن الفقراء قادرين على دفع أثمانها. وتذكر كيف أنه كان يملأ القنينة بالنفط حتى منتصفها، ثم يضع سفوداً من حديد مسخن حتى الحمرة فوق النار، داخل القنينة. إذ ما يكاد السفود يمس النفط حتى تنفطر القنينة، عند مستوى النفط فيها. ولكن كل ذلك انتهى الآن، حتى إذا ادعى صاحب المطعم عكس ذلك.

انطلقت السيارات مرة أخرى، فبلغت بغداد بعد الظهر. كانت السيارات الأخرى قد اختفت في الشوارع، وهو أمر لم يكن يهم أحداً؛ ما دام الجميع قد اتفقوا على المكان الذي يلتقون فيه في اليوم التالي. ولم يبقَ من الموكب سوى السيارة التي يقودها حميد نايلون والسيارة الأخرى التي كان يقودها سليم عرب، الذي يعمل، في العادة، سائقاً على طريق كركوك ـ السليمانية، مُقلّة وجهاء محلة جقور.

اتجهت السيارتان نحو شارع الرشيد، ثم توقفتا في منطقة الميدان، حيث اقتاد حميد نايلون الرجال إلى فندق «وجنة النهر» الذي كان مدخله ملاصقاً لمطعم الشمس، الممتلىء بالجنود، والريفيين القادمين من كل أنحاء العراق، والموظفين الصغار، والقوادين الذين يشرفون على إدارة البغاء، في الأزقة القريبة المتفرعة من شارع الرشيد، والمخبرين الذين لا يبتعدون كثيراً عن مركز عملهم في موقف السراي، الواقع في الجانب الآخر من الشارع، وراء البيوتالتي

كانت، ذات يوم، قصوراً يسكنها كبار موظفي الدولة العثمانية. وصعد الرجال القادمون من كركوك السلالم ليجدوا أنفسهم أمام رجل في حوالي الستين من عمره، يضع فوق رأسه العقال. نهض الرجل محيّياً، وقاد الرجال الذين كان قد بقي منهم ستة فقط؛ بعد أن انسحب مدير الأمن، الذي قال إنه مضطر للسكن في بيت ابن عمه في «الفضل»؛ إذ أنهم لن يغفروا له، إذا ما اختار البقاء في الفندق. وذهب الحاج أحمد الصابونجي إلى بيت أحد أصدقائه من تجار الشورجة. وقصد الملّا زين العابدين القادري صديقه القديم، الذي كانت الحكومة قد عينته إماماً لجامع الحيدرخانة، الذي يقع على بعد خطوات قليلة من الفندق. كانت هناك أسرّة متناثرة كثيرة داخل الغرف، ولكن خضر موسى فضّل أن تكون هناك غرفة خاصة بهم؛ حتى يتسامروا فيما بينهم، في الليل. وهكذا، احتل كل من خضر موسى ودرويش بهلول ودلي إحسان ودده هجري أسرّتهم، في غرفة أُخليت لهم. أما حميد نايلون وسليم عرب فقد وُضعا في غرفة أخرى، مع زبونين آخرين غائبين. في الحقيقة، إن حميد نايلون وسليم عرب فضّلا الابتعاد عن الآخرين، لأنهما كانا يريدان أن يستمتعا بوقتهما في بغداد، خارج كل رقابة ممكنة.

وبالفعل، ما كادت تمرّ نصف ساعة حتى كانا في الشارع مرة أخرى، حيث انسلا إلى الأزقة التي تبيع الهوى. أبواب البيوت مفتوحة، وثمة عاهرات يقفن أمام الأبواب، يتبادلن أحاديث عابرة مع قوادين شبان، يتكئون على الجدران أو على أعملدة الكهرباء، ويرصدون ما يحدث من بعد. ونادت عاهرة شابة حميد نايلون وسليم عرب: «هيا ادخلا. لن تجدا فتيات أفضل منا». كان ثمة فناء مفتوح، وبضعة رجال يجلسون على التخوت، وامرأتان تتحدثان إليهم. كان من الواضح أنهم ينتظرون خروج فتياتهم المفضّلات، اللواتي كنّ مع

رجال آخرين داخل الغرف. وفي صدر الفناء، جلست امرأة عجوز بدينة، كانت الفتيات ينادينها بـ«الحاجة»، تستلم النقود قبل الدخول، وتوجه الفتيات. ودخلت الفتاة التي كانت تقف أمام الباب، وقالت لحميد نايلون: «ألا اعجبك؟» ونادت القوادة، التي كانت تمسك بيدها مسبحة، حميد نايلون بصوت يكاد يكون أمراً: «هيا ادخل يا رجل مع عواطف. إنها راغبة فيك كما ترى». وجرته عواطف من يده: «لن تندم على ذلك». ودخل سليم عرب مع فتاة أخرى، كانت قد عادت لتوها من الموصل، مزهوة بصديقها الضابط الذي ذهبت إليه. فقد قالت لها الحاجة، حال وصولها: «انتهت متعتك مع صديقك الضابط، وحان وقت الشغل». هذه المغامرة العاطفية، التي كلفت كلّا منهما مئة وخمسين فلساً، أعادت التوازن إلى الرجلين بعد تعب رحلة الطريق، فقد أسرّ حميد نايلون لسليم عرب بحقيقة عواطفه تجاه النساء: «لا شيء ألذ من الحرام». مما جعل سليم عرب يضحك، مؤكداً له أنه أمر لا يكاد يختلف عليه رجلان في العالم، وراوياً له قصة نجار، يمتلك محلاً في شارع النجوم في كركوك، كان يطلق زوجته كلما ألقى بنفسه فوقها، ثم يندم على فعلته بعد ذلك. وابتسم حميد نايلون، وهو يقول: «بدون خطيئة لا تكون هناك لذة. الحلال واجب، أما الحرام فهو الاستثناء».

عندما عادا إلى الفندق رآهما درويش بهلول الذي كان عائداً، لتوه، من المرحاض الوحيد، الموجود في الممر، فقال لهما، بصوت خافت إن خضر موسى قد سأل عنهما، وإنه ربما كان يريد التحدث إليهما. ولكن خضر موسى، الذي كان مضطجعاً على أحد الأسرة، وهو يستمع إلى دده هجري الذي كان يقرأ عليه بعض أشعاره، بصوت متهدج، وهو متكىء بمرفقه على الوسادة، قال لهما إن الرجال لا يريدون قضاء الوقت كله في مثل هذا الفندق النتن؛ وهكذا اتفقوا على

مغادرة الفندق بعد قليل. وقال دده هجري: «اعتقدنا أننا نستطيع النوم، ولو لمدة نصف ساعة، ولكن ذلك صعب كما يبدو. إن شعور المرء بوجوده في بغداد يجعله يقظاً، وهو شعور يلازمني في كل مرة أكون فيها في بغداد». وإذ كان الرجال يتهيأون لمغادرة الغرفة قال دده هجري: «كنت، في المرات السابقة، أقصد مقهى البرلمان، حيث أجد جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي في انتظاري، ولكنهما لم يسلما من يد الموت الغاشمة». كان دده هجري يتحدث بتلقائية. وكابد درويش بهلول للسيطرة على نفسه، ولم ينتبه سوى خضر موسى إلى التماع الغضب في عينيه، وهو يقول: «هذا هو قدر الإنسان فوق الأرض، لا يسلم منه أحد. الموت هو الثمن الأخير للحياة».

بهت دده هجري لهذه الحكمة العميقة، التي أظهرها درويش بهلول، فجاراه في نظرته العميقة، مردداً رباعية من الشعر التركماني، على عادة أهل مدينة كركوك:

خلف الجبال

استيقظت على صوت حبيبتي

حبيبتي ظبية وأنا صياد

يطاردها[1].

وعند ذاك، ابتسم درويش بهلول، وردّ عليه برباعية، جعلت دده هجري ينحب، من العواطف التي انفجرت في قلبه:

لا تبكِ

---

(١) النص التركماني لهذه الرباعية (الخوريات) هو:

Daglarin ensesine.
Uyandim yar sesine.
Yarim Cayran men avci.
Düsmüsem ensesine.

منقول عن إبراهيم الداقوقي في كتابه: Irak Türkmenlari, Ankara 1970

هذا اليوم سوف ينتهي أيضاً، لا تبكِ
ان من أغلق هذا الباب
سوف يفتحه ذات يوم، لا تبكِ[1].

وضع حميد نايلون يده على كتف درويش بهلول، بإخاء، وقال: «أنت تعجبني كثيراً يا درويش. إن من يراك لا يفطن إلى حقيقتك. الآن فقط، أدركت لماذا اختارك خضر موسى لتكون واحداً من الوفد. إن المرء قلما يلتقي أناساً في مثل حكمتك». فابتسم درويش بهلول، كما لو أنه يعتذر: «دعك من المجاملات يا حميد نايلون، فلربما كرهت لقائي ذات يوم أكثر من أي شيء آخر في الحياة». وبالطبع، لم يفهم المعنى الحقيقي لهذه الجملة سوى خضر موسى الذي قال، محاولاً إنهاء هذا الحديث الملغز: «أعتقد أن الوقت قد حان لكي نهبط إلى الشارع، المدينة تنادينا». وهكذا، هبط الرجال الستة إلى شارع الرشيد، مانحين أنفسهم للضجيج، وقد أسكرتهم رائحة الغبار، القادمة من الصحراء.

(١) النص التركماني هو:

Aglama.
Gundi gecer aglama.
Bu kapini bagliyan.
Birgun acar aglama.

منقول عن إبراهيم الداقوقي ـ المصدر السابق

الفصل السادس

كان خضر موسى، الذي اختبر الحياة أكثر من غيره، يدرك مخاطر الاقتراب من الملوك، فالجاه الذي ينعمه الملك على الذين يقربّهم منه، يمكن أن يتحول إلى كارثة، بدون أسباب مدركة في أغلب الأحيان. وكان يعرف من القصص التي حفظها عن والده، أن الملوك العرب القدامى، كانوا يقطعون بين الحين والآخر رؤوس الذين يقرّبونهم، رغبة في التغيير، أو لدسيسة يدبّرها أحد الذين يستولون على عقل الملك أو قلبه. أما العثمانيون، الذين كان والده قد تعرف على بعض باشواتهم، فكانوا يلجأون إلى طرق تكاد تكون مضحكة. كانوا يُجلسون كبار رجالهم الذين يغضبون عليهم على الحمير بالمقلوب، حيث يقودهم في أسواق المدينة منادٍ، جهوري الصوت، يعدد رذائلهم وخيانتهم، بينما كان الناس، الذين تُفرحهم مصائب غيرهم، يهجمون على الضحايا، فوق الحمير، وينهالون بأحذيتهم القذرة فوق رؤوسهم، أو يضربونهم بالعصيّ. ولكن الأفظع من ذلك كله، هو القتل بالخازوق الذي يوضع في مؤخرة الشخص، ويرغم على الجلوس عليه، حيث تخترق الحربة أحشاءه الداخلية، شيئاً فشيئاً. وهي طريقة في القتل، تميز بها الأتراك الذين كانوا يعتبرون التفرج على ضحاياهم، وهم يعانون الموت البطيء، واحدة من المتع القليلة في حياتهم القاحلة. ولذلك، وعلى الرغم من تغير الزمن، فإن خضر موسى كان الأكثر قلقاً بين أعضاء الوفد المتطلعين إلى لقاء الملك. ما كان يقلق خضر موسى ليس زوال النعمة، وإنما الشعور

بالذل، ليس غضب الملك، وإنما الخوف من السقوط. ولكن مخاوف خضر موسى هذه ما كانت سوى مخاوف قلب مضطرب في حضور درويش بهلول الذي كان يذكره بزوال كل مجد. ففي اليوم التالي، وجد وفد مدينة كركوك، الذي اجتمع عند باب قصر الزهور، ضابطاً قادهم، عبر حديقة مليئة بالأشجار والزهور والنافورات، إلى صالة واسعة، خالية من أي مقعد. وتركهم هناك، خارجاً من أحد الأبواب الجانبية، بدون أن يقول شيئا. في البداية، التزم الرجال الصمت، في انتظار خروج الملك عليهم. ولكن عندما طال الانتظار، راحوا يتهامسون فيما بينهم. بعد نصف ساعة من الانتظار المقلق، لم يجد بعضهم بداً من السير داخل الصالة، لإعادة النشاط إلى ساقيه المتعبتين، كما عمد بعضهم الآخر إلى الجلوس على الأرض، مقرفصا عند الزوايا. وارتفعت الأصوات في ضجيج ملأ المكان كله. وأخيراً، تجرأوا على التدخين، فارتفعت سحابة من دخان سجائر «غازي» و«تركي» و«لوكس»، غطت الصالة كلها. بعد ساعتين، طلب بعض أعضاء الوفد إلى خصر موسى أن يفعل شيئا: «لا يمكن أن ننتظر أكثر»، فرد خضر موسى: «ماذا يمكن أن أفعل؟ في العادة الملوك يتركون رعاياهم ينتظرون». واقترح أحدهم: «ربما كان من الأفضل أن تقرع الباب وتنادي الملك». ولكن كردياً، في الجوار، اعترض، قائلاً: «لا يجوز ذلك، فقد يكون الملك مع عائلته». بعد دقائق من ذلك، رأى الرجال، عبر شباك الصالة، الملك فيصل الثاني مرتدياً «بنطلوناً» رياضياً أبيض قصيراً وفانيلة زرقاء، في مكان ما في الحديقة، وهو يؤدي بعض التمارين السويدية. كان ذلك أكثر مما يطيقه دده هجري الذي قال: «هذا كثير. سوف أذهب إليه، وأدعوه للمجيء». فقال خضر موسى: «لن يعرفك، سوف أجيء معك». وانضم درويش بهلول، هو الآخر، إليهما، حتى من دون دعوة.

وخرج الرجال الثلاثة إلى الحديقة، قاصدين الملك. كان منظر الرجال مثيراً بعض الشيء، يفتقر إلى الانسجام؛ فخضر موسى يرتدي بذلة كحلية وقبعة رمادية ويضع نظارات سوداء فوق عينيه، ودده هجري بلحيته الكثّة «وجاكتته» المتهدلة فوق «بنطلون» تهرأت حواشيه من الأسفل، ودرويش بهلول كان يرتدي ثوباً من الخام الأبيض وقد وضع رجليه في «كلاش» عتيق. ولكن مرافقي الملك وحراسه، الذين رأوا الرجال الثلاثة يتقدمون نحو الملك، شهروا عليهم مسدساتهم وبنادقهم. وانتبه الملك إلى الضجة، فظل واقفاً في مكانه. ثم سرعان ما تعرف على خضر موسى، فضحك، وقال، بصوت عالٍ: «لا أكاد أصدق عيني. هذا هو خضر موسى بالتأكيد». ونادى عليهم: «هيا تعالوا، ما الذي تنتظرون؟» تقدم الرجال الثلاثة باتجاه الملك الذي صافحهم، وقدم خضر موسى صاحبيه الآخرين: «دده هجري، أعظم شاعر أنجبته كركوك، ودرويش بهلول، مالك حكمة البشرية». فمازحهم الملك الشاب، قائلاً: «ماذا يطلب الملك أكثر من ذلك؟ رجل شجاع مثل خضر موسى، وشاعر مثل دده هجري، وحكيم مثل درويش بهلول»، داعياً إياهم للجلوس على العشب. قال الملك: «كان بلاط جدي مرتعاً للشعراء. وقد عيّن محمد مهدي الجواهري كاتباً عنده. ولكن الجواهري، كما تعرفون، شاعر متقلب المزاج، انقلب علينا بعد حين، وراح يمدح أعداءنا. هكذا هم الشعراء دائما. ماذا نفعل؟ إن خالي والباشا يحفظان القصائد التي يهجوهما فيها». وعلّق دده هجري: «ولكن قصيدته التي يمدحك فيها تعتبر من عيون الشعر العربي». قال الملك: «تقصد قصيدته (ته يا ربيع)؟ حقاً إنها قصيدة جميلة. ولكن الملك يحتاج إلى ما هو أكثر من المدح، يحتاج إلى الثقة». ثم التفت إلى خضر موسى: «ألا تفكر في القيام بمغامرة أخرى أم أنك تقاعدت؟» فتنحنح خضر موسى، ضاحكا: «تعرف يا صاحب

الجلالة أن للعمر متطلباته، ما عاد قلبي يطاوعني على ركوب الأخطار». ضحك الملك: «لقد كبرت يا خضر إذاً». ودعا الملك ضيوفه الثلاثة إلى تناول الفطور معه، على الرغم من أن الوقت كان ظهراً. ولكن خضر موسى ذكره بموعد اللقاء المفترض مع وفد كركوك، المنتظر في الصالة؛ وهو أمر أثار استغراب الملك، الذي قال إن أحداً لم يبلغه به. ثم تدارك الأمر: «إذا كانوا قد جاؤوا من كركوك إلى هنا، فلا بد من أن أسلم عليهم. ولكن ما الذي يريدونه؟»

قال درويش بهلول: «لقد جاؤوا للدفاع عن كرامة موتاهم».

واستغرب الملك: «كرامة الأموات؟ ما الذي تقوله أيها الدرويش؟ هل بقيت كرامة للأحياء حتى يدافعوا عن كرامة الأموات؟»

وتدخل خضر موسى، بلطف: «سوف نروي لكم القصة كلها يا صاحب الجلالة». فرد الملك، مازحاً: «ليس قبل تناول الفطور. لقد ظننت نفسي ملكاً على الأحياء وحدهم، ولكن إذا أراد الأموات أن أحكمهم أيضاً فلن أمانع». وضحك خضر موسى ودده هجري للفكرة الملكية، في حين أشاح درويش بهلول بوجهه جانباً، حتى لا يضطر، هو الآخر، إلى الضحك أو الابتسام، مجاملة للملك، الذي كان لا يزال غرّاً.

وخطا الملك باتجاه الصالة التي انحشر فيها وجهاء كركوك، يتبعه خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري، فاستقبل الملك بعاصفة من التصفيق، ودوت الهتافات عالياً بحياته. وألقى الملك كلمة قصيرة، قال فيها إنه يكنّ مودة خاصة لأهالي كركوك، الذين أثبتوا ولاءهم دائماً للعرش الهاشمي، وإنه سيبذل كل ما في وسعه من أجل تطوير المدينة وحل مشاكلها، وإنه سيبحث الأمر مع صديقه خضر موسى أثناء تناول الفطور، شاكراً إياهم على تجشمهم عناء السفر لتقديم الطاعة والولاء له. وخرج الملك مرة أخرى، ممسكاً بيد خضر

موسى، يتبعهما كل من درويش بهلول والشاعر دده هجري. ونادى الملّا زين العابدين القادري خضر موسى: «سوف ننتظرك في الفندق يا خضر»، فأسكته حميد نايلون: «أسكت يا رجل، إنه لن يضيع بالتأكيد».

واقتادهم الملك إلى غرفة الطعام، حيث احتسى الرجال الثلاثة القهوة مع البسكويت. أما الملك فقد شرب قدحاً من الحليب، وتناول ثلاث شرائح من الخبز مع الزبدة والمربى، واحتسى فنجانين من القهوة. وخلال ذلك، عرض خضر موسى على الملك قصة مقبرة المصلّى، التي تنوي البلدية ردمها، متجنباً، عن عمد، الإشارة إلى دور شركة النفط الانكليزية في القضية، وملمحاً، في الوقت نفسه، إلى أن ذلك يمكن أن يدفع الغوغاء إلى إثارة القلاقل والبلبلة. استمع الملك بانتباه إلى ما قاله خضر موسى، ثم أطرق برأسه قبل أن يقول: «إنني لا أحب التدخل كثيراً في شؤون الدولة، ومع ذلك سوف أبلغ طلبكم إلى رئيس الوزراء. وفي كل الأحوال، فإن حرمة الأموات يجب أن تظل مصانة في هذه البلاد». ونهض الملك مودعا ضيوفه الثلاثة، وممازحاً إياهم، إذ قال لخضر موسى: «في المرة القادمة أتوقع مجيئك في منطاد إلى بغداد». وابتسم وهو يصافح دده هجري: «إذا مدحتني في قصيدة، ذات يوم، فارسلها إلي». ولكنه توقف صامتاً للحظات، قبل أن يصافح درويش بهلول، ثم قال، بصعوبة: «أشعر أنني سألتقيك ذات يوم». فضغط درويش بهلول على يده، وهو يقول: «أعرف ذلك يا صاحب الجلالة». ثم انسحب تاركاً الملك يتأمل في معنى تلك الجملة التي بدت غريبة له، إذ من أين يعرف هذا الدرويش أنه سيلتقيه، إلا أنه اعتبر قول الدرويش شطحة من شطحات الفكر التي يتعمدها الدراويش في فتح أبواب الغيب المغلقة. عاد الرجال الثلاثة إلى الفندق، مثل أشباح خارجة من حفلة خرافية، بدون أن

يتبادلوا سوى بعض الكلمات المقتضبة؛ كما لو أنهم كانوا يريدون إعادة تركيب مشاهد المنظر من جديد في رؤوسهم. فكر خضر موسى أن هذا الملك الشاب المدلل لا يملك، في الحقيقة، أية سلطة في الدولة التي يحكمها، وأنه ليس أكثر من فزاعة، للزينة. وأحزنته فكرة أن الملك نفسه لن يكون قادراً على فعل شيء من أجل إيقاف انتهاك قبور آبائه وأجداده. وادرك، ربما بصورة غامضة بعض الشيء، أن دماً كثيراً سوف يسيل، وأنه مسؤول عن ذلك. وكان دده هجري يفكر في قصيدة، يحتسي فيها الشاعر القهوة بحضور الملك. كانت الأبيات تتغير في ذهنه:

ذات صباح

شربنا القهوة معاً، أنا والملك

الحياة إلى يميننا،

والموت إلى يسارنا.

وكان ثمة أسى قد داخل قلب درويش بهلول، من البراءة التي أظهرها الملك. فقد كان يعرف أن تلك البراءة لن تدوم سوى أعوام قليلة أخرى، براءة سوف يخترقها الرصاص ذات صباح، حتى قبل أن يدرك الملك تماماً حقيقة ما حدث. كان درويش بهلول يعرف، من تجربته مع البشر، أن ثمة موتاً سهلاً وآخر صعباً. يمكن للمرء أن يقبل موته، عندما يكون قد وطد قلبه على ملاقاته. أما الموت، الذي يمكن أن يباغت المرء، فيسبب الأسى؛ إذ تظل هناك دائماً مشاريع ناقصة: كتابة رسالة ما، قراءة فصل أخير في رواية، إعتذار عن خطأ، إعلان عن حب أو مودة، رحلة إلى مكان ما. ثمة فارق دائماً بين الآمال المُطفأة والآمال المؤجلة. وما كان لأحد أن يدرك هذا الفارق الدقيق أكثر من درويش بهلول العائد من لقاء الملك.

كان حميد نايلون يقف أمام الفندق في انتظار الرجال الثلاثة،

حيث قادهم إلى جامع الحيدرخانة الذي كان أعضاء الوفد قد اتخذوه مركزاً للقائهم. كانوا ينتظرون بلهفة الأخبار التي سوف يوصلها خضر موسى إليهم عن فطور الملك. ولكن خضر موسى التزم الصمت بطريقة مريبة، حتى اضطر العديدون إلى سؤاله عما جرى هناك. عند ذاك أشار خضر موسى إلى دده هجري أن ينهض، قائلاً: «أفضل أن نستمع إلى الشاعر ليروي لنا القصة من بدايتها». ونهض الشاعر متجهاً نحو المحراب وقد تعلقت به العيون. كان ثمة آخرون أيضاً قد جاؤوا أيضاً إلى المسجد صدفة، فانضموا إلى الجالسين، دون أن يعرفوا حتى حقيقة المناسبة. وبدأ دده هجري يغني رباعية تركمانية، مغمضاً عينيه ومتأرجحاً في وقفته، كما لو أنه ينهض من سبات طويل:

موضع الوردة
قم لنذهب إلى موضع الوردة
ذهبت قاصداً موضع الوردة
لكني وجدت الشوك موضع الوردة[1].

هذه القصيدة التي غناها الشاعر صدمت الحاضرين، فقد كانت تتضمن تعريضاً واضحاً بالملك، وهو أمر لم ينتبه إليه بالطبع سوى وفد كركوك الذي كان ينتظر أخباراً طيبة عن لقاء الملك. ازداد الحاضرون حيرة. كانوا يريدون معرفة ما قاله الملك للرجال الثلاثة، لا الاستماع إلى أشعار ملغزة، وتوجهت الأنظار إلى خضر موسى،

---

(١) النص التركماني الأصلي لهذه الرباعية هو:
كول ييرينه.
قاغ كيده غ كول ييرينه.
كيتدم كولو كور مغه.
تيكان وار كول ييرينه.
منقول عن عبد اللطيف بندر اوغلو: التركمان في عراق الثورة (مصدر سابق).

طالبة إليه الكلام. ولكن خضر موسى كان محنياً رأسه، كما لو أنه يتأمل في ما يقوله الشاعر. كان دده هجري هو الآخر غارقاً في نفسه، يفكر في قصيدته غير المكتملة عن الفطور مع الملك، ولذلك هز كتفيه في حركة تمثيلية، متمتماً ببضع كلمات مبهمة، ثم غادر المحراب وفي عينيه حزن، لم يلحظه سوى درويش بهلول الذي نهض واتجه نحو المحراب، ملقياً كلمة جعلت الكثيرين يضطربون في أماكنهم، حتى لكأنهم يهتزون بين قطبين متنافرين: المعلوم والمجهول. كان صوت درويش بهلول يشبه الرعد عند المطر. ورفع خضر موسى عينيه إليه وابتسم، كما لو أنه يريد أن يشجعه على المضي في الكلام. قال درويش بهلول: «الليل والنهار يتعاقبان، ولكن من يعرف الليل وينكر النهار! اشربوا من النبع الذي يتدفق، اصعدوا الجبل حتى القمة ثم انحدروا لتلاقوني، أنا الذي ينتظركم منذ لحظة الولادة. وداعاً وإلى لقاء». لوى درويش بهلول رأسه وخرج، مغادراً المسجد، دون أن يفقه أحد كلمة مما قال. والأكثر من ذلك انهم استهجنوا غموضه ومغادرته دون مبرر.

صحيح أن خضر موسى هو الذي كان قد جاء به وفرضه على الوفد، على الرغم من أن أحداً لم يكن قد سمع به من قبل، إلا أنه وقد وافاه الحظ للجلوس مع الملك، ما كان ينبغي له أن يغادر الجمع بهذه الطريقة المسرحية، بعد بضع جمل غامضة، لا تعني شيئاً في واقع الحال.

لم يعد ثمة بد من نهوض خضر موسى. كان الجميع ينتظرون منه أن يقول شيئاً واضحاً هذه المرة، على عكس صاحبيه اللذين جعلا النار تضطرم في قلوب الحاضرين، حينما لم يقولا شيئاً واضحا. واضطر خضر موسى الذي كان يعرف كيف يقنع الآخرين بأفكاره، إلى الاعتذار عما بدا من غموض في خطبة دده هجري ودرويش

بهلول، ملمحاً إلى أن ذلك ربما كان صدى للرهبة التي تركها اللقاء مع صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني، حفظه الله. قال وهو يحاول نقل انطباع جديد إلى مستمعيه إن الملك تأثر كثيراً للخطر الذي يهدد قبور المسلمين في كركوك وإنه سيبلغ رئيس وزرائه بالأمر. وعلى الرغم من أن ذلك كان أقل مما يتوقعه منه مستمعوه، إلا أنه حاول حسم كل اجتهاد، مشيراً إلى أن الأمر أصبح الآن بيد الملك. وهذا وحده يعني الكثير. وهكذا انفض هذا الاجتماع الذي ترك الأمر مفتوحا. ولما لم يعد هناك ما يفعله الرجال في بغداد، فقد قرر الكثيرون منهم العودة إلى كركوك في اليوم التالي، بعد أن استبد بهم الحنين. وتفرق الجمع مرة أخرى. قصد خضر موسى، يتبعه شيوخ محلة جقور، سوق الهرج حيث اشتروا ملابس وأحذية تكاد تكون جديدة، مرسلة من أوروبا بأسعار رخيصة للغاية. وانتهز التجار الفرصة فعقدوا بعض الصفقات مع تجار الشورجة. وانسل حميد نايلون وسليم عرب مرة أخرى إلى الأزقة التي تبيع الهوى، قبل أن يجلبا من دكان يقع في العيواضية، مطبعة رونيو صغيرة أخفيت داخل صندون من الخشب، كان فاروق شامل قد طلب إلى حميد نايلون نقلها إلى كركوك، بعد أن تم تهريبها من دمشق على ظهر بعير عبر الصحراء. وفيما بعد توزع الوفد في المقاهي، القريبة، حيث قصد التركمان مقهى البرلمان، والأكراد مقهى البلدية الذي كانوا يقيمون أيضاً في غرفه الواقعة في الطابق الثاني. وكان ثمة آخرون قد ذهبوا إلى مقهى حسن عجمي، بينما جلس خضر موسى ودده هجري ودلي إحسان على كراسٍ، وضعوها على الرصيف أمام الفندق، متفرجين على الناس الذين كان يضج بهم شارع الرشيد. وظل دده هجري قلقاً طيلة المساء على غياب درويش بهلول الذي لم يترك أثراً وراءه، على الرغم من أن خضر موسى طمأنه أكثر من مرة، مؤكداً له أنه ربما قصد

مسجد الحلاج الواقع في الكرخ، أو ذهب لقراءة الفاتحة على قبر الإمام الأعظم في الأعظمية، فالرجل كثيراً ما يختفي ويتنقل بين البلدان والمدن، كما لو أنه موكل بمهمة، لا يعرفها أحد سواه.

حين أقفلت السيارات في اليوم التالي عائدة إلى كركوك التي بلغتها عند الظهر، كانت مهمة الوفد قد انتهت، إذ لم يبق سوى انتظار الأوامر العليا التي كان يفترض صدورها في أي وقت. ولكن المفاجأة التي واجهت الرجال العائدين من بغداد، كانت أكبر من كل خيال. فقد تمردت محلة جقور أولاً، ثم تبعتها المحلات الأخرى التي هاجمت جرافات وحفارات البلدية بالحجارة، مما جعل الشرطة ترسل قواتها إلى ساحة المصلى وتحتل الحديقة الواقعة في وسطها، ناصبة العديد من الرشاشات فوق سطح المدرسة الابتدائية المطلة على المقبرة. في البداية هاجم المتمردون سيارات البلدية بالحجارة واستولوا عليها متخذين منها متاريس ضد أي هجوم محتمل، يشنه العدو ضدهم. ولولا وصول فوج من الشرطة، لما تمكن عمال البلدية من النجاة بجلودهم. فقد انهالت الحجارة من السطوح القريبة من المكان، حتى لكأن السماء تمطر حجارة. ولم يفلح رجال الشرطة في إنقاذ العمال المحاصرين إلا بعد إطلاق زخات متتابعة من الرصاص في الهواء. وجاءت سيارة مسلحة للشرطة راحت تبث دون انقطاع من مكبرات صوت نداءات تطالب المقاومين بالانسحاب من المكان، مهددة بمعاقبة كل من يتحدى القانون والنظام. وقد رد المقاومون على هذه النداءات، التي كان يطلقها دلّال يعمل في سوق الحبوب، معروف في المدينة بفصاحة لغته وعلو صوته، جاءت به الشرطة عنوة، بنداءات مضادة، راحوا يطلقونها من مكبرات الصوت المنصوبة فوق منارات المساجد الموجودة في المنطقة. وانضم تلاميذ مدرسة المصلى الابتدائية مع معلميهم ومديرهم، بعد أن احتلت الشرطة سطوح

مدرستهم إلى صفين منتظمين، مرددين نشيد «موطني» الذي جعل الناس يصفقون للتلاميذ الصغار الذين، ما كادوا يبلغون نهاية الحديقة التي كانت تفصل بين الجانبين، حتى انضموا إلى المقاومين الذين ارتفعت معنوياتهم، مشاركين التلاميذ نشيدهم المؤثر:

موطني... موطني

الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك

والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك

هل أراك

سالماً منعماً وغانماً مكرماً

هل أراك

في علاك تبلغ السماك

موطني... موطني

كانت محلة جقور قد أعلنت تمردها في اليوم نفسه الذي التقى فيه خضر موسى الملك فيصل الثاني. وقد حدث ذلك كله بسبب خطأ ارتكبه مأمور البلدية. كان مدير الشرطة قد أصدر أوامره بالتوقف عن أعمال الحفر التي كانت البلدية تقوم بها، عندما عرف أن ثمة وفداً ذاهباً إلى بغداد، قاصداً الملك، وكان ذلك خطوة حكيمة منه، فقد أراد أن يستبق الأحداث ويتجنب العواقب. ولكن مأمور البلدية الذي كان يشرف على شق الطريق بدل أن يسحب الحفارات والجرافات من مكانها عند حافة المقبرة نقلها إلى ساحة في الطرف الآخر من المقبرة، حتى انجلاء الموقف. وهكذا، فإنه بدل أن يطلب من عماله التراجع إلى الخلف، أمرهم بالتقدم إلى الأمام. وعند ذاك اندفعت عصابة العمالقة التي كانت تكمن في زقاق واقع بين محلة العرب ومحلة اليهود، شانّة غارة سرية ومباغتة على عمال البلدية والشرطيين الذين كانوا يحرسونهم، يتبعهم الأطفال والنساء والشيوخ، حاملين

في أيديهم العصي والسكاكين والحجارة. أما عصابة العمالقة التي ما كان ينقصها سوى حميد نايلون الذاهب إلى بغداد، فكانت قد تسلحت بالمقابض الحديد الصفر التي يمسك بها المرء بين أصابعه. وقد بدأ هذا الهجوم الذي قاده عباس بهلوان بصرخات «الله أكبر» وهلاهل النساء وموجات من الحجارة التي انهالت على العمال ورجال الشرطة الذين لاذوا بالفرار. وكان عباس بهلوان قد لحق بسائق إحدى الجرافات وتشبث بالباب، موجهاً إليه لكمة، انحرف عنها فأصابت كتفه، مما جعله يرمي بنفسه إلى الأرض من الجهة الأخرى ويولي هارباً، وهو يشتم ويصرخ من الألم. واندفع المهاجمون، يتقدمهم الصبي برهان عبد الله الذي كان يحمل العلم العراقي. هذا الهجوم المباغت أرعب عمال البلدية الذين لاذوا بالفرار باتجاه الحديقة، محتمين بأشجارها من الأحجار التي كانت تنهال عليهم. وحاول ثلاثة من رجال الشرطة الهجوم فراحوا يطلقون النار في الهواء من بنادقهم، ولكن رجال العصابة أحاطوا بهم وجردوهم من أسلحتهم، بعد أن أوسعوهم ضرباً، ثم اقتادوهم إلى إحدى الشاحنات المتروكة وربطوا أيديهم بالحبال. وقد انضم إليهم مأمور البلدية الذي كانت النساء قد لحقن به وأسرنه، وهو يحاول التسلل من أحد الأزقة الجانبية.

هذا النصر الساحق والسريع الذي حققته محلة جقور، لم يأت بدون ثمن، وهو أمر لم يكن أحد قد وضعه في الحسبان. فعندما شنت محلة جقور هجومها الخاطف على عمال البلدية، سحب شرطي أمن، كان يجلس قبل ذلك بين القبور مسدسه وهرع باتجاه المهاجمين، ولكنه ما كاد يرى نفسه على وشك الوقوع في المصيدة، حتى لاذ هو الآخر بالفرار، شاهراً مسدسه، يتبعه عدد من الأطفال والرجال والنساء الذين طاردوه، منادين «حرامي، أمسكوا به». كان يركض

لاهثاً، يتبعه الحشد الصارخ، وحاول آخرون قطع الطريق عليه، مما أوقعه في رعب شديد، فرفع يده بالمسدس الذي يحمله في يده وأطلق ثلاث رصاصات باتجاه مطارديه الذين كانوا يقتربون منه، فأصابت إحدى الرصاصات حلاقاً أسود كان يجلس على كرسي أمام دكانه الواقع على مقربة من ضريح الإمام أحمد فأردته قتيلاً، حيث ظل جالساً في مكانه والدم يتدفق من ثقب في صدره، بينما انحدر رأسه إلى الأمام. ومر بعض الوقت قبل أن ينتبه ابناه الأسودان الصغيران، اللذان كانا يتفرجان هما أيضاً، إلى الدم الذي يلطخ صدر والدهما فراحا يصرخان بطريقة، جعلت المطاردين يقفون ويلقون نظرة على الرجل الميت، مما جعل شرطي الأمن يفلت من المطاردة، داخلاً زقاقاً مؤدياً إلى سوق الجلود. كان القتيل بالطبع طارئاً على المدينة، ينتمي في الأصل إلى عائلة من العبيد، جلبها الكابتن جيزني، وهو مساح انكليزي عمل أولاً في شركة الهند الشرقية ثم مع عائلة لنج، معه من أفريقيا في نيسان ١٨٢٦، على ظهر باخرة أطلق عليها اسم «دجلة» انطلقت من بيره جك، ولكنها تعرضت بعد شهر من الأهوال إلى هجوم شنته عليها قبيلة الخزاعل المتوحشة وأغرقتها في مستنقعات اللملوم، بعد نهب ما فيها. وقد نجا العبد والمرأة التي كانت معه من المذبحة على فلك من الجلود المنفوخة، انحدر بهما حتى القرنة، حيث التقطهما زورق تركي مسلح، ثم ألحقا بخدمة الوالي رشيد باشا الكوزلكلي الذي أهداهما بدوره بعد شهر من ذلك إلى صهره عطا أفندي في سنجق كركوك، بعد اعتناقهما الإسلام. كان ذلك الرجل الأسود هو قره قول محمود، جد الحلاق قره قول منصور الذي قتله شرطي الأمن. وقد اندمج هؤلاء العبيد القلائل الذين ما كان عددهم يتجاوز العشرة أشخاص في حياة المدينة، حتى أنهم راحوا يعتبرون أنفسهم اعتباطاً من التركمان السود. وكاد الناس ينسون منبتهم لولا

الشر الذي كان يتميز به أطفالهم الذين كثيراً ما كانوا يقطعون الطريق على الأطفال الذاهبين إلى المدرسة أو العائدين منها، ولولا بشرتهم السوداء الداكنة التي يقال إنهم كانوا يدهنونها بسائل خاص، يستخلص من حبوب عباد الشمس ويغسلون أجسادهم بعطر ذي رائحة مدوخة، كانوا يجلبونه من سوق العبيد في البصرة.

على الرغم من أن قره قول منصور مات وهو جالس على كرسي أمام دكانه، فإن الناس اعتبروه شهيداً، سقط في المعركة، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين وانتشرت قصص كثيرة عن موته البطولي، ونسبت إليه معجزات، لم يكن يستحقها. وبالتأكيد، فإن بعض هذه القصص، اختُلق ليؤثر على عواطف الناس التي تؤججها مثل هذه القصص، وكان المؤلفون هم أعضاء المنظمات السياسية السرية العاملة في المدينة، والتي كان يهمها خلق البلبلة والإثارة والفوضى ضد الحكومة. ولكن كانت ثمة قصص أخرى، راح الناس يروونها في المقاهي، لا يعرف أحد حتى مصدرها أو دوافعها، وهي قصص خيالية، يصعب تصديقها. فقد ذكرت إحدى هذه القصص أن نسب قره قول منصور ينتهي إلى الصحابي الأسود بلال الحبشي الذي كان أول من أذن علناً، متحديا الكفار والمشركين. واشتطت القصص في القول، ذاكرة أن قره قول منصور هو بلآل الحبشي نفسه، وأن النبي محمداً أعاره البراق الذي هبط به من السماء السابعة إلى الأرض، ليرفع راية الإسلام من جديد. وظهرت بيانات مكتوبة بخط اليد حددت موعد يوم القيامة بالساعة العاشرة والربع من يوم الثامن والعشرين من مارس، أي بعد مرور سبعة أيام بالضبط على مقتل قره قول منصور، وهي بيانات قال مدير الشرطة إن اليهود الذين ظلوا في كركوك، رافضين السفر إلى إسرائيل هم الذين أصدروها. وقد اعترف بالفعل عدد من اليهود الذين اعتقلتهم الشرطة بتحرير هذه البيانات، لإثارة

الفوضى والإضطراب في دولة المسلمين. ولكن الشرطة أطلقت سراحهم بعد يومين من اعتقالهم، تجنباً لإثارة الرأي العام في الخارج ضد العراق.

وتحول تشييع جنازة قره قول منصور إلى حدث ما شهدت له كركوك مثيلاً قط من قبل. فقد خرج الناس من الأزقة والمحلات، لاطمين ناحبين وأقبلوا في موجات بشرية، رافعين الأعلام السود، تتقدمهم الطبول الجنائزية التي ظلت تقرع في المدينة كلها. وعلقت اللافتات عند مداخل الطرق والأزقة والشورع «المجد والخلود لشهيد الانتفاضة قره قول منصور» و«دم الشهيد قره قول منصور لن يذهب هباء». وجاء الفلاحون من القرى القريبة من كركوك على حميرهم وخيولهم، أما البدو الذين يضربون خيامهم في بادية الحويجة، فقد جاؤوا على جمالهم التي تركوها ترعى العشب بين القبور في سهل ييدي قيزلر. ولم يتردد حتى الغجر الذين كانوا يقيمون حفلات راقصة داعرة في خيامهم المنصوبة في سهول المدينة الخضراء، من النزول إلى الشوارع، جارين وراءهم الدببة التي جعلوها ترقص على إيقاع الضربات الجنائزية للطبول، والقردة التي ألبسوها ثياب الحداد. وخشي المتصرف الذي بوغت بالأمر، أن تفلت الأمور من أيدي الحكومة فأعلن حالة الطوارىء في المدينة بعد جلسة قصيرة عقدها مع مدير الشرطة وقائد الفرقة الثانية. واتصل رئيس الوزراء من بغداد بالمتصرف، مؤنباً إياه على فلتان الأمور في مدينته وطالباً إليه الاتصال بخضر موسى ووجهاء المدينة الآخرين لإنهاء الإضطرابات. ولكن خضر موسى كان مع وجهاء المدينة في بغداد، ولذلك لم يعد بد من الانتظار. وعلى الرغم من إعلان حالة الطوارىء فإن مدير الشرطة سحب قواته من المدينة، مكتفياً بالقوة التي ظلت معسكرة في مدرسة المصلى الابتدائية المطلة على المقبرة. أما قائد الفرقة الثانية، وهو

ضابط عربي من الموصل، فقد وضع بعض قواته عند مداخل المدينة، ممتنعاً عن إنزال الجنود إلى الشوارع التي كان المقاومون يسيطرون عليها. وصعد مدير الشرطة وقائد الفرقة الثانية في طائرة هليوكوبتر، ظلت تحلق فوق المقبرة، مراقبة الألوف من الناس الذين جاؤوا لتوديع شهيدهم قره قول منصور الذي دُفن قريباً من ضريح إمام بدين أكله الناس في أيام المجاعة الكبرى التي مرت بالمدينة في القرن الماضي، ولكن عظامه نطقت فكشفت الفعلة الذين أمر القاضي بقتلهم، فأكلهم الناس انتقاماً للإمام المأكول.

ولكن الأمر لم ينته مع دفن قره قول منصور. فقد ظل المتمردون، ومعظمهم من محلة جقور، وراء متاريسهم التي أقاموها على حافة المقبرة من الجرافات والحفارات التي احتموا بها، مشعلين النار في إطارات السيارات، وقاطعين الطريق إلى المقبرة، في مواجهة قوة الشرطة التي ظلت هي الأخرى تحتل مبنى مدرسة المصلى الابتدائية. وسهر مع المقاومين أطفال المحلات القريبة الذين راحوا يصغون باهتمام وانتباه إلى القصص التي كان يرويها الشيوخ عن أيام الحرب العالمية الأولى، عندما تراجع الجيش التركي أمام القوة الانكليزية الغازية، مصادراً كل ما يصادفه في طريقه، حيث كان الجنود الباشبزق يقتحمون البيوت ويطعنون بحرابهم أفرشة النوم، بحثاً عن الحنطة والدقيق، مستولين على جرار العدس الموضوعة داخل النار اللاهبة في التنور، والتي كانوا يخرجونها ثم يقرفصون على الأرض ويلتهمونها، مانعين حتى أطفال البيت الجياع ونساءه من الإقتراب من القصعة. وحملت النساء إلى المقاومين قدور الدولمة، بينما انهمكت نساء أخريات في إعداد الشاي الذي كان يوزع على المتمردين. والتزمت قوة الشرطة المواجهة بالأوامر الصارمة الصادرة إليها، فلم تطلق النار سوى مرتين أو ثلاث، عندما تسلل بعض الأفراد إلى داخل

الحديقة الفاصلة بين الجبهتين، محتمين بجذوع الأشجار والظلام وقذفوا الشرطة ببضع قنابل مولوتوف، قام بصنعها طلاب ثانوية الصناعة، وقد رد المقاومون على نيران العدو بإطلاق النار في اتجاه المدرسة من البنادق الثلاث التي كانوا قد استولوا عليها من الشرطة في بداية المعركة ومن بعض المسدسات التي كان الرجال يضعونها في أحزمتهم. وجلب ثلاثة رجال مدفع رمضان الذي كان متروكاً في مكان ما بين القبور، آملين بطريقة ما في استخدامه رغم عدم وجود قذائف لديهم أو لتخويف العدو ورفع معنويات المقاومين على الأقل. في الحقيقة، إن تلك الليلة التي أمضتها محلة جقور والمحلات المجاورة عند حافة المقبرة على ضوء الفوانيس التي وضعت فوق القبور المرمرية شهدت أحداثاً، جعلت رجال الشرطة الذين ظلوا يراقبون الموقف من فوق سطح المدرسة يتركون أسلحتهم ويفرون في الظلام، بعد أن ملأهم الخوف والرعب مما شهدته أعينهم. فعندما جلب الرجال الثلاثة مدفع رمضان، ضحك حتى عباس بهلوان الذي كان يقود المعركة، قائلاً: «ما الذي نفعله بمدفع يشبه الحمار؟» وكان الأطفال قد اعتلوه، بل إن برهان عبد الله مد يده داخل ماسورة المدفع وراح يتحسسها، كما لو أنه يبحث عن شيء ما، ولكن كولبهار نهرته خائفة من انفجار المدفع الذي لم تكن تملك فكرة واقعية عنه. عند ذاك قال برهان عبد الله مخاطباً عباس بهلوان: «ليس صعباً صنع القذائف. يمكننا أن نصنع قذائف من كبريت الثقاب». رد عباس بهلوان: «هل تعرف ما تقول أيها الصبي؟ لا أعتقد أن الأمر بالسهولة التي تعتقدها». ولكن عريفاً كان قد شارك في حرب فلسطين قال: «قد نحتاج إلى القليل من الكبريت، ولكن الأهم من ذلك هو الحصول على كمية كافية من البارود». لم يكن الحصول على البارود مشكلة، فقد كان ثمة الكثير منه عند الحجارين الذين لم يكونوا

ليبخلوا به على المقاومين، إذ ما كاد كيس البارود يصل إلى المقبرة على ظهر حمار، كان معتاداً على نقل الجص في النهار، حتى تولى فريق من العسكريين القدامى أمر المدفع الذي أبعدوه عن الناس الذين أحاطوا به متفرجين، محذرينهم من خطر الاقتراب منه. وأفلح العسكريون في تلقيم المدفع الذي قالوا عنه إنه قد أصبح معداً للإطلاق. عند ذلك اقترب عباس بهلوان من سور الحديقة وراح يصرخ بصوت عال طالباً إلى قوة الشرطة المعسكرة في بناية المدرسة الاستسلام أو الاستعداد لتلقي القصف المدفعي. ولكن صوتاً متحدياً رد عليه من فوق السطح: «من أنت لتهدد الحكومة يا ابن الكلب؟». إذ ذاك رد عليه عباس بهلوان: «أنا عباس بهلوان يا ابن العاهرة. لو كنت رجلاً فانزل إلى تحت حتى أضعك في جحر حكومتك». وأصدر عباس بهلوان أوامره بالقصف. فانسحب الناس إلى الوراء في الوقت نفسه الذي تقدم فيه الجندي الذي كان قد اشترك في حرب فلسطين وصوب المدفع باتجاه المدرسة، ثم أشعل النار في فتيل مربوط بالمدفع وهرول عائداً إلى الوراء، طالباً إلى الناس التمدد على الأرض بين القبور. مر بعض الوقت من دون أن يحدث شيء ما، فرفع الكثيرون رؤوسهم من الملل أو الفضول. وأخيراً حدث الانفجار الرهيب المنتظر الذي هز الأرض تحت أقدام المقاومين الذين رأوا المدفع يتحول إلى كتلة هائلة من النار ترتفع في السماء، عابرة أشجار الحديقة الباسقة ثم تسقط في الشارع قبل أن تبلغ المدرسة. وفزع رجال الشرطة المختبئون وراء ساتر سطح المدرسة في البداية، ولكنهم ما إن أدركوا حقيقة الأمر عندما شاهدوا المدفع مرمياً أمامهم مثل جثة في الشارع، حتى راحوا يضحكون ساخرين، بصوت عال، مرددين أهزوجة جاءت عفو الخاطر:

طوبك ما ينوش الناس

يا عباس بن فرناس

ولم يكفّ رجال الشرطة من ترداد اهزوجتهم إلا عندما أطلق محمود العربي ثلاث رصاصات باتجاه سطح المدرسة الابتدائية فأصاب شرطياً في كتفه، كان يدخن متكئاً على الجدار الساتر. ورد رجال الشرطة على النار بزخات من الرصاص فأصيب الحمار الذي حمل البارود إلى المقاومين والذي كان قد تسلل إلى الحديقة وراح يرعى العشب، وهو أمر لم ينتبه إليه أحد إلا في صباح اليوم التالي، عندما رأوا خيطاً من الدم المتخثر يمتد من ثقب في رأسه، مرمياً على جنبه الأيمن تحت شجرة يوكالبتوس.

لا شك أن هذا الآخفاق الذي مني به المقاومون أزعجهم، فقد كانوا يريدون تلقين رجال الشرطة المعتصمين وراء جدران المدرسة درساً قاسياً. ولكن الأمر لم يكن مهماً. بل إن بعض شيوخ محلة جقور حمد الله على أن مدفع رمضان طار في الهواء، بدل أن تصيب القذيفة المدرسة. فقد كان يمكن لذلك أن يؤدي إلى كارثة، لا يمكن التنبوء بعواقبها. وقالت إحدى النساء: «لا تنسوا أن رجال الشرطة مسلمون مثلنا». ولكن الاعتراض الأشد على تلك العملية المخفقة جاء من معلمي المدرسة الذين كانوا قد انضموا إلى المقاومين. فقد استنكر هؤلاء نسف مدرستهم، متسائلين في الوقت نفسه عن جدوى العملية كلها: «ما الذي تريدونه من رجال الشرطة؟ دعوهم حيث هم». ورد عباس بهلوان بعصبية: «هل تعتقدون أنهم احتلوا المدرسة، طلباً للعلم؟ لقد جاؤوا لإرهابنا وحماية عمال البلدية الذين يريدون نبش القبور. لا بد من طردهم». كانت حجج عباس بهلوان دامغة، بحيث اضطر المعلمون إلى الانزواء جانبا واللجوء إلى الصمت. وفكر بعض العمالقة في اللجوء إلى عملية تكاد تكون انتحارية، وهي مهاجمة المدرسة بقنابل مولوتوف، يلقونها من داخل الحديقة، محتمين بجذوع الأشجار. ولكن فاروق شامل استسخف الفكرة وكشف خطرها،

مؤكداً أن ذلك يمكن أن يؤدي إلى سقوط ضحايا غير ضرورية: «المهم كسب المعركة بأقل قدر ممكن من الخسائر». كانت تلك جملة، قرأها في كتاب لمؤلف روسي عن الحرب العالمية الثانية. وفي الوقت نفسه كان برهان عبد الله وبعض الصبية الآخرين قد حصلوا على صواريخ ألعاب نارية، راحوا يشعلونها، موجهينها باتجاه المدرسة، حيث كانت تنطلق مئزة ومضيئة المكان كله قبل أن تسقط فوق سطح المدرسة أو ترتطم بجدرانها، كاشفة رجال الشرطة الذين كانوا يراقبون المشهد. ولكن الرجال منعوهم من ذلك، لأن الضوء كان يكشف المقاومين أيضاً ويجعلهم هدفاً سهلاً لنيران العدو. كان الليل قد ازداد حلكة وعاد الذين شعروا بالنعاس إلى بيوتهم القريبة، حيث ظلوا يتحدثون إلى بعضهم الآخر عبر سطوحهم الملاصقة التي ما كانت تفصلها سوى جدران واطئة عن أحداث اليوم الذي عاشوه، ممتدحين بسالة عباس بهلوان، ومنكتين في الوقت نفسه على الأزياء الغريبة التي كان العمالقة يرتدونها: «هكذا هم الشباب دائماً: قلب شجاع وعقل صغير». في الحقيقة، ان ذلك لم يكن رأي الجميع. فقد وصفهم عبد الله علي الذي كان قد أمسك بيد ابنه برهان وأعاده إلى البيت لجاره، وهو صاحب مطعم كباب صغير في السوق الكبير قائلاً: «هؤلاء الشبان ليسوا سوى مهرجين. المعركة في نظرهم ليست أكثر من لعبة. هل رأيت كيف أنهم كانوا يتباهون بأنفسهم أمام الناس؟». وقالت زوجته قدرية منوهة بمركز شقيقها خضر: «ما كان ينبغي على خضر أن يذهب إلى بغداد. لو ظل هنا لما حدثت كل هذه المصيبة».

في هذا اللحظة بالذات وكانت ساعة الحائط الموجودة في بيت عبد الله علي قد دقت لتوها اثنتي عشرة دقة. عدها الصبي برهان وهو مستلق على فراشه، شاهد المقاومون الكامنون عند حافة المقبرة

ورجال الشرطة الموجودون فوق سطح المدرسة الابتدائية والناس في المحلات القريبة المطلة على المقبرة، السماء الخالية من الغيوم تبرق فجأة مرتين أو ثلاث مرات ثم ترعد بقوة، جعلت الأرض تهتز تحت أقدامهم، وفجأة اختفى القمر والنجوم وانطفأت أضوية المصابيح الموجودة في الشوارع، فغرقت المدينة في ظلام دامس، وراحت الكلاب السائبة التي تملأ المدينة تعوي بصوت رتيب موحد، والقطط تموء والديكة تصيح، معلنة الصباح الذي ما كان موجودا. واستغرب الناس الأمر، فقد كان ذلك مثيراً للريبة والشك، وظلوا يتطلعون إلى السماء التي كانت قد تحولت إلى فضاء هائل من الظلام. ولكن قلقهم لم يستمر طويلاً. فقد انبثق فجأة من مكان ما من المقبرة عمود من النور، راح يرتفع حتى بلغ عنان السماء، محولا الليل إلى نهار. وتطلع الكثيرون إلى الموضع الذي كان ينبثق منه النور واقترب منه آخرون بقلوب مضطربة وجلة، ولكن النور أعشى أبصارهم فتراجعوا أو ظلوا واقفين. وعندما تأكد الناس من أن النور يتدفق من قبر قره قول منصور، راحوا يكبرون الله واستبدت الحماسة بجماعة صغيرة من أعضاء «الحياة الآخرة» التي انضم إليها بعض الدراويش فراحوا ينشدون على نقر الدفوف:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وزغردت النساء فدوّت هلاهلهن المعلنة للعيد. وأطلق المقاومون الرصاص في الهواء، شاكرين الله على هذه المعجزة التي لا يمكن نكرانها. وقد أصاب الاضطراب حتى رجال الشرطة فراحوا يستغفرن الله، وقد تملكهم الخوف من غضبه. ولكن هذه المعجزة لم تكن في الحقيقة سوى فصل من معجزة، امتدت أخبارها إلى العالم كله وتحدث عنها علماء الروحانيات في حلقاتهم المنتشرة في إيران والهند

وتركيا وأذربيجان. ظل النور الساطع يتدفق ساعة أو بعض الساعة قبل أن يرى الناس حصاناً أبيض مضيئاً، يثب من داخل القبر ويرتفع في الجو، وعلى ظهره قره قول منصور الذي كان لا يزال داخل كفنه. ظل الحصان وفارسه يرتفعان داخل عمود النور حتى أصبحا مثل غيمة معلقة فوق المدينة. كان الميت قره قول منصور يمسك بيده مهمازاً، يهزه كما لو أنه يلوح لألوف الناس الباهتين الذين وقفوا يحدقون فيه. وصهل الحصان ثم انطلق يعدو في السماء المفتوحة أمامه، يضيئه عمود النور الموجه إليه. وساد المدينة صمت يكاد يكون شاملاً، ما خلا بعض الهمسات التي كان الناس يتبادلونها فيما بينهم: «أنظر، هذا هو البراق الذي امتطاه النبي في معراجه إلى السماء السابعة». بصورة ما كان الناس واثقين من أنه البراق، وقد أرسله الله إلى الشهيد قره قول منصور، لأنه ما من حصان كان قادراً على الطيران سوى البراق الذي يرعى العشب في الجنة. وطاف قره قول منصور وهو على البراق دورة كاملة فوق المدينة قبل أن يتوقف مرة أخرى فوق المقبرة، حيث رفع يده الخارجة من الكفن مثل من يصدر أمراً إلى جيش سري مختبىء وراء جبل. وبالفعل ما كادت يده تهبط مرة أخرى إلى الأسفل حتى رأى الناس موجات من طيور لم يروا مثلها من قبل، طيور من ذهب هي بين اللقلق والصقر، تحمل في مناقيرها أحجاراً ملتهبة وترميها فوق رجال الشرطة الذين لاذوا بالفرار، تاركين وراءهم حتى بنادقهم. كانت الحجارة تسقط فوق الأرض فتحرقها، محدثة أحياناً ثقباً يمتد عميقاً في باطن الأرض. وعرف الناس حتى من دون أن يقول لهم ذلك أحد أن الله قد أرسل طيراً أبابيل لتمطر الشرطة بحجارة من سجيل. وأخيراً رفع قره قول منصور يده عالياً، آمراً الطيور بإيقاف هجومها، فتراجعت مرة أخرى، موجة بعد موجة واختفت في الظلام. ثم ضرب قره قول منصور حصانه بالمهماز،

لاوياً عنقه باتجاه السماء فانطلق مثل برق واختفى في الأعالي، في اللحظة نفسها التي انقطع فيها تدفق النور من القبر. وعاد القمر والنجوم إلى الظهور وأضيئت المصابيح في الشوراع مرة أخرى ودقت ساعة الحائط القديمة في بيت عبد الله اثنتي عشرة دقة، عدها الصبي برهان عبد الله، وهو أمر أثار استغرابه. فهذه هي المرة الثانية التي تعلن فيها الساعة منتصف الليل، كما لو أن ما حدث كان خارج كل زمن. ولما لم يجد الصبي برهان عبد الله تفسيراً لذلك وضع رأسه على الوسادة ونام.

عندما بلغ موكب وجهاء كركوك ضواحي المدينة التي كان يحتلها الجيش الذي وضع دباباته على مفارق الطرق، أوقف الجنود السيارات القادمة من بغداد، طالبين إلى الوجهاء إظهار دفاتر نفوسهم التي تثبت هوياتهم الشخصية. ولما لم يكن أحد من الرجال يحمل معه أية وثيقة، إذ ما احتاجها أو سأل عنها أحد من قبل، فقد فتح حميد نايلون باب سيارته وقال للجندي الذي كان يتحدث معه: «لماذا كل هذا؟ لا أريد أن أجادلك. اذهب وناد ضابطك قبل أن تقع كارثة. قل له إن خضر موسى يأمره بالحضور». واحتار الجندي تجاه اللهجة الآمرة التي تحدث بها حميد نايلون معه، فنكس رأسه واتجه إلى خيمة من خيام عدة، كانت قد نصبت على جانب الطريق، وقريباً منها وقفت دبابتان وشاحنة عسكرية للجنود. بعد لحظات خرج من الخيمة التي دخلها الجندي ثلاثة ضباط، اتجهوا إلى حميد نايلون وخضر موسى الذي كان قد نزل هو الآخر من السيارة، واصطفوا مؤدين التحية العسكرية التي رد عليها خضر موسى بشيء من التعالي، قائلاً: «أنا خضر موسى وقد عدت لتوي من لقاء صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني. ما الذي حدث حتى تطلبوا إلى الناس دفاتر نفوسهم؟». اعتذر أحد الضباط بلهجة مرائية عن سلوك جنوده، قائلاً إن تمرداً

وقع في المدينة وأعلنت الأحكام العرفية وإنهم كانوا يتوقعون وصوله لنقله إلى مقر الفرقة الثانية، حيث ينتظره قائد الفرقة والمتصرف ومدير الشرطة. رد خضر موسى الذي بوغت بالأمر: «تمرد، لا أصدق ذلك. حسناً سوف أتوجه مباشرة إلى هناك». ولكن أحد الضباط أبلغه بأدب أن الأوامر الصادرة إليهم تقضي بنقله داخل دبابة، خشية وقوع ما لا يحمد عقباه. ابتسم خضر موسى: «حسناً إذا كنتم تعتبرون ذلك ضرورياً». ثم طلب إلى حميد نايلون أن يقود الوفد وراءه إلى مقر الفرقة الثانية. وصعد إلى الدبابة. ولما كان المكان ضيقاً وخانقاً في الداخل فقد فضل الوقوف. وتقدمت الدبابة على طريق المحطة باتجاه المدينة، يتبعها رتل السيارات العائدة من بغداد.

واستقبل خضر موسى داخل مبنى الفرقة الثانية التي كانت تشبه قلعة مسورة تقع في قلب المدينة عقيد، عربي قال ان اسمه سالم، قاده إلى مكتب يقع في الجهة اليمنى، قريباً من الموقف العسكري الذي كانت نوافذه تطل على شارعين، تفصلهما ساحة، أقيم فيهما مقهيان صيفيان، يمتدان طويلاً بمحاذاة الشارعين. ورفع العقيد سماعة الهاتف، وأدار القرص أربع مرات ثم تحدث مع أحد ما في الطرف الآخر، متبادلًا معه بضع جمل مقتضبة، نهض بعدها وقال: «الجماعة تنتظركم في النادي». وكان يعني بالنادي نادي الضباط الذي كان يقع في الجهة الأخرى من الشارع. وسار الرجلان مشياً على الأقدام، واجتاز خضر موسى والعقيد مدخل النادي الذي كانت تظلله الأشجار، منتهيين إلى غرفة أنيقة، كان يجلس فيها خمسة رجال، نهضوا وصافحوا خضر موسى الذي كان يبدو متعباً، وهو ما لاحظه المتصرف أحمد سليمان الذي قال: «يؤسفنا أننا لم نمنحك وقتاً للراحة. ولكننا محتاجون إلى مساعدتك»، ثم أضاف بعد وقفة قصيرة «لا أدري إن كنت قد التقيت من قبل صاحب المعالي سعيد خوشناو،

وزير الداخلية والمستر جون تيسو، المدير العام لشركة النفط»، فقال خضر موسى بلباقة: «لقد حصل الشرف الآن». أما الرجلان الآخران وهما قائد الفرقة الثانية عدنان الدباغ ومدير الشرطة ناجي الراوي، فكان خضر موسى قد التقاهما فيما مضى، ولو بصورة عابرة. وسأله وزير الداخلية، وهو كردي من السليمانية، بعربية لا تخلو من لكنة: «كيف كان لقاؤكم مع صاحب الجلالة؟»، فأجابه خضر موسى باللغة الكردية، متبسطاً: «كان لقاء لا ينسى»، ثم أضاف بالعربية: «لو فكر كل العراقيين مثل ملكنا لما حدثت أي مشكلة». وقال المستر تيسو الذي كان يترجم له مدير الشرطة، معلقاً بابتسامة مداهنة: «ولكن عندنا مشاكل كثيرة كما ترى يا مستر موسى».

وتدخل وزير الداخلية: «من المؤسف أن ينهار الأمن في مدينة مثل كركوك بالطريقة التي حدث فيها. كان ينبغي تدارك الخطر قبل وقوعه. من المؤسف أن أحياء بكاملها في المدينة ما زالت متمردة على الرغم من إعلان الأحكام العرفية. ولكننا لا نريد وقوع مجزرة، يروح ضحيتها الأبرياء».

قال مدير الشرطة: «المشكلة هي مع الخرافات التي تملأ المدينة قبل أن تكون مع البشر. المدينة كلها تتحدث اليوم عن الميت الذي نهض من قبره وصعد على حصان إلى السماء وعن طيور أبابيل يفترض أنها هاجمت مقرات الشرطة».

وسأل خضر موسى بلهجة جادة: «متى حدث ذلك؟» أجاب مدير الشرطة: «في الليل كما افترض. كنت نائماً على أي حال».

ودخل النادل باستكانات الشاي وأقداح عصير الرمان التي كانوا قد طلبوها. قال وزير الداخلية مخاطباً خضر موسى: «لقد أبلغ صاحب الجلالة نوري باشا بالحديث الذي جرى معكم. ليس صعباً إيجاد حل لقضية الطريق الذي تحتاجه الشركة. والمستر تيسو متفق تماماً معنا.

يمكن للطريق أن تنحرف عن المقبرة وتمر من موضع آخر. هذه مشكلة لن يصعب على المهندسين حلها. ولكن ما هو أخطر من ذلك هو تمرد محلة جقور والمحلات الأخرى وإطلاق الرصاص طوال الليلة الماضية على رجال الشرطة. لا بد من معاقبة المحرضين قبل أن يفلت زمام الأمور من أيدينا. لا يمكن أن نسمح بالمزيد من أعمال العصيان».

رد خضر موسى: «يصعب على تقييم ما حدث خلال اليومين اللذين أمضيتهما في بغداد. لقد نبهت إلى الخطر قبل وقوعه. ومن أجل ذلك قصدت الملك. ولكنني لا أعتقد أن الانتقام من الناس يحل المشكلة». ثم سأل: «ولكن هل هناك ضحايا؟». أجاب مدير الشرطة: «لقد قتل عبد زنجي، يعمل حلاقاً، مصادفة عندما كان المتمردون يطاردون أحد رجالنا». قطب خضر موسى جبينه وقال: «كنت أعرفه، رحمه الله».

وتدخل المستر تيسو الذي ظل صامتاً معظم الوقت: «إنني أميل إلى رأي المستر موسى. لا بد من اللجوء إلى التساهل في التعامل مع الدهماء وإلا انقلب الأمر إلى ضده. في الحقيقة إننا لا نريد التدخل في شؤونكم الداخلية، ولكننا سوف نبذل جهدنا من أجل إيجاد علاقة طيبة مع سكان المدينة. ولذلك أعلن أمامك يا مستر موسى إلغاء طريق المقبرة. وسوف يبحث مهندسونا عن طريق أخرى، تتجنب المرور بالمقابر. وسوف ندفع تعويضات مجزية عن البيوت التي قد نضطر إلى هدمها، بسبب وقوعها على الطريق. والأكثر من ذلك أن الشركة سوف تتولى بناء سور حول المقبرة وترميم أضرحة جميع الأولياء المسلمين المدفونين فيها وتخصيص معاش شهري لرجلين، يتوليان حراسة المقبرة». شكره خضر موسى على هذه اللفتة الطيبة التي قال انها تعيد ثقة الناس بالشركة التي تعتبر عصب الحياة في المدينة، مقترحاً على

المستر تيسو تقديم مبلغ مناسب أيضاً كتعويض لأهل القتيل، وهو أمر استحسنه المستر تيسو نفسه، الذي قال إنه لم يكن قد انتبه إليه. وعند ذاك قال مدير الشرطة بصورة مفاجئة: «حسناً، لقد تنازلنا بما يكفي أمام العصاة. فإذا لم يطلقوا سراح رجالي الأسرى ويعيدوا الأسلحة التي استولوا عليها فسوف أجعلهم يرون الجحيم بعينه». كان ذلك تهديداً واضحاً، مبطناً بالعداء، ولكن خضر موسى تجاهله، مؤكداً: «لا تقلق، سوف يسوى كل شيء»، ثم أضاف، كما لو أنه يرد الصاع صاعين لمدير الشرطة: «ولكن لا بد في الوقت نفسه من معاقبة الشرطي القاتل. أرجو ألا يكافأ على صنيعه». ثم نهض معتذراً بدعوى اللحاق بأعضاء الوفد الذي كان قد حجز في مقر الفرقة الثانية، مغادرا النادي فلحق به قائد الفرقة الثانية، يتبعه حراسه وقاده مرة أخرى إلى القلعة الحجرية، حيث أشار له بطريقة مبهمة: «يمكنك أن تعتمد علي، لن يخذل الجيش الشعب أبداً». وكان خضر موسى قد لاحظ أن عدنان الدباغ ظل صامتاً طوال الجلسة، فأدرك أن الرجل من معدن آخر. وقد صافح وجهاء كركوك واحداً واحداً معتذراً عن ازعاجهم، وقال لخضر موسى وهو يودعه عند البوابة الخارجية، ضاغطاً على كفه: «لا تنسَ أن تزورني، سأفرح بذلك». فرد خضر موسى باحترام: «سوف أفعل ذلك بالتأكيد».

إتجه الوجهاء بعد أن التهموا الكباب في مطعم عثمان كبابجي الذي لم يكن ليبعد كثيراً عن مقر الفرقة العسكرية الثانية إلى مقبرة المصلّى التي كان المقاومون لا يزالون يحتلونها، في موكب مهيب، مخترقين حواجز الشرطة والمقاومين على حد سواء. وقد هز الكثيرون منهم رؤوسهم حزناً على الفوضى التي آلت إليها المدينة التي شعروا أن موجة متعاظمة مقبلة من زمن مجهول ضربتها فامتلأ قلبها بالدموع. «لا لم يضع كل شيء. ما زال هناك الأمل بعد كل شيء»، هكذا فكر

خضر موسى، محدقاً من وراء نظاراته الطبية في البيوت المنخفضة التي يتكوم فوقها الغبار والزمن. وانتاب دده هجري الذي ما كان يفقه أمراً غير أحلامه حنين يكاد يشبه كأساً من الحنظل، يجرعها في كل مرة يأخذه الشعر فيها إلى مغارة الجنون، حنين أسود مثل لطخة من حبر صيني، وقد رشت عليها نقاط بيض وحمر مضيئة وملتمعة، إلى درويش بهلول الذي غاب عنهم في بغداد، ذلك الرجل الذي كان وجهه يذكره بأنبياء التوراة القدامى والذين كانت تصاويرهم تباع على الأرصفة الترابية في الطرف الآخر من المدينة بعشرة فلوس، مع تصاوير أخرى للإمام علي على صهوة جواده وهو يرمح الوحش الأفعوي الذي يهاجمه، وللشمر الذي يحمل في يده رأس الحسين الذي ينقط دماً، وعيناه تحدقان في الموت. وكان حميد نايلون قد سبقهم وانضم إلى المقاومين الذين انتظروه، ربما أكثر من أي شخص آخر، فقد كان وجود حميد نايلون بينهم يمنحهم الشعور بالسخرية من العالم كله. وشعر حميد نايلون أن شيئاً ما قد فاته، فقد كان يريد أن يكون مع أبناء محلته في المعركة التي خاضوها ضد العدو، وطمأن نفسه «ربما لم ينته كل شيء. معركتنا أكثر من مجرد قتال من أجل الأموات». واستغرقته الآمال حتى أنه أهمل إيصال مطبعة الرونيو التي كانت قد أُرسلت معه من بغداد، بدون تفكير حتى بمخاطر عثور الشرطة عليها داخل سيارته. وهذا أمر كان يمكن أن يكلفه أعواماً طويلة في السجن. ولكن رجلاً مثل حميد نايلون ما كان يمكن أن يفكر في الأمور على هذا النحو، إذ أن الخطر وحده كا يحرره من الخوف، شاعراً بنشوة حلمية ترج أعماقه، شبيهة بالنشوة التي يشعر بها عندما يكون مع النساء.

عندما بلغ وجهاء كركوك المقبرة خرجت فجأة من بين القبور أعداد لا تحصى من النساء المتشحات بالسواد وهن يعولن ويلطمن، كما لو

أنهن في مسرحية مدبرة. وصاح خضر موسى بهن: «ما هذا الذي تفعلنه؟» ولكن ما من واحدة منهن ردت عليه، فتجاهلهن واتجه إلى حيث كان يتجمع الرجال، حيث نادى على عباس بهلوان وشبان محلة جقور الذين كانوا يقفون مع الآخرين، قائلاً: «اسكتوهن بحق الله، لماذا كل هذا العويل؟» ثم اعتلى خضر موسى جداراً مهدماً وألقى خطبته التي كان قد فكر فيها طوال الطريق والتي قال فيها: «يا أبناء كركوك الكرام، لقد محق الله الباطل، ان الباطل كان زهوقاً»، معلناً بقاء المقبرة وبناء سور حولها وترميم أضرحة الأولياء وتعيين حارسين لها وتعويض أهل الشهيد قره قول منصور ومبلّغاً إياهم أنه جاء يحمل اليهم تحيات الملك فيصل الثاني شخصياً. ما كاد خضر موسى يوصل إليهم كل هذه الأخبار المبهجة حتى دوى التصفيق في كل مكان من المقبرة ودوت هلاهل النساء. ولكن صوتاً ما ارتفع من داخل الحشد: «نريد أن يعدم الشرطي القاتل علناً هنا وتعلق جثته ليفرح بمرآها الشعب». ورأى آخر أنه لا بد من معاقبة مدير الشرطة نفسه وطالب شيوعي، ارتدى قناعاً للتمويه بطرد المستعمرين الانكليز من كركوك والاستيلاء على شركة النفط وتوزيع أرباحها على العمال والفقراء.

أنصت خضر موسى لكل ذلك بهدوء الواثق من نفسه: «لا تبدو كل هذه المطالب صعبة ما دام الملك نفسه يقف إلى جانبنا»، ثم قال: «والآن أعتقد أن علينا واجب قراءة الفاتحة على قبر شهيدنا قره قول»، من دون أن يترك مجالاً للمزيد من الاعتراض. كان القبر لا يزال في مكانه، حتى وان اعتقد الكثيرون من الذين رأوا معجزة صعود قره قول على ظهر البراق إلى السماء أنهم سيجدون القبر خالياً من ساكنه. وتمتم بعض الحائرين: «لقد رأيناه بأم أعيننا يصعد إلى السماء». ولكن الملّا زين العابدين القادري الذي تقدم الجمع وقرأ الفاتحة ثم أدى صلاة الشهيد، أعلن بصوت هادر سمعه كل الذين

وقفوا وراءه أن الذي صعد إلى السماء والذي رآه المسلمون هو روح قره قول منصور التي قصدت الجنة. أما جسده، وهو بيت الروح فسوف يفنى مع الزمن مثل كل البيوت الأخرى. ولكن ما حاجة الروح التي تحررت من أغلالها إلى الأغلال؟ وأعلن أن الشرف الذي حظي به قره قول منصور من قبل ملائكة الله التي حملته وسط النور إلى السماء هو شرف نادر، يمكّنه من أن يحتل مرتبة الأولياء الخالدين. كانت ثمة في الحقيقة هواجس كثيرة في قلوب الذين عرفوا قره قول منصور عن كثب. فقد كان الرجل حقوداً وكذاباً ومدمناً على الخمرة. ولكن ما دام الله اصطفاه إليه بالطريقة التي شهدها الناس، فلا بد أنه فعل ذلك عن حكمة، يجهلها البشر. وندم الذين كانوا قد خاصموه في حياته أنهم لم يدركوا حقيقته الأخرى التي تجلت في موته. وانتابت العاطفة الناس، تلك العاطفة التي تقرب المرء من الغياب وتطغى على كل قاعدة وعرف، فهجموا على القبر، رجالاً ونساء وراحوا يتمرغون فوقه. غسل العميان عيونهم المطفأة بترابه حتى ترى النور، وزحف المشلولون فوقه حتى تستعيد أرجلهم وأيديهم قوتها، ودست النساء العواقر حفنات من تراب القبر، وهن ملفوفات بعباءاتهن، داخل فروجهن حتى ينجبن الأطفال، والتهم المرضى المصابون بالسل والزهري والبواسير والتيفوئيد والسرطان التراب حتى يشفوا من أمراضهم وأوجاعهم، وانتهز الشبان الفرصة فأسقطوا أنفسهم فوق النساء، ملتصقين بمؤخراتهن اللدنة أو ممسكين بأثدائهن المترجرجة. واشتد الهجوم البشري أكثر فأكثر. ألوف من الناس تتدافع نحو القبر من كل مكان، تريد الوصول إليه. زحفت الجموع التي تناهت إليها الأخبار واختلقت قصص ومعجزات، لم يقم بها حتى المسيح نفسه. وزحف القرويون من الأرياف القريبة حتى لكأنها القيامة التي تنبأت بها النشرات التي وزعت قبل أيام في كركوك، وسحقت الجموع

الزاحفة الساقطين على الأرض بأقدامها وأجهضت الحوامل واختنق الأطفال. أراد شبان جقور الرياضيون السيطرة على الموقف في البداية فأطلقوا النار في الهواء لتخويف الناس وردعهم من الوصول إلى القبر، ولكن الجموع التي هزت ضميرها معجزة قره قول منصور اكتسحتهم أمامها، فاستسلموا أمام الموجة الهادرة القادمة من كل مكان. ولم يسلم وجهاء كركوك من الموت اختناقاً إلا لأنهم تراجعوا في اللحظة المناسبة، معتمدين على شجاعة شبان جقور الذين شقوا طريق خروجهم من المقبرة بالقوة، منقذين حياتهم من خطر حقيقي.

ورغم أن الحكومة ما كانت لتريد أن تتدخل في قضية، لا تخصها، فإنها أرسلت في البداية ثلاث طائرات هليكوبتر، راحت تحلق فوق الحشود البشرية المحيطة بالقبر ساكبة الماء البارد فوق الناس للتخفيف من وطأة الحرارة الشديدة التي كانت تجعل الناس يصابون بالإغماء. لم يكن أحد يعرف تماماً ما يحدث عند القبر. فقد كانت الكتلة البشرية المحيطة به تمتد مسافة طويلة من كل الجهات. وخشي خضر موسى عاقبة إبقاء القبر مفتوحاً أمام الناس، فاتصل بالمتصرف، طالباً إليه ضرورة التدخل والسيطرة على الموقف، قبل أن يصبح خارج كل سيطرة. واضطر المتصرف إلى طلب المعونة من قائد الفرقة الثانية الذي وضع مع ضباطه خطة للسيطرة على قبر قره قول، أطلق عليها اسم «عمليات شعبان مبارك» التي قام خلالها الجنود بالهبوط بالمظلات فوق القبر واحتلاله بعد معارك مع الناس المحيطين بالمكان، في الوقت نفسه الذي احتلت فيه الدبابات منافذ الطرق المؤدية إلى المقبرة، مانعة الناس من الوصول إليها. ولكن الجنود الذين أرغموا الناس على التراجع، وجدوا القبر مفتوحاً تماماً وقد اختفت منه جثة قره قول منصور التي كان الناس قد نهبوها قبل ذلك. فأمر الضابط الذي كان يقود العملية جنوده بطمر القبر مرة

أخرى، في محاولة يائسة منه لإخفاء سر ما كان يمكن إخفاؤه. وقد أحزن اختفاء الجثة المتصرف الذي قرر استعادتها، مهما كلف ذلك من ثمن، قائلاً: «لا يمكن للجثة أن تكون قد تبخرت في الهواء». وأخيراً اتصل مدير الأمن بالمتصرف، مبلغاً إياه أن رجاله عرفوا أن رجالاً من قرية طاووق القريبة هم الذين اختطفوا الجثة، آملين بدفنها في قريتهم التي تخلو من ضريح أي ولي لتحل عليها البركة. وهكذا انطلقت مفارز الشرطة المسلحة إلى القرية التي لم تكن تبعد أكثر من نصف ساعة عن المدينة وحاصرتها من جميع الجهات، مطلقة الرصاص في الهواء. ولكن الخاطفين الذين كان عددهم يزيد عن عشرين قروياً مسلحاً قرروا المقاومة، أثناء انسحابهم إلى البساتين والغابات القريبة، ساحبين وراءهم الجثة التي لفوها ببطانية، شدوها بالحبال. وتابعهم رجال الشرطة الذين تبادلوا معهم إطلاق النار. استمرت المعركة أكثر من ساعة، سقط خلالها قتيلان من القرويين وجرح ثلاثة آخرون وأصيب شرطي برصاصة في قلبه، فسقط على ظهره ميتاً وجرح شرطي آخر في كتفه. وفي طريق الهروب الذي شقه الخاطفون بين الحقول والبساتين انحلت عقدة الحبل الذي شدوا به البطانية فتدحرجت الجثة التي كانت عارية تماماً بعد أن نهب الناس أكفانها عند إخراجها من القبر، إلى إحدى السواقي، فمد أحد القرويين يده وأمسك برجل الجثة، ساحباً إياها وراءه أثناء التقهقر أمام نيران الشرطة. وتبادل الرجال سحب الجثة التي كان جلدها الأسود الملتمع قد انسلخ وتلطخ بالوحل والعشب، ولكنهم اضطروا إلى التخلي عنها عندما اشتد ضغط الشرطة عليهم، مطلقين أرجلهم للريح ومختفين داخل الغابات الكثيفة التي ما كانت الشرطة لتجرؤ على اقتحامها. وهكذا أنقذت الشرطة جثة قره قول منصور الذي كانت روحه قد صعدت قبل ليلة واحدة من ذلك إلى السماء، ممتطية البراق.

وألقيت الجثة التي كانت قد نتنت تماما داخل سيارة جيب نقلتها إلى القشلة. وطبعت الحكومة على عجل منشورات، ألقيت من الطائرة فوق أحياء كركوك كلها، تبشر الشعب بإنقاذ جثة الولي قره قول منصور من بين أيدي مختطفيه الآثمين، معلنة اليوم التالي عطلة رسمية لتشييع الجثمان ثانية في موكب تشترك فيه الحكومة والشعب معاً.

هذه اللفتة التي تعبر عن النية الطيبة للحكومة جعلت الناس ينسون حتى المعارك التي خاضوها ضد الشرطة. وانتشرت إشاعة تقول إن الشرطي الذي قتل قره قول منصور سوف يعدم بعد التشييع مباشرة. وقام الشبان، بتدخل من خضر موسى نفسه بإطلاق سراح الرهائن التي كان قد جرى حجزها داخل غرفة في جامع محلة جقور. ولكن البنادق التي كان المقاومون قد صادروها من رجال الشرطة اختفت تماماً، وهو أمر اضطر معه مدير الشرطة إلى الصمت وإغفاله، في انتظار فرصة أخرى، يستعيد فيها البنادق التي أخذت من رجاله عنوة.

وفي اليوم التالي بدأ موكب تشييع الجنازة من سراي الحكومة، حيث سار في المقدمة عازفو الأبواق بألحانهم الجنائزية الرتيبة ووراءهم حملة الأعلام السود المنكسة. وكان جثمان قره قول منصور الذي ألقيت فوق صدره باقة من الورود الاصطناعية قد وضع في سيارة عسكرية مفتوحة تحيط بها الدبابات من كل جانب، تخوفاً من مهاجمة الجنازة ثانية واختطافها. ووراء الدبابات سار موكب رجال الحكومة ووجهاء كركوك وكبار الاقطاعيين الأكراد الذين كانت الحكومة قد استدعتهم من قراهم ورجال الدين من المسلمين والمسيحيين واليهود، يليهم موكب عسكري كبير، كان يتقدم ببطء على إيقاع الموسيقى، وأخيراً موكب الناس الذين التزموا هذه المرة الهدوء. وفضل الكثيرون، ومن بينهم النساء والأطفال الوقوف على الأرصفة والتفرج على هذا المشهد المهيب. وفي مقبرة المصلى كان

البناؤون وعمالهم ينتظرون وصول الجنازة، إذ ما كاد الجنود يعيدون الجثة إلى قبرها حتى بدأوا ببناء الضريح بالمرمر والجص، وأحاطوه بقبة هائلة، ذات نوافذ من الأعمدة الحديد المتقاطعة وباب خضراء اللون، وضعت فوقها قطعة من البرونز، كتب عليها بالخط الكوفي «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون». وتحت ذلك عبارة «هنا يرقد الشهيد الولي قره قول منصور الذي صعدت روحه إلى السماء». وأعلن المتصرف في كلمة مقتضبة ألقاها أمام الضريح أن صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني قرر تعيين مدير عام، يشرف على إدارة شؤون الضريح وتخصيص ما يكفي من الأموال لترميم قبور جميع الموتى المسلمين الفقراء المدفونين في مقبرة المصلى، تكريماً للشهيد قره قول منصور كرم الله وجهه. وقال أيضاً إن مفرزة من الشرطة سوف تحرس الضريح ليل نهار حتى لا يجرؤ أحد على انتهاك قداسة قبور الأولياء.

كان ذلك في الحقيقة أكثر مما ينتظره الناس. فقد أظهر المتصرف كرماً فائقاً، يكاد يكون خيالياً. ولكن قلوبهم لم تهدأ. فقد كانوا يريدون الانتقام من قاتل وليهم الشهيد، وهو أمر أوقع مسؤولي الحكومة في حيرة من أمرهم. كانوا يعرفون أن الناس لن يرضوا بأي عقاب، أقل من الشنق. ولكن مديري الأمن والشرطة اعترضا على ذلك: «كيف يمكن أن نجعل رجالنا يعملون معنا بعد الآن إذا ما عرفوا أن دفاعهم عن أنفسهم يمكن أن يقودهم إلى الشنق؟». وأخيراً اقترح مدير الشرطة أن تكتفي الحكومة بجلده في ميدان عام تاركة قتله للناس، وهو أمر لم يكن يشك فيه أحد. وفي اليوم التالي اقتيد القاتل إلى ميدان المصلى وعري من ثيابه ثم شد على بطنه إلى خشبة وغطيت قفاه بقماشة حمراء، مبللة بالماء، ووقف وراءه عريف ضخم الحجم، جلده عشرين مرة بخيزرانة، كان يحملها في يده ويهوي بها على

مؤخرته أو ظهره. حاول القاتل أن يسيطر على نفسه في البداية ثم راح يصرخ بطريقة تشبه العواء بعد الجلدة الثالثة، بطريقة أثارت ضحك الناس الذين جاؤوا للتفرج على الشرطي الذي قتل الولي قره قول منصور. وأخذ العرق ينزح من الجلاد الذي كان حفيف خيزرانته وهي تشق الهواء يسمع من بعيد، أما الضحية فكانت قد تلطخت بالدم وكفت حتى عن الأنين. وتنفس العريف الصعداء بعد الضربة الأخيرة، قائلاً: «هذا هو جزاء من يقتل الأولياء». ثم فك الحبال التي كانت تشد القاتل إلى اللوحة الخشبية فحمل الرجال الذين كانوا معه الحبال والخشبة وانصرفوا، بعد أن ألقوا بالضحية على الأرض وبصقوا عليها. وحاول الرجل الذي شعر بالخطر المحدق به أن ينهض في حركة يائسة للنجاة بنفسه، ولكن رجليه خانتاه فسقط على وجهه مرة أخرى. وعند ذلك تقدم ابنا قره قول منصور الأسودان وهما صبيان في العاشرة والثانية عشرة من عمرهما، وكل منهما يحمل في يده سكين حلاقة، جلباهما من دكان والدهما القتيل وقلبا الرجل المنهك على جنبه، حيث أمسك أحدهما بشعره وجره إلى الخلف بينما أمسك الثاني بذقنه بيده، محاولاً ذبحه. ونهرهم رجل دين كان قد خرج من بين الجموع التي تراقب المنظر: «لا يجوز يا بني ذبحه هكذا». ولكن أحد الصبيين طرده: «لا تتدخل، هيا ارجع، لقد قتل والدنا». فرد رجل الدين مضطرباً: «أعرف ذلك يا بني. وجّه رأسه إلى القبلة أولاً ثم قل بسم الله الرحمن الرحيم واذبحه بعد ذلك على بركة الله». وساعدهما في وضع رأس الرجل الذي كان يرفس التراب برجليه ويبدي محاولات مضطربة للنهوض، باتجاه القبلة، ولكنه حين سمع الحديث ورأى السكين تقترب من عنقه انتفض فجأة، فجفل الصبيان اللذان ازدادا تشبثاً به. وعند ذاك جاءت أمهما وهي إمرأة سوداء بدينة وجلست فوقه ضاغطة بمؤخرتها على صدره فكف عن المقاومة،

وقالت لإبنها الأكبر: «هيا اذبحه، ما الذي تنتظره؟»، فجز الصبي عنقه فاصلاً الرأس عن الجسد وتدفق الدم مثل نافورة فوق التراب. ثم رمى بالرأس فوق الأرض ونهض... ولكن ما كادت المرأة البدينة تنهض هي الأخرى ولو بجهد من فوق الجسد الذي فصل عنه رأسه حتى انتفضت الجثة وانتصبت على قدميها ثم راحت تعدو هنا وهناك قبل أن تصطدم بعمود كهرباء وتسقط مرة أخرى على الأرض، هامدة إلى الأبد.

الفصل السابع

ترك الضريح الذي أقامته الحكومة لقره قول تأثيراً عميقاً على حياة محلة جقور، بل ومدينة كركوك كلها. فقد أخذ الناس يتوافدون من كل صوب وحدب لزيارة ضريح الرجل الذي صعد إلى السماء على البراق داخل غيمة من نور. إمتدت أخباره في البداية إلى القرى المحيطة بكركوك، ثم سرعان ما انتقلت إلى التون كوبري وجمجمال وقرة تبة والسليمانية وأربيل والموصل، ثم وصلت بغداد عن طريق المسافرين التجار والجنود. ومنها خرجت الأخبار ليس إلى مدن العراق الأخرى وحدها، وإنما أيضاً إلى سوريا ولبنان وشرق الأردن، بل وحتى إلى العرب الباقين في إسرائيل عن طريق مهربي الأغنام. أما استانبول وأنقره وأدنه والاسكندرونة، فقد عرفت بصعود قره قول إلى السماء عن طريق المسافرين التركمان الذين كانوا يقصدون المدن التركية أكثر مما يقصدون بغداد نفسها. ونقل الحجاج الشيعة من الفرس والهنود إلى كربلاء والنجف والكاظمية روايات مختلفة عن معجزات قره قول إلى طهران وقم وخراسان وإسلام آباد وكشمير. وقد أثارت هذه الروايات في الحقيقة الكثير من الخلافات بين العلماء والمجتهدين والفقهاء المسلمين من السنة والشيعة، وخاصة في تركيا وإيران. فإذا كان الشيعة قد رفضوا في البداية الاعتراف بمعجزات قره قول، فذلك لأنهم لم يصدقوا أن الله يمكن أن يسبغ مثل هذا الشرف الكبير على سني من غير أهل البيت، وهو اعتبار أناني، رده العلماء السنة، مؤكدين على أن الإسلام ساوى بين الناس أجمعين وأنه لا فضل

لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. ولكن كان ثمة ما يدل على التشفي في الطريقة التي نظر فيها العلماء الأتراك إلى الأمر، إذ لم ينسوا أبداً الإشارة إلى أن جد قره قول عمل في خدمة الولاة العثمانيين الذين أنقذوه من غدر العرب الذين كانوا يبغون الإمساك بالعبد لبيعه إلى شيوخ الأحساء في الجزيرة، وهو أمر أنكره العرب بالطبع. فالرجل ما كان يمكن أن يجترح معجزاته المشهودة من دون الأسلام الذي هبط على العرب قبل غيرهم. ولكن هذه المنازعات الدينية سرعان ما انتهت، حيث راح الشيعة يروجون أن الرجل كان شيعياً حتى إذا لم يعلن ذلك، خوفاً من انتقام السنة الذين يعتقدون أن الشيعي يمتلك ذنباً قصيراً في مؤخرته، يعقد على شكل ضفيرة، تحاك بالنمنم. وقد حدث ذلك بعد أن قام شاه إيران رضا بهلوي بإهداء الضريح باباً من الذهب الخالص، مرصعاً بالجواهر، نقشت عليه أبيات من شعر سعدي الشيرازي وعمر الخيام. وأشاع بعض الناس الذين ارتبطت حياتهم بالضريح في محلة جقور وكركوك أن قره قول كان سنياً وشيعياً في آن. كان الهدف واضحاً من هذا الادعاء الغريب، وهو اجتذاب أكبر عدد من الناس الذين كانوا يأتون لزيارة ضريح قره قول. فقد امتلأت الخانات والفنادق بالزوار الوافدين إلى كركوك، وبنيت خانات وفنادق جديدة، من بينها خان الدواب الذي كان يقع عند مدخل محلة الجاي وخان النجوم على طريق محطة القطار وفندق العلمين المطل على نهر خاصة صو والذي كان يديره ساقي باقي، وهو شاب رياضي طويل القامة من محلة جقور، شارك في معركتي كاورباغي والمقبرة وأصيب في كلتيهما بجروح في رجله اليمنى، جعلته يعرج فترة من الزمن. وازدهرت مطاعم بيع الكباب التي رفعت أسعارها. وامتلأت جيوب الفقهاء من طلبة مدارس الجوامع الذين صاروا يقضون معظم أوقاتهم بين المقابر، قارئين سورة البقرة التي

كثيراً ما كانوا يختصرونها لقاء عشرة فلوس، يستلمونها من الزوار على روح الولي قره قول. وكانت تنشب أيضاً معارك بين هؤلاء وتلاميذ المدارس الذين كانوا يأتون إلى المقبرة، حاملين في أيديهم نسخاً من القرآن وينافسونهم في اصطياد الزبائن.

وانتشرت تجارة أخرى في محلة جقور، احتكرها الصبي برهان عبد الله الذي ذاع صيته لبراعته في كتابة الرسائل. وقد اكتسب هذه الشهرة في الحقيقة حتى قبل وقوع معجزة قره قول بسبب الرسائل الغرامية التي كان يكتبها لنساء محلة جقور اللواتي كن يجهلن القراءة والكتابة. كانت الشابات اللواتي يمتلكن صلات غرامية مع شبان، يعيشون في مدن أخرى، ويأملن أن يتقدموا لطلب أيديهن يأتين إلى الصبي ويجلسن إزاءه على الأرض، فاتحات أمامه قلوبهن التي لوعها الهوى والشوق، فيحول ذلك كله إلى كلمات حب ملتهبة ومناجيات غرام، ربما ما تبادل مثلها عاشقان في كركوك من قبل، تعلمها من مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه عن الشاعر العاشق سيرانو دو برجراك، وهو الكتاب الذي كان يقرؤه المرة تلو الأخرى، دون أن يصيبه الملل. كانت الشابات العازبات اللواتي لا يخجلن من الإفصاح عن عواطفهن يكتفين بإعطائه عشرة أو عشرين فلساً. أما المتزوجات اللواتي يمتلكن عشاقاً سريين ويخفن الفضيحة فكن يغدقن عليه العطاء، لضمان صمته. جاءت النساء إليه هذه المرة، لا ليكتب لهن رسائل غرام، فقد كن في معظمهن من العجائز والمتزوجات اللواتي أهملن أنفسهن، وإنما رسائل شكوى موجهة إلى الولي قره قول، يشكون فيها ظلم الزمان وجوره عليهن، طالبات إليه الانتقام لهن من أزواجهن الذين هجروهن أو من ضرائرهن أو جاراتهن. وكانت ثمة أخريات، يطلبن وساطته لتعيين أبنائهن في شركة الآي بي سي أو لدفع البدل النقدي عن مدة خدمتهم الطويلة في الجيش. وكن يأخذن

هذه الرسائل إلى ضريح قره قول ويقفن باكيات، ناحبات أمامه ثم يرمينها عبر أعمدة شباكه المتقاطعة داخل القبة التي كان يوجد فيها القبر الذي غطي بقماشة خضراء مطرزة بالأبريسم، تكومت فوقه الرسائل والنقود، متطلعات في الوقت عينه إلى العربة الذهبية التي كانت قد ركنت جنب القبر، في مواجهة الشباك، وهي العربة التي كان الملك ابن سعود قد أهداها للضريح، حتى لا يبدو الشاهنشاه الإيراني أكثر تمسكاً بالإسلام منه، على الرغم من أن المذهب الوهابي الذي كان يدين به يحرم مثل هذه المظاهر. والحق أن ابن سعود الوهابي الذي أمر بصنع هذه العربة الذهبية من أمواله الخاصة التي كانت تأتيه من واردات آبار النفط التي يملكها في الجزيرة العربية، لم يكن قد فكر في النهاية التي آلت إليها هذه العربة الذهبية المخصصة للمقعدين والتي كان وجودها داخل الضريح يفتقر إلى أي معنى، وهو أمر لم يفكر فيه أحد. وواقع الحال أن فكرة صنع هذه العربة الذهبية خطرت في بال الملك ابن سعود قبل أعوام من مقتل قره قول نفسه، وبالذات في الرابع عشر من شباط العام ١٩٤٥ عندما التقى الملك، في أول زيارة له إلى الخارج بعد ثلاثين عاماً من زيارة كان قد قام بها إلى البصرة، الرئيس الأميركي روزفلت على ظهر الطراد كوينسي في منطقة البحيرات المرة في مصر. قال الملك للرئيس الأميركي الذي كان مقعداً، يجلس على عربة سيارة للمقعدين: «أشعر أنك شقيقي التوأم»، فرد عليه روزفلت: «ولكنك سعيد جداً، لأنك ما زلت تملك رجلين، تحملانك إلى حيث تريد». شعر ابن سعود بالحرج إلا أنه تخلص من الأمر بذكاء قائلاً: «السعيد هو أنت، أيها السيد الرئيس. إن رجلي سوف تثقلان العام بعد الآخر. أما أنت فتستطيع أن تعتمد على عربتك السيارة». عند ذاك قال روزفلت: «من هذه العربة عندي اثنتان، هما توأمان أيضاً. أتراك تقبل إحداهما،

كهدية شخصية؟». ولم يجد ابن سعود ما يقوله سوى: «بكل سرور. ولسوف أستخدمها كل يوم حتى أظل أتذكر دائماً مهديها، صديقي العظيم الطيب». في نهاية هذا اللقاء الحميم أمر ابن سعود وزير ماليته عبد الله بن سليمان بصنع عربة سيارة من الذهب، يرد فيها على هدية الرئيس الأميركي[1]. ولكن روزفلت مات قبل أن ينتهي الملك من صنع العربة التي لم يعرف ما يفعل بها، فظلت مرمية في حديقة قصره، يلعب بها الأطفال والخدم والعبيد أعواماً طويلة، حتى سمع بخبر الباب الذهبي الذي أهداه شاه إيران لضريح قره قول. وعند ذلك خطرت في ذهنه فكرة إهدائها إلى الضريح. فما يهم بعد كل شيء هو أنها كانت تتضمن ذهباً أكثر من الذهب الذي وضعه الشاه في باب الضريح، آملاً أن تكسبه هذه المكرمة ود العراقيين وتقيه شر الهاشميين الذين كانوا يحكمون العراق. وهكذا أمر أحد عبيده بإحضار العربة التي كانت مغطاة بالطين والغبار وخراء الأطفال، وقام بغسلها بنفسه في طرف الحديقة بأنبوب من المطاط، مربوط بحنفية ماء، فاستعادت عربة الذهب أبهتها وبهرجتها السابقة، حتى أنه راح يتجول فيها بين أجنحة حريمه، مثيراً ضحك الأطفال الصغار الذين كانوا يعدون وراءه ويقفزون فوق ظهره. ثم قام وفد من كبار رجال المملكة والدين بإيصال هدية الملك الذهبية إلى ضريح قره قول، وهي هدية، شكره الملك فيصل الثاني نفسه عليها. كان الناس، رجالاً ونساء يتوافدون من كل مكان ويقذفون برسائلهم عبر الشباك داخل القبة، مع قطع النقود المعدنية أو الورقية التي كانوا يجوعون من أجل ادخارها وتقديمها هدية للولي قره قول. أما الذين كانوا عاجزين عن

(١) Wilhelm Kopt: Saudiarabien-Insel der Araber, Seewald Verlag, Stuttgart 1982, S. 78-79.

المجيء إلى كركوك وزيارة ضريح قره قول فكانوا يرسلون رسائلهم بالبريد، حيث يتولى موزعو الرسائل الذين كانوا يستخدمون الدراجات الهوائية، إيصالها إلى الضريح وتفريغها عبر أعمدة الشباك المتقاطعة، وهي رسائل كانت مكتوبة بلغات كثيرة كالعربية والتركية والفارسية والأوردية، ولكن كانت هناك أيضاً رسائل بالعبرية، قام بإرسالها اليهود الذين نزحوا من كركوك، بل وحتى بالروسية والانكليزية والألمانية والفرنسية والتي كتبها أناس كانوا من أهل الكتاب، ثم اهتدوا إلى الإسلام فاعتنقوه. في الحقيقة ان تحول هذا الضريح إلى مزار جلب معه الشر أيضاً مثلما كان قد جلب الخير. فقد أصبح الناس في محلة جقور وكركوك مولعين بجمع النقود التي أثارت بينهم الكثير من المشاجرات والخلافات. فقد خاصم الملّا زين العابدين القادري الذي كان يتطلع إلى أن يعين مديراً عاماً للضريح خضر موسى، متهما إياه بأنه لا يبذل ما يكفي من الجهود عند المسؤولين لتعيينه في هذا المنصب الذي كان يعتقد أنه يستحقه أكثر من غيره، وهو اتهام لم يكن صحيحاً. فعدما طرح خضر موسى إسمه على المتصرف كان متأكدا من نجاح مسعاه، وهو ما حدث، حيث رفع المتصرف الأمر إلى وزير الداخلية والأوقاف، منتظراً صدور قرار التعيين الذي تأخر كثيراً. فقد اكتشف وزير الداخلية الذي كان يحيل الطلبات بطريقة روتينية إلى مديرية الأمن العامة أن الملّا زين العابدين القادري يمتلك ملفاً خاصاً به وأنه متهم بالشيوعية، وهو أمر أخفاه خضر موسى عن الملّا حتى لا يثير القلق في نفسه. ولم يعرف الملّا بالحقيقة إلا عندما استدعته الشرطة وأجرت معه تحقيقاً للهوية وفتحت له صحيفة أعمال، ثبتت فيها براءته من تهمة الشيوعية وولاءه للعرش والملك فيصل الثاني. وظل الملّا القادري محبطاً، لا يكاد ينام بسبب الكوابيس التي كانت تثقل صدره، ولم يستعد حيويته إلا عندما قصده

خضر موسى بعد أسبوعين من ذلك في المقهى وقال له: «لقدأردت أن أكون أول من يهنئك يا حضرة المدير العام، لكي أخفف من زعلك علي». فلم يجد الملّا المضطرب ما يقوله سوى «هل صدر أمر تعييني؟». عند ذاك ناوله خضر موسى كتاب التعيين قائلاً: «تستطيع أن تقرأه بنفسك. والآن لا بد أن تعزمنا على الشاي. «وألقى الملّا نظرة سريعة على الكتاب ثم نهض وقبل خضر موسى في رأسه، معتذرا عن سلوكه الذي قال إنه يخجل منه. ولكن خضر موسى صده برقة: «كفى يا رجل، الأصدقاء يتزاعلون أيضاً». وأمر الملّا صاحب المقهى أن يجلب صينية بقلاوة ويوزع الشاي على الحاضرين الذين علموا بالأمر فأقبلوا عليه يهنئونه على منصبه الجديد. في اليوم التالي قصد المدير العام الملّا زين العابدين القادري المتصرف الذي هنأه على نيل المنصب، عارضاً عليه مكتباً مؤقتاً في السراي، مع اثنين من كتاب الصادرة والواردة، إلى حين العثور له على مكتب خاص به وتعيين الموظفين الذين قد يحتاجهم. ولكن الملّا رفض هذه الفكرة، مؤكداً له أن آخر ما يهمه هو المظاهر والفخفخة وأنه إذا كان قد أراد الإشراف على إدارة شؤون الضريح، فذلك حتى يكون قريباً منه، لا أن يسجن نفسه في غرفة في السراي مثل أي موظف آخر. وعند ذاك قال له المتصرف: «إن الأمر متروك لك، لتقرر ما تراه صحيحاً». فاتجه الملّا بعد ذلك إلى المقبرة، حيث خرج ثلاثة شرطيين من غرفة مستطيلة، اتخذت مخفراً على مقربة من الضريح، مؤدين له التحية العسكرية، فقد كان خبر تعيينه مديراً عاماً قد بلغهم في اليوم نفسه. ورافقه اثنان منهم خلال جولته التي تفقد خلالها الضريح والقبور القريبة منه قبل أن يعود مرة أخرى إلى المخفر ويجلس على كرسي في الهواء الطلق عند مدخل الغرفة المستطيلة التي كانت قد وضعت فيها أربعة أسرة نوم سفرية، متفرجاً على الزائرين الذين كانوا يتقاطرون من

كل مكان للحصول على بركات قره قول. وقد اعتاد الملّا الجلوس على هذا الكرسي كل يوم طوال الفترة التي أمضاها البناؤون في تشييد المبنى الذي اتخذه مقراً لدائرته. وكان هذا المبنى الذي بني من الجص والحجارة والذي يقع خلف مخفر الشرطة، محاذيا لقبة الضريح يشتمل على مدخل، رفع فوقه العلم العراقي بألوانه الأبيض والأحمر والأسود والنجمتين اللتين كانتا تمثلان دجلة والفرات، تقع على جانبيه غرفتان متقابلتان، فرشتا بسجادات عجمية، كان الحجاج الفرس قد أهدوها إلى الضريح، ووسائد مطرزة تبرع بها الحاج أحمد الصابونجي. وكان المدخل ينفتح على فناء، يتوسطه حوض ماء من المرمر ونافورة، لا يتوقف تدفق الماء منها وينتهي بإيوان واسع، ذي أرضية من المرمر ايضاً، وضع فيها تابوت كان الملّا قد أحضره من مسجده في محلة جقور واتخذه مكتباً له يدير منه شؤون دائرته ويستقبل زائريه ومراجعيه وهو جالس داخله. بل وكان ينام فيه أحياناً أيضاً، مستمتعاً بقيلولة الظهيرة التي ما كان بوسعه الاستغناء عنها، وخاصة بعد رش الفناء بالماء البارد. ورغم أن هذه العادة الغريبة جوبهت بالاستهجان من قبل الكثيرين الذين اتهموا الملّا زين العابدين القادري تارة بخفة العقل وأخرى بحب الظهور ومحاولة جذب الأنظار إليه، ورغم أن المتصرف اعتبر هذا السلوك غير لائق بمقام موظف كبير في الدولة، إلاّ أن الملّا أصر على موقفه، مؤكداً على أنه لا ينبغي على المرء مهما رفعه الزمن أن ينسى لحظة واحدة الموت الذي يترصده في النهاية. وقال الملّا في خطبة ألقاها، ذات يوم جمعة في مسجده، واشتهرت بإسم «خطبة التابوت» إن ما يفسد قلب المرء ليس إغراء الحياة وإنما نسيان الموت. إن من حق كل كائن حي أن يستمتع بزمنه ولكن هذه المتعة تمتلك أبعاداً خيالية، إذا ما عرف المرء أن ثمة موتاً يترصده في النهاية. وإذا ما تذكر الناس هذه الحقيقة فلن يكون هناك

حاكم يظلم رعيته أو وجيه يتباهى بمجده أو غني يبخل بماله. وقال الملّا القادري أيضاً: «إن الحكمة الحقيقية في هذه الحياة تتجلى مرتين، مرة عندما يولد المرء وأخرى عندما يموت. كلنا محكومون بالولادة وكلنا محكومون بالموت. وما عدا ذلك زبد تتركه الموجة على الساحل». وتأثر الملّا زين العابدين القادري بهذه الحقائق التي تجلت له دفعة واحدة، حتى بدون أن يكون قد فكر فيها من قبل، فانسكبت الدموع من عينيه وهو يقول: «لا ينبغي لي وقد أصبحت مديراً عاماً أن أنسى هذه الحقيقة. ما من نبي أو ولي إلا وكان يحمل تابوته على كتفيه. فلماذا لا يكون لي أنا الآخر أيضاً تابوتي؟». هذه الخطبة المؤثرة التي أفحمت المتقولين وأغلقت أفواههم رفعت في الحقيقة من قدر الملّا زين العابدين القادري الذي أظهر براعة فائقة في الوصول إلى الحكمة الإلهية، حتى أن المتصرف نفسه اضطر بعد أيام من هذه الخطبة التي نشرت نصها جريدة «كركوك» إلى القيام بزيارة مجاملة له في مكتبه، حيث استقبله الملّا كالعادة، وهو مضطجع داخل التابوت الذي كان قد عبأه بفراش ووسائد من الريش. وجلس المتصرف في الإيوان الذي كان الملّا قد فرشه بالسجاد والوسائد، على طريقة الدواوين العربية واحتسى فنجانين من القهوة المرة قدمها له رجل من دلة يحملها في يده، كان من الواضح أنه يخدم في الدائرة. وبادره المتصرف ممازحاً: «ما كنت أعتقد أنك تملك مثل هذا المكتب المريح. إنك لن تعاني من وجع الظهر مثلي على الأقل». فرد الملّا الذي كان قد انسحب قليلاً إلى الخلف، رافعاً رأسه إلى الأعلى: «لقد جربته يومين بدون فراش فكاد ظهري ينقصم من الألم. إنه لا يطاق حقاً. فليرحم الله الموتى الذين يوضعون فيه عراة، لا يستر أجسادهم سوى الكفن».

كان سلوك الملّا زين العابدين القادري بدعة ما قام بها أحد قبله،

ولكنها أثبتت لسكان محلة جقور أن نبع النور الذي ظلوا يغرفون منه طيلة أجيال لم يجف، رغم الفساد الذي جلبه تدفق الحجاج الإيرانيين والهنود والأتراك على المدينة. فقد أهمل الرجال أعمالهم وهرب التلاميذ المراهقون من مدارسهم وراحوا يحومون حول الضريح، محاولين اصطياد الزائرات الغريبات القادمات لطلب شفاعة قره قول. وقد ابتكر بعضهم طرقاً غريبة في اجتذاب النساء وإغرائهن مثل ارتداء الجبة والعمامة ووضع اللحى المستعارة، كما ادعى بعضهم الحوز على ملكة السحر وذبح الجن الذين يتلبسون أجساد النساء ويمنعونهن من الإنجاب. وكانوا يستدرجونهن إلى بادية المصلى الواقعة على الطرف القصي من المقبرة في الليالي المظلمة ويقيمون ما كانوا يسمونه «ليلة الجن». وسواء أكانت الزائرات الباحثات عن الأمل يتبعن هؤلاء الشبان عن إيمان بالقدر الذي ينتظرهن أو رغبة في الوصول إلى عالم الأرواح، فإنهن كن واثقات من أن ثمة عالماً تسقط فيه الحدود بين الممكن واللاممكن وينقلب فيه كل شيء إلى نقيضه، حتى لكأن العالم يسير بالمقلوب. وكن يردن الوصول إلى هذا العالم الذي ربما حمل اليهن الخلاص. كانت النساء الملفعات بالعباءات يتسللن في الليل الداكن عبر القبور وهن يقرأن سورة الفاتحة إلى أنقاض طاحونة من القرن الماضي، مهتديات بضوء شمعة خافتة، وضعت فوق جدار خرب مواجه للمدينة. وفي داخل الطاحونة كانت ثمة شموع مضيئة فوق حجر الرحى الدائري الكبير الذي يتوسط المكان، يجلس فوقه رجل عار تماماً إلا من قناع أحمر، يغطي عينيه ويرتل بطريقة رتيبة هي ما بين الغناء والعواء آيات بالمقلوب من قرآن مسيلمة الكذاب ومن رباعيات عمر الخيام بالعربية والتي نظمها أحمد الصافي النجفي، وهو يقرع بقبضته بين الحين والآخر إناء من الألمنيوم الرخيص. وحول حجر الرحى كان ثمة شبان عراة يطوفون، باكين ولاطمين

بأكفهم على صدورهم. وكانت النساء اللواتي يصلن إلى الطاحونة يؤمرن بنزع عباءاتهم والطواف حول حجر الرحى، حتى يتملكهن التعب. ثم يهبط الرجل الجالس فوق حجر الرحى، حاملا في يده خنجرا ويمسك بواحدة من النساء من يدها ويجعلها تصعد فوق حجر الرحى ويطفىء الشموع بنفسه. وعند ذاك كان كل واحد من الشبان يحتضن امرأة في زاوية مظلمة من الطاحونة ويرتفع نداء حيواني جماعي متكرر رتيب «أخرج، أخرج» بينما تظل المرأة الواقفة فوق حجر الرحى تتمايل يميناً ويساراً، حتى تدخل في الحال وتقترب من النشوة فيصعد الشاب، حامل الخنجر ويعريها من ملابسها قطعة بعد أخرى، فتفعل النساء الأخريات مثلها، ثم تتمدد فوق حجر الرحى ويرمي الشاب فوقها عباءة، يغطي بها جسمها، ثم يدخل هو الآخر تحت العباءة، مرددا كلمات غامضة، هي أقرب إلى لغة الشيطان منها إلى لغة البشر:

تعم لبم باخو هلم
سر يا مجل تاج محل
جان قدر سنبل بحر
بلبل دلم قلب الجلم

وخلال ذلك كانت النساء الأخريات يتمددن هن أيضاً في زوايا الطاحونة فيغطيهن الشبان بعباءاتهن ثم يدخلون تحتها، بادئين ذبح الجن، حيث كان الواحد منهم يذبح في الأغلب أكثر من جني يتقمص المرأة التي يعالجها، حتى أن أحدهم ذبح ذات مرة خمسة من الجان المردة الذين كانوا يقيمون في رحم إحدى النساء. وكان الشبان يلفون بعد ذلك حول زنودهن تمائم خرق خضراء، تقيهن شر الجن إلى الأبد. وعند ذاك كانت النساء يمددن أيديهن إلى جيوبهن ويدفعن

بسخاء، مقبلات أيديهم على إنقاذهن من شرور الشيطان، ثم يتسللن، ملفعات بعباءاتهن السود ويغبن داخل الليل.

صحيح أن الناس راحوا يحمدون قره قول الذي أفادهم ميتاً أكثر مما فعل ذلك حياً، إلاّ أن منظر الأموال التي كانت تمطر فوق ضريحه جعلتهم ينسون حتى معجزة امتطائه البراق والصعود إلى السماء. وقد شعر الكثيرون منهم أنهم أحق من ضريحه الحجري بهذه الأموال. فالضريح لا يأكل في حين أن أطفالهم يجوعون. وماذا يفعل قره قول الذي لا بد أنه يتوسط الآن حلقة من الملائكة، جالسة في حديقة غناء في الجنة تسبح بذكر الله، بالذهب والفضة والدينار العراقي والتومان الأيراني والليرة التركية والروبية الهندية؟

هذه الأفكار الشيطانية راودت الكثيرين حتى أنهم ما عادوا يأبهون بشيء من أصول الدين، بل إنهم نسوا أركان الإسلام الخمسة التي استبدلوا بها أركانا أخرى، قالوا إنهم أرغموا على اتباعها. وكان أول الذين أغواهم المال هم سعاة البريد الذين راحوا يفتحون الرسائل الموجهة إلى قره قول، بحثاً عن النقود الورقية التي كانت النساء في العادة يضعنها وسط الأوراق المطوية لرسائلهن. ثم تبعهم رجال الشرطة الذين كانوا يحرسون الضريح. فقد فرض هؤلاء على كل زائر وزائرة للضريح ضريبة زيارة، سنها المفوض المسؤول عن المخفر. وعلى الرغم من تفاهة قيمة هذه الضريبة فإن المدير العام الملّا زين العابدين ألغاها، مهدداً بإنزال أقصى العقوبات بكل من تسول له نفسه وضع حاجز بين المسلمين والوصول إلى ضريح قره قول. ولم تجد نفوس رجال الشرطة الراحة الا بعد أن قام المدير العام بتعيين كل من عباس بهلوان ومحمود العربي مشرفين على الضريح، مكافأة لهما لبطولتهما في المعركة التي قاداها ضد الشرطة دفاعاً عن مقبرة الأجداد، على حد زعمه، في حين أن ما أرغمه على فعل ذلك هو

خوفه منهما ومحاولة كسب ولائهما له. في الحقيقة، إن عباس بهلوان ومحمود العربي لم يلجآ حتى إلى الوساطة. فقد التقيا الملّا ذات يوم في محلة جقور وقالا له بين الجد والهزل: «لقد سمعنا أنك عينتنا مشرفين على الضريح. ما كان ينبغي لك أن تفعل ذلك يا ملّا قبل أن تستشيرنا على الأقل، ولكن الخير في ما حصل، إننا موافقان». وارتبك الملّا معتذراً: «كنت أعرف أنكما ستوافقان. ما كنت لأقبل أن أكون مديراً عاماً بدون وجودكما إلى جانبي». وقد بدأت صداقة عميقة بين عباس بهلوان ومحمود العربي ورجال شرطة المخفر منذ اليوم الأول من عملهما في «المديرية العامة للإشراف على ضريح الولي قره قول». وهذا هو الإسم الرسمي الذي أطلق على الدائرة منذ البداية، والذي قام هاشم الخطاط، وهو أشهر فنان في بغداد بكتابته بالخط النسخ على لوحة فضية، علقها الملّا زين العابدين القادري في الواجهة المقوسة لمدخل مديريته الذي صبغه باللون الأخضر. فعندما أبدى رجال الشرطة ما يعتمل في صدورهم من شكوى، بسبب إقدام المدير العام على إلغاء ضريبة الزيارة ضحك عباس بهلوان قائلاً: «إذا كانت همومكم متعلقة بالنقود فانسوها بعد اليوم. سوف تكون لكل واحد منكم حصة من النقود التي يستلمها قره قول. هل كنتم تعتقدون أن باباً مغلقاً، يضع الملّا مفتاحه في جيبه يمكن أن يعيقنا من الوصول إلى الأموال التي يمتلىء بها الضريح؟ ترى ما الذي تعلمه محمود العربي طوال حياته غير معالجة الأبواب المقفلة؟». ورد محمود العربي الذي كان يحتسي استكاناً من الشاي في مخفر الشرطة، قائلاً: «هناك دائماً طريقة واحدة على الأقل لحل أي معضلة». هذا التأكيد الذي أعاد الأمل إلى قلوب رجال المخفر بعد الضيق الذي عانوه، جعل مفوض الشرطة ينهض ويعانق كلاً من عباس بهلوان ومحمود العربي وهو يقول: «لقد استبشرت خيراً بكما

منذ البداية. كنت أعرف أنكما ستفكران بنا». وقلده رجاله في ذلك، حتى ان شرطيا من تلعفر قبل يد محمود العربي، وقد غلبته عواطفه قائلاً: «ليبارك الله لك يدك يا بني، هذه اليد سوف تمنعنا من أن نمد أيدينا لنتسول كل من هب ودب وتصون لنا كرامتنا». وتأثر عباس بهلوان ومحمود العربي بعواطف هؤلاء الناس، فقد كانا يعرفان أن رواتبهم التافهة لا تكفي حتى لإشباع أطفالهم. صحيح أن العمل عند الحكومة يمنح المرء مقاماً، يحسد عليه داخل المجتمع، حتى إذا كان مقام شرطي، ولكن كيف يمكن للمرء أن يعيل أطفاله إذا كان ما يستلمه في نهاية كل شهر هو سبعة دنانير، تتبخر خلال أسبوع واحد فقط؟ وقد طاف الرجلان حول الضريح بعد ذلك، متفحصين كل شيء في المكان حتى لكأنهما يريدان التعرف على قوة الخصم الذي سيواجهانه. وألقى محمود العربي نظرة على القفلين المزدوجين لباب الضريح وقال، مخاطباً عباس بهلوان: «لن يكون صعباً كسر هذين القفلين. ولكن ليس هذا ما نريده، إذ أن الملا سوف يكتشف الأمر في اليوم التالي. هناك طريقة أسهل بكثير من كسر القفلين. سوف نحصل على ما نريده حتى بدون فتح الباب»، فرد عباس بهلوان ممازحاً: «أعرف أنك لص، أما إذا كنت تمارس السحر أيضاً فهذا أمر جديد علي». فألقى محمود العربي نظرة متأملة على عباس بهلوان وهو يضيق ما بين حاجبيه الكثيفين: «لا يحتاج الأمر إلى سحر وإنما إلى عقل، وهذا هو بالضبط ما ينقصك». فشتمه عباس بهلوان بود «وهذا هو بالضبط ما يجب أن تثبت وجوده في رأسك الفارغ». فقال محمود العربي: «حسناً، سوف ترى ذلك في المساء عندما يكف الناس عن زيارة الضريح». وكانت الطريقة التي ابتكرها محمود العربي للوصول إلى النقود المتناثرة داخل الضريح بسيطة حقاً، حيث جلب عصا طويلة، ألصق بطرف منها قطعة من اللبان المعلوك، مررها عبر

الأعمدة المتقاطعة لنافذة الضريح، ملتقطاً بها النقود الورقية والمعدنية، قطعة بعد أخرى، تاركاً عن عمد بعضها حتى لا يفطن الملّا زين العابدين القادري إلى الحيلة والذي كان يفتح باب الضريح عادة مرة في الأسبوع، وهو صباح كل يوم جمعة، لجمع النقود المهداة والتي كان يسجلها فقيه مسجده عزيز شيروان الذي اعتمده سكرتيراً خاصاً له في دفتر كبير كان قد اشتراه له لهذا الغرض، معتبراً إياها تبرعات أوقاف للضريح. ولم تكن هناك بالطبع خزانة يضع فيها الملّا النقود وإنما أكياس من الخام، كان ينقلها معه إلى البيت، واضعاً إياها في جرار دفنها تحت نخلة غير مثمرة، مؤكداً على أنها أمانة عنده وأن على المرء أن يصون الأمانة مثلما يصون ماله الخاص.

في الحقيقة، إن الهدايا الكثيرة التي كانت تقدم إلى الضريح ويستلمها الملّا زين العابدين القادري بنفسه كانت من التنوع بحيث يصعب حصرها؛ ليرات ذهب وقلائد جواهر وأسورة فضة وساعات نادرة من الصين وتحف من سوريا، كان الملّا زين العابدين القادري يضعها في جرار إضافية ويدفنها تحت النخلة الوحيدة في فناء بيته، مخفياً سرها حتى عن زوجته التي كان يتعمد دفعها إلى زيارة بيت أختها أو الجيران، لينفرد بنفسه بعد ان يكون قد أغلق باب البيت بالمزلاج. ولكن كانت ثمة أيضاً هدايا أخرى، لا يمكن دفنها. كان القرويون يأتون بالكثير من البيض والدجاج والماعز والغنم. أما التجار فكانوا يقدمون أكياس سكر ورز وحنطة وصناديق شاي. وبالطبع ما كان كل ما يقدم من هدايا يصل إلى الملّا زين العابدين القادري. فقد كان رجال الشرطة ومعهم عباس بهلوان ومحمود العربي يستقبلون حاملي الهدايا من بعيد ويغرونهم بوضعها في مخفر الشرطة، باعتبار أن المخفر هو مخفر قره قول نفسه. ولكن الكثيرين كانوا يرفضون ذلك، مصرين على إيصالها حتى شباك الضريح ومن ثم تسجيلها

رسمياً عند كاتب الواردة. وهنا أيضاً كان جزء من الهدايا يتوزع بين الكتاب والموظفين ومن بينهم سكرتير المدير العام عزيز شيروان الذي كان يسلم معظم ما يصله من بيض ودجاج وخراف وسكر وشاي ورز وحنطة إلى القيادة الشيوعية للمدينة. وقد جعلت هذه الخيرات قائد المنظمة يقر: «لولا هذا الولي قره قول لمات الحزب جوعاً»، مقترحاً رفع توصية إلى اللجنة المركزية لمنحه ميدالية «النجمة الحمراء» عندما يصل الحزب إلى السلطة.

واحتار الملاذ زين العابدين القادري في ما يمكن أن يفعله بالهدايا التي يصعب وضعها داخل جراره. فقد قام في البداية، والحق يقال بتوزيعها على فقراء محلة جقور والمحلات الأخرى، ثم عدل عن ذلك، معتقداً أن الإفراط في الأمر قد يفسد الفقراء، حيث راح يبيعها لأصحاب الدكاكين، مضيفاً نقوداً جديدة إلى النقود المدفونة. ثم انتهى إلى فتح حانوت في السوق الصغير، يشرف عليه صهره الذي كان عاطلاً عن العمل، لتسويق ما يصل إلى الضريح من هدايا غير قابلة للدفن، أطلق عليه اسم «مخزن الضريح الإسلامي».

وعلى الرغم من الحرص الذي كان الملّا زين العابدين القادري يظهره تجاه أموال المسلمين التي كان يقول إنها أمانة في عنقه، فإنه لم يسلم من القيل والقال، وهذا أمر مألوف في مدينة مثل كركوك معروفة بحسد سكانها. وقد ارتكب الملّا زين العابدين القادري الذي لم تغادره عقلية إمام المسجد حتى بعد أن أصبح مديراً عاماً، أكثر من خطأ في تعامله مع منصبه الكبير. فقد كان من اللياقة أن يحول جزءا من خيرات الضريح إلى المتصرف ومدير الشرطة وكبار رجال الدولة الآخرين في المدينة ولكنه لم يفعل ذلك. بل انه نسي حتى وزيري الداخلية والأوقاف وكأنهما فزاعتا عصافير، على حد تعبير خضر موسى الذي لمح إلى الأمر مواربة في إحدى جلساته في المقهى مع

الملّا زين العابدين القادري. ولكن الملّا رد عليه بطريقة، جعلته لا يعود إلى الموضوع ثانية: «أنت: تريدني إذن أن أدفع رشوة من أموال هي ليست لي وأن أفرط بالثقة التي وضعها المسلمون في».

أما الأمر الآخر الذي استفز به مشاعر الناس وأثار حفيظتهم فهو أنه راح يُخرج عصر كل يوم عربة الملك ابن سعود الذهبية ويستقلها، متوجهاً بها إلى المقهى، بدعوى أن رجليه تعانيان من الروماتيزم وأنه يصعب عليه السير على الأقدام. ورغم أنه كان يأخذ معه دائماً شرطيين مسلحين لحراسة العربة الذهبية، فإن الأطفال كانوا يتعقبونه، صارخين ومغنين حتى باب المقهى. وكان الرجال الذين يصادفونه في الطريق يقفون، مبهورين بما تراه أعينهم والنساء يندفعن إلى أبواب بيوتهن، لإلقاء نظرة على الملّا وهو يقود عربته الذهبية.

لم يكن الملا زين العابدين قد قصرّ بحق أرملة قره قول البدينة وأطفالها الأربعة، رغم الإشاعات التي تناهت إلى سمعه من أن ثمة غرباء يترددون على بيتها وأنها تتزين أكثر مما ينبغي، وهو أمر لا يليق بأرملة ولي من أولياء الله، مردداً أمام الآخرين: «إن بعض الظن إثم». فقد كان يرسل إليها كل أسبوع ما تحتاجه من سكر وشاي ورز ودجاج، فضلاً عن خمسة عشر ديناراً، وهو راتب شهري خصها هي وأطفالها به، كانت تأتي وتستلمه بنفسها. ومع ذلك فإن الشيطان وسوس لها فراحت تطالب، ربما بتحريض من عشاقها أو جيرانها أو حتى بتأثير من العبيد الذين كانوا يتوافدون على بيتها من مصر والسودان والحبشة والسنغال وساحل العاج، بحصة فعلية لها في الهدايا التي تقدم إلى ضريح زوجها، مشيرة إلى أن أطفالها الصغار اليتامى أحق بركوب عربة الملك ابن سعود الذهبية من الملّا زين العابدين القادري المبتلى بالخرف وحب العظمة. ورفعت عن طريق محام، عرف بكسب قضاياه التي يرافع فيها عن طريق رشوة الحكام،

دعوى إلى محكمة بداءة كركوك الثانية، طالبت فيها باقتراح من قاضي كركوك الشرعي، بالحصول على أربعة أخماس الهدايا التي تقدم إلى ضريح زوجها، مستندة في ذلك إلى الفقه الإسلامي الذي يحدد حصة بيت المال من أي ربح أو تجارة بالخمس. وقد أغاظ ذلك الملّا زين العابدين القادري كثيراً، حتى أنه راح يتهمها جهاراً بتحويل بيتها إلى ماخور، يجتمع فيه الرجال والنساء، وبممارسة السحر الأسود، وهو أمر لا يليق بمقام قره قول. أما الأرملة السوداء البدينة فقد ادعت، بدون أن يصدقها أحد، أن الملّا زين العابدين القادري راودها أكثر من مرة عن نفسها وأنها التزمت الصمت، خشية الفضيحة واحتراماً لمقام زوجها العالي. وأصيب الملّا زين العابدين القادري بما يشبه اللوثة وهو يسمع هذا الاتهام ينقل إليه فراح يصرخ بأعلى صوته: «إنه لأهون عندي أن أضاجع بقرة على أن أقترب من فرج هذه القربة السوداء»، وقال بعد أن سيطر على نفسه: «لا أدري لماذا يبتلي الله عباده الصالحين بنساء فاسدات من أمثال هذه الأرملة؟ لا بد أن في ذلك حكمة، لا تدركها عقولنا القاصرة. كان الله في عون قره قول الذي عاش مع هذه القحبة. ولكن سبحانه وتعالى عوضه عن دنياه بالآخرة، حيث يعيش الآن في الجنة، تحيط به الحور الحسان. وشتان ما بين جمال تلك الحوريات وأدبهن وقبح هذه الأرملة وفساد أخلاقها».

وانقسمت مدينة كركوك إلى فئتين متنازعتين، كل فئة تؤيد طرفاً في هذا النزاع الذي اعتبره الكثيرون متعلقاً بمصيرهم نفسه. فقد رأت فئة من الناس أن الأموال كلها هي من حق قره قول نفسه، وهذا يعني شرعاً أنها تؤول إلى زوجته وأبنائه، ما دام هو نفسه غير قادر على استلامها، بسبب انتقاله إلى السكن في الجنة. وأعلن علماء دين عديدون في بيان أصدروه بتأثير من محاميها الذي كان يأمل في كسب

الدعوى، أن تجارة المسلم تؤول بعد وفاته إلى ابنائه وأنه لا يحق للحكومة أو لأي جهة السطو على هذه التجارة ومصادرتها، مؤكدين رفضهم للشيوعية التي تنهب أموال المسلمين أو تؤممها، دون وازع من أخلاق أو ضمير. وطالب هؤلاء العلماء في بيانهم الحكومة بإعادة الحق إلى أهله، والملّا زين العابدين القادري بالتخلي عن وظيفة، قائمة على انتهاك مبادىء الدين.

وإذ شعر الملّا زين العابدين القادري بالخطر يحيق به وبأنه مهدد بخسارة كل شيء إضطر إلى أن يلجأ مرة أخرى إلى خضر موسى، عارضاً عليه الأمر، ولكن خضر موسى الذي كان قد ضغن على الملّا منذ اليوم الذي رفض فيه أن يقدم جزءاً من خيرات الضريح إلى مسؤولي الدولة، متهماً إياه بمحاولة إفساده، ظل بارداً وكأن الأمر لا يهمه. ولم يفتح فمه إلا ليقول للملّا زين العابدين القادري: «لقد بذلت جهدي لتحصل على منصبك هذا، أما ما عدا ذلك فلا علاقة لي به، دبر أمورك بنفسك». هذه الكلمات القليلة وحدها كانت كافية لتجعل الملاّ، ذا الأعصاب المنهارة أساسا، ينفجر في ثورة غضب أثارت استغراب خضر موسى نفسه: «أعرف أنك تحسدني على النعمة التي حصلت عليها. لا تنسَ أنك كنت غناماً وسوف تظل كذلك في نظري»، فرد عليه خضر موسى بإباء: «لن أنسى ذلك أبداً»، ثم نهض وغادر المقهى، عائداً إلى بيته. وانتابت الملّا نوبة من السعال الشديد الذي جعله يبلغ حد البكاء، مدركا أنه قد ذهب أكثر مما ينبغي وأنه قد غامر بكل شيء عندما تطاول على رجل يدين له بكل ما حصل عليه. وعلى الرغم من شعور الملّا بالخسارة، فقد قرر مقاومة أطماع أرمة قره قول ومحاميها. كانت تنتظره معركة صعبة بعد أن فرط بصداقة خضر موسى وحمايته له. فكر في أن يذهب إليه ويعتذر عما بدر منه تجاهه. ولكن خجله من نفسه منعه من أن يفعل ذلك. «يمكن أن أفعل

ذلك غداً. سوف أفعل ذلك فيما بعد، وإلا بدوت أهوج وأخرق». دفع ثمن الشاي الذي احتساه وخرج إلى الشارع، وقد خالطه شعور بأنه ليس سوى جثة تسير على قدمين. ما كاد الملّا يبلغ حانوت الحلاقة القريب، حتى رأى حميد نايلون يخرج من المحل. كانت آثار البودرة لا تزال على مؤخرة عنقه ورائحة عطر تفوح منه. قال حميد نايلون: «هل تعجبك يا ملّا تسريحة شعري؟ هذا الحلاق الصغير ياووز يملك أصابع، تعرف كيف تقص الشعر. مشكلته دائماً هي مع القمل الذي يحمله الناس إليه داخل شعورهم». وانفرجت أسارير الملّا: «هل تعرف يا حميد؟ أنت تعرف كيف تتعامل مع هذه الدنيا اللعينة».

قال حميد هازلاً: «يمكنك أن تتعلم ذلك إذا أردت». والتمعت عيناه المستديرتان مثل العيون التي يرسمها الأطفال في دفاترهم بابتسامة ود.

ـ: «لا، لن أتعلم ذلك أبداً. الشيطان يسكن تحت لساني. ما إن أفتح فمي حتى تندلق منه رائحة المزبلة».

وفكر حميد نايلون، يا له من شيخ خرف. أمر محزن حقاً. لا يزال يعيش على الأحلام. لماذا يظل المرء يأمل حتى النهاية؟ ما الذي يريده هذا الملّا من العالم؟ ربما اعتقد أنه باق إلى الأبد. إنه مسلم على أية حال «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً». أما أنا فأعمل لدنياي كأنني أموت غداً. لا ينبغي أن أقول له ذلك. إن المرء يموت في اللحظة التي يفقد فيها الأمل. هذا العجوز ما زال قادراً على الأمل.

وخطا الملّا إلى الأمام، واضعاً كفه اليابسة على كتف حميد نايلون برفق. ثم انتبه فجأة: «لحظة»، وتحسس بإبهامه الزلف: «كان ينبغي لحلاقك أن يقصر الزلف أكثر مما فعل. الشبان يطيلون زلوفهم هذه الأيام، متشبهين باليهود. آه، لا يهم ذلك. لماذا لا تأتي إلى الصلاة في الجامع يا حميد؟ لا ينقصك شيء سوى الاهتداء إلى الله».

ـ: «هل تعتقد حقاً أن الجامع هو بيت الله؟ أعتقد أن الله يحبذ السكن في القلوب، بدل جامعك الذي يمتلىء برجال يضرطون مع كل ركعة».

فرد الملّا مداعباً: «يا لك من زنديق. ولكنك بدون ذلك لا تعادل فلساً واحداً».

توقف حميد أمام دكان، يشبه حفرة داخل جدار واشترى علبة سجائر ماركة كات. قدم لفافة إلى الملّا الذي قال بإباء: «أنت تدخن سجائر أبو البزون وتصفف شعرك بالدهن الأزرق. هكذا هم الشباب دائما. أما نحن العجائز فليتغمدنا الله برحمته الواسعة».

أشعل حميد نايلون لفافته. بدأ المساء يهبط وئيداً فوق المدينة. قال الملّا زين العابدين القادري: «إذا لم يكن عندك ما تفعله يمكننا أن نجلس في المقهى، أريد أن أدعوك إلى احتساء استكان من الشاي على حسابي».

ـ: «إعتقدت أنك تريد أن تدعوني إلى وليمة خروف محشي. ما الذي يضمره قلبك؟ أعرف أنك مرهق بسبب قحبة قره قول. هيا قل لي ذلك. إنها حية تسعى. ما كان ينبغي لك أن تتورط معها».

ـ: «أجل، إن الأمر يتعلق بهذه القحبة. ولكنني غلطت مع خضر موسى، وتجاسرت عليه. رفض أن يستمع إلي، ففقدت أعصابي».

ـ: «هذا خطأ كبير يا ملّا. تعرف أننا جميعاً مدينون له، وبالذات أنت. ولكن دعنا من ذلك الآن. ماذا عن القحبة؟».

ـ: «سوف أخسر كل شيء. لقد أسأت التقدير. إن قحبة مثل أرملة قره قول أظهرت حصافة أكثر مني. حتى علماء المسلمين وقعوا في حبائلها، تعد الجميع بالأموال والعطايا. لقد أصدروا فتوى ضدي. يريدون أن يسرقوا مني ضريح قره قول».

ـ: «حقا، انها أكثر حصافة منك. لقد تغيرت كثيراً يا ملّا، غيرتك

النقود. لم تعد تعرف إلهاً غير الأصفر الرنان. لا تزعل. يجب أن أقول لك ذلك. أنت تعرف أنه ما من أحد مستعد للدفاع عنك، إذا ما أصررت على اعتبار أموال الضريح أموالاً خاصة بك. لا الحكومة تقبل ذلك ولا العلماء ولا حتى أبناء كركوك. وإذا ما أردت الحق فإن أرملة قره قول أحق منك بهذه الأموال، لأنها كانت زوجته على الأقل».

واحمر وجه الملّا الذي نادى على النادل طالباً الشاي: «ما دمت مديراً عاماً للضريح فعليهم القبول بشروطي. هذه الأموال ليست لي بالتأكيد. إنها أموال المسلمين وهي أمانة في عنقي. لست مستعداً للتفريط بها. هذه الحكومة ليست حكومة إسلامية حتى أسلمها الأموال. أما قحبة قره قول فلا علاقة لها بالأمر. ليس الضريح دكاناً، كان يملكه زوجها حتى ترثه هي وأبناؤها».

وتساءل حميد بهدوء كما لو أنه يريد أن يسره أمراً، لا يريد أن يسمعه الآخرون: «حسناً، متى تريد أن تعيد الأمانة إلى أهلها؟ وزع الأموال بنفسك على الناس إذن حتى لا تكون هناك حجة ضدك».

أطلق الملّا زين العابدين القادري ضحكة ساخرة ليخفي الغضب الذي بدأ يهز جسده كله: «أنت تريدني أن أكون شيوعياً إذن يا حميد. تريدني أن أوزع أموال الله على الناس هكذا لقاء لا شيء، حتى ينفقوها على احتساء الخمور ومضاجعة العاهرات».

ـ: «حسناً، إذا كنت تريد أموال قره قول لنفسك، فلماذا ينبغي علينا أن نقف إلى جانبك؟»

ونهض حميد نايلون يريد أن يغادر المقهى. لم تعد ثمة فائدة ترجى من الجلوس مع الملّا الذي كان حرنا مثل حمار توقف عن الجري فجأة. كان المساء قد هبط فوق السوق الصغير، حيث راحت الكلاب السائبة تنهش بعضها الآخر أمام حوانيت القصابين المغلقة، متصارعة

على العظام المرمية فوق الرصيف، وكانت ثمة كلاب أخرى، استبد بها الجوع، وقد انزوت جانبا وراحت تأكل بقايا قطع البطيخ التي كان أصحاب الدكاكين قد رموا بها في الشارع. وفي المقهى الذي كان يرتفع عالياً على الرصيف، فوق دكة يصلها المرء بدرجتين كانت الأضوية الخافتة تلقي بظلالها فوق وجوه زبائن قليلين، كان بعضهم يلعب الدومينو. وانتبه حميد نايلون وهو ينهض إلى أن ثمة صفرة في وجه الملّا، يصعب تحديدها. أهي صفرة الحقد أم صفرة الخوف؟ ونادى عليه الملّا الذي بدا أنه يريد أن يكون وديا: «لا أريد أن أخاصمك أنت الآخر يا حميد. لقد بدأت افقد أقرب الناس إلي. هيا اجلس يا حميد. لا ينبغي أن تزعل مني. إنني أكبر منك سناً».

رد حميد ممازحاً: «لقد أتلفت أعصابي يا ملّا. لا بد من بضع كؤوس من العرق حتى أستعيد هدوئي. لولا أنني أخشى غضبك لدعوتك إلى تذوق الحرام معي».

شعر الملّا بالغبطة تسري في نفسه، وهو يرى حميد نايلون يمازحه، بعد أن شعر لبرهة أنه ربما كان قد أغضبه هو الآخر. استعاد الملّا هدوءه فراح يردد بود: «لعنة الله عليك يا حميد نايلون. تريد أن تجرني إلى الفسق والفجور أيضاً. إن حديثنا لم ينته. أريدك أن تمر علي غداً حتى نذهب ونصالح خضر موسى. سوف أفكر في ما قلته لي. ربما كنت على حق. هل تعتقد أنني عجوز خرف، كما يقول أعدائي؟».

رد حميد عابثاً: «كل الناس تعرف ذلك. لا شك في خرفك. ولكن لماذا هذا الاهتمام بالأمر؟ سوف نعالج الأمر غداً. إطمئن».

وضحك الملّا شاتماً إياه بمودة: «لا أحد يقدر على لسانك يا ابن الزانية. أنت إبليس بعينه».

ما كاد حميد يغادر المقهى حتى شعر الملّا زين العابدين القادري

مرة أخرى بالوحدة. كان يريد أحداً ما يتحث إليه، أحداً ما يشاطره همومه، ولذلك راح يناجي نفسه. «أجل، لقد أصبحت مزعجاً. هذا واضح. كلهم يتجنبونني. لقد تركني حميد نايلون أيضاً وراح يحتسي العرق. لا شك أنني رجل خرف. لقد بدأت أهمل كل شيء. كان ينبغي أن أمسح حذائي. انه متسخ منذ أيام. هذا لا يليق بي. القحبة البدينة مثل برميل أحرقت أعصابي. كان ينبغي علي أن أضاجعها حتى أشتري صمتها. حميد نايلون يمكن أن يدبر مثل هذا الأمر؟ اتراه يقبل ذلك؟ لعنة الله على الشيطان. حسناً، يبدو أنه لا بد من الرشوة. ولكن لماذا ينبغي علي أن أرشو الصغار؟ حقاً، لماذا الصغار؟ إذا كان لا بد من الرشوة فسوف أرشو الملك نفسه. ولكن لا، قد يزعج ذلك خضر موسى المقرب من الملك ويعتبره تحدياً له. ربما كان من الأفضل أن أكون شيوعياً، كما يقول حميد نايلون. سوف أوزع أموال قره قول على الناس. ولكن لماذا أفعل ذلك؟ سوف يستلم هؤلاء الناس هداياي اليوم ثم يشتمونني غداً. أنا أعرف هؤلاء الناس جيداً. إنهم جاحدون وناكرو جميل. اهدأ يا رجل، اهدأ يا رجل. مسكين قره قول. لقد نجا بجلده من هذه العاهرة التي تشبه جراباً نتناً. ولكن لماذا صعد إلى السماء على البراق؟ لماذا اختاره الله هو بالذات لمثل هذه المعجزة؟ الحق، أن الرجل كان كذاباً ومداهناً، يثير الأعصاب بأنفه المفلطح وباطن كفه التي كان يصبغها بالحناء، والقرط الذي كان يزين به لحمة أذنه اليمنى، متشبهاً بعنترة بن شداد. ولكن لا بد أن الله يعرف شغله. لقد اختاره هو بالذات. لا يمكن أن أجأر بالشكوى. فقد كان موت الرجل نعمة حلت على المدينة، لولا الغولة التي خلفها وراءه».

عندما غادر الملاّ زين العابدين القادري المقهى وقد فكر في العودة إلى البيت سمع أمعاءه تقرقر وعند ذلك عرف أنه جائع، حيث نسي

أن يأكل شيئاً طوال النهار. فكر «من الأفضل أن أنسى الأمر كله الآن. إن حميد نايلون على حق. ينبغي أن أتعلم أنا الآخر كيف أتعامل مع هذه الدنيا اللعينة. ينبغي أن أتعلم كل شيء من جديد».

لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء عندما وجد الملّا نفسه مرة أخرى في الشارع الذي كاد يخلو من البشر. كان يريد العودة إلى البيت، ولكن عواطفه كانت تصعد وتهبط به، مثل طفل لا يعرف ما ينبغي عليه عمله «العودة مرة أخرى إلى البيت، حيث لا شيء ينتظرني سوى النوم». ولكن ها هو الليل قد هبط فوق المدينة. لا شيء هنا سوى الكلاب التي تعدو من شارع إلى آخر والقطط التي تموء قافزة من خرابة إلى أخرى. «لا لن أذهب إلى البيت. ماذا أفعل هناك؟ لن أقدر حتى على النوم. ذهب حميد نايلون ليجرع العرق، فإلى أين تذهب أنت أيها الملّا؟». وسخر من نفسه قائلًا بصوت مسموع: «سفينتك اقتربت من الغرق يا ملّا زين العابدين. كل ذلك بسبب تلك القحبة التي صعد بعلها إلى السماء». فكر الملّا في أن يقصد بيت أرملة قره قول ويسترضيها. «لا بد من شراء صمتها. لم أكن سيئاً معها. قد توافق على سحب دعواها إذا ما عرضت عليها المزيد من الأموال. فهي قد تخرب كل شيء، قد تضر حتى نفسها، من يدري؟ قد تتخذ الحكومة من الأمر كله ذريعة لتستولي على الضريح. وعند ذاك نكون جميعاً قد ذبحنا الدجاجة التي تبيض ذهباً».

وجد الملّا نفسه يتجه نحو بيت الأرملة مرغماً، كما لو أن قوة، لا يعرف مصدرها تملي عليه أفعاله. في الظلام الذي كانت تبدده مصابيح واهنة، تتدلى من أعمدة متباعدة كانت رجلاً الملّا المصابتان بالروماتيزم تضربان خبط عشواء، جارتين وراءهما رداء، تمسح أذياله الأرض. كان بوسع المرء أن يستشعر الصمت المخيم على المحلة. بعد دقائق توقف الملّا أمام بيت أرملة قره قول. خفق قلبه بعنف، وهو

يقترب من الباب ليقرعه. مد يده ولكن شيئاً ما جعله يتردد مرة أخرى، فقد تناهت إلى سمعه أصوات غريبة من شقوق الباب الخشبي. وفكر الملّا «لا بد أنهم عشاقها». وانحنى، محدقاً بعين واحدة من شرخ الباب، داخل البيت، الا انه ارتد إلى الوراء، مرتعباً. ثم استجمع قواه وألقى نظرة متأملة أخرى، جعلته يفقد حتى القدرة على نطق البسملة والتعوذ من الشيطان. كان ما رآه أمراً مثيراً للحيرة والغرابة، حتى أنه راح يفرك عينيه المرة تلو الأخرى ويعيد النظر من الشرخ. كان قره قول منصور يجلس إلى جوار درويش بهلول في فناء البيت على كرسيين من الألمنيوم، وهما يحتسيان الشاي، مع ثلاثة موتى، كانوا يقتعدون بساطاً مرمياً فوق الأرض، تلتمع هياكلهم العظمية البيض في ضوء المصباح الذي كان معلقاً فوق رؤوسهم على الجدار. جاهد أن يسمع حديثهم ولكن عبثاً، فقد كان ثمة جهاز راديو، ركن قريباً منهم يذيع أغنية لصديقة الملاية. انتابت الملّا رجفة راحت تخض جسده كله، بينما امتلأ رأسه بالأسئلة: «إذا كان قره قول في الجنة فما الذي جعله يعود إلى أرملته؟ ماذا يفعل درويش بهلول هنا بين هؤلاء الأموات؟». بصعوبة انسل الملّا، متراجعاً. ثم راح يعدو في الظلام، كما لو أن وحشاً يلاحقه، كما لو أن الأموات الثلاثة انتبهوا إليه فراحوا يطاردونه. وهوى على الأرض أكثر من مرة، ولكنه واصل عدوه رغم السعال واللهاث، تنبح وراءه الكلاب.

الفصل الثامن

في الليلة التي رأى فيها الملّا زين العابدين القادري ذلك المنظر المرعب في بيت أرملة قره قول والذي جعله يلازم فراش المرض في البيت، بعد أن فقد القدرة على الكلام، ظل حميد نايلون يتنقل من مكان إلى آخر. مر في البداية على مقهى لمصلحي السيارات في كراج يقع على طريق المحطة، كان زبائنه يحولونه إلى حانة بعد هبوط الظلام، جالبين معهم قناني العرق التي كانوا يشترونها من دكاكين بيع الخمور التي يملكها المسيحيون. لم يكن حميد نايلون قد فكر حتى في الشرب. كان يهمه أن يكون بين الناس، قائلاً لنفسه: «ثمة رغبة دائماً في أن نعرض أنفسنا أمام عيون الآخرين. لا بد أن ذلك يمنحنا الثقة بأنفسنا. هذا ما يسمونه عادة التواصل». وجلس حميد نايلون مع شابين، كانا يتحدثان عن بطاقات اليانصيب. كان أحدهما قد فاز بعشرة دنانير، ولكنه لم يستلم سوى تسعة دنانير، حيث اقتطع البائع ديناراً منها، كمكافأة له أو ربما كضريبة. ووضع أحدهما كأسا أمام حميد نايلون: «إشرب يا حميد، الدنانير التسعة لا تزال في جيبي»، فرفع حميد نايلون كأسه وجرع رشفة كبيرة منها وهو يقول: «في صحة الجائزة الأولى التي أرجو أن تربحها في المرة القادمة». زعق يشار الذي كان يرتدي نظاراته الشمسية حتى في الليل، اعتقاداً منه أنها تجتذب إليه الفتيات التركمانيات: «آه يا إلهي، ألف وخمسمئة دينار هكذا دفعة واحدة».

حدجه حميد نايلون بنظرة متواطئة: «عندها سوف تتزوج بالتأكيد.

تستطيع أن تخطب أجمل فتاة في كركوك، إذ من يمكن أن يرفض شاباً في جيبه كل تلك الدنانير؟».

ـ: «ليشار فتاته التي تنتظره»، قال جمال، الشاب الآخر الذي كان يجلس قبالة يشار.

تساءل حميد: «حقاً».

قال يشار ثملاً: «انها من محلتكم يا حميد».

ـ: «من هي؟»

تنهد يشار وهو يطلق زفرة عميقة: «انها ليلى. طالبة في متوسطة البنات».

وتساءل حميد: «ليلى، بنت الحاج أحمد الصابونجي؟».

ـ: «أجل هي بعينها».

تدخل جمال: «انه ينتظرها كل يوم عندما تخرج من المدرسة».

وسأله حميد نايلون: «هل تحدثت معها؟»

ـ: «حاولت، ولكنها ردتني قائلة أنها لم تعتد محادثة الشبان في الطريق. أعرف أنها تحبني يا حميد. ان عينيها تبوحان بذلك. كلما سرت وراءها التفتت واختلست النظر إلي».

قال حميد نايلون: «انها فتاة جميلة حقاً ومؤدبة».

اقترح يشار على حميد نايلون أن يرافقه عند عودته إلى البيت حتى يلقي نظرة على بيت حبيبته ليلى قبل أن يخلد إلى النوم. ولكن حميد نايلون صده برقة، معتذرا من أنه سوف يقضي الليل في مكان آخر. وكان قد فكر في أن يمر على العاهرة أحلام التي يزورها مرة أو مرتين في الأسبوع. وجرع حميد نايلون كأساً أخرى من العرق قبل أن يتسلل إلى الشارع.

كان رواد السينمات التي انتهت من عرضها الأخير يتناثرون في الشوارع المظلمة، عائدين إلى بيوتهم، حيث يختلط الصمت بالظلمة

مخيما فوق المدينة. فانتبه حميد نايلون إلى الصمت الذي يوحي به الظلام دائما، وهو أمر ظل ملغزاً بالنسبة له. كان الناس يسيرون بهدوء، لا تسمع سوى ضربات خطواتهم فوق الأرصفة أو اسفلت الشوارع. وتحت أعمدة الكهرباء كان يقف حراس ليليون، يتنكبون البنادق، معظمهم من العرب القادمين من الحويجة. «من الصعب على المرء أن يفعل شيئاً في هذه المدينة. أبواب وبوابات مغلقة. هذه المدينة ليست بغداد على أي حال. هناك يمكن للمرء أن يقضي الليل في الف حانة وحانة، تمتد على طول شارع أبو نواس. وهنا لا أحد سوى الحراس الليليين العرب. الجميع يشعرون بالضجر، ولكنهم يحبون ضجرهم، لأنهم لا يعرفون غيره. ولهذا يصابون بالخرف مبكراً، تماماً مثل الملّا زين العابدين القادري. لقد ظلمه خضر موسى عندما عينه مديراً عاماً، فالرجل لا يستحق أن يكون أكثر من إمام في جامع. مدير عام لقبر. تصوروا ذلك. كلا، كلا، ماذا في ذلك؟ قبر قره قول ثروة، هبطت على كركوك من السماء. المورد الثاني بعد النفط. ولهذا أصيب الملّا بالخرف والجنون. كل هذه الأموال التي تمر من بين أصابعه. لماذا لا تفعل الحكومة شيئاً حقاً لمصادرة هذه الأموال التي يعتبرها الملّا أموالّا خاصة به، رغم ادعاءاته الفارغة بأنها أمانة في عنقه؟ ينبغي أن أفاتح خضر موسى بالأمر. ينبغي أن نفعل شيئاً قبل أن تستولي أرملة قره قول على هذه الأموال. سوف يرفض خضر موسى أن يتدخل في الأمر. أصبح يترفع بعد زيارته للملك عن التدخل في الصغائر. لا يريد أن يوسخ يديه في قضية، قد تضر بسمعته. بمثل هذه الأموال التي يخفيها الملّا يمكنني أخيراً أن أمول جيشاً لحرب العصابات، جيشاً يحرر العراق مثلما حرر جيش ماوتسي تونغ الصين».

كانت الأفكار والأحلام تتدافع في رأس حميد نايلون في طريق

عودته إلى البيت، حتى أنه لم يشعر بالزمن الذي مر عليه. وفي البيت أيضاً لم يفارقه حلمه الجميل وهو على السرير، حيث ظل يعاني الأرق، متقلباً في فراشه، منتظراً مجيء الصباح ليبدأ خطوته الأولى في طريق الثورة.

وبالفعل فإن أول ما فعله في الصباح هو أنه قصد فاروق شامل الذي كان يعمل في مطبعة البلدية، عارضاً عليه، بعد أن اختلى به جانباً، وسط رولات الورق وعلب الأصباغ، الاستقالة هو وعمال النقابة من العمل والخروج معه إلى الريف للبدء بحرب العصابات ضد الحكومة. صدم الأمر فاروق شامل الذي بدا مباغتاً، حتى أنه غرق في الصمت وراح يحدق مشدوهاً في وجه حميد نايلون الذي قال له: «ماذا بك يا فاروق؟ يبدو أنك لم تكن تتوقع أمراً مثل هذا».

كان فاروق شامل حائراً: «لقد باغتني حقاً يا حميد. دعني أفكر في الأمر. سوف أمر عليك عصراً. إنها فكرة عظيمة. ولكن لا بد من التمعن مليا فيها. أنت تعرف أن المعامرات الثورية يمكن أن تؤدي إلى كوارث تقصم الظهر».

رد حميد نايلون، وهو يغادره: «إن الأمر مضمون. فإذا كان الشعب ضد الحكومة فإنه سوف يتبعنا بالتأكيد. أنت تعرف ذلك».

لم يكن فاروق شامل يعرف ذلك أو متأكداً منه، بل وأضحكته فكرة أن يقود حميد نايلون الثورة، ولكنه قال بلهجة جادة: «ما من أحد غيرك فكر في الثورة. من أين تأتيك هذه الأفكار؟»

رد حميد نايلون بطريقة أخجلت فاروق شامل: «الأفكار لا تأتي إلى الإنسان. الإنسان هو الذي يذهب إليها».

وخرج حميد نايلون، تاركاً فاروق شامل يتأمل في أبهة هذه الجملة التي كان حميد نايلون قد سمعها من درويش بهلول ذات مرة، فظلت عالقة بذهنه.

وفي المساء اقتاد فاروق شامل حميد نايلون عبر أزقة مظلمة، ما كان قد مر بها قط من قبل: شبان أكراد لا تكاد تبين وجوههم، يرتدون سراويل منتفخة، كان التركمان يسمونها ساخرين، البالون، يقفون متكئين على الجدران، محدقين في الفراغ، منتظرين اللاشيء، اليوم بعد الآخر. وهمس فاروق شامل في أذن حميد نايلون: «هؤلاء هم رجال الجدران الذين ربما تكون قد سمعت بهم. انهم جميعاً عاطلون عن العمل، لا يجدون ما يفعلونه. يقفون متكئين على الجدران النهار كله وبعضاً من الليل. يقفون صامتين، لا يقولون شيئاً. وهم لا يذهبون إلى بيوتهم إلا للنوم، حيث يتكدس في الغرفة الواحدة الأشقاء والشقيقات والأب والأم والجد والجدة. إنهم هاربون من الحياة نفسها». واجتاز حميد نايلون وفاروق شامل أزقة ضيقة أخرى، مليئة بالوحل والماء الآسن، حيث لا يسمع المرء سوى نباح كلاب تعدو بدون غاية، ومواء قطط تقفز من جدار إلى جدار.

كان فاروق شامل قد أبلغ القيادة الشيوعية في المدينة بما قاله له حميد نايلون، طالباً إليها الرأي والمشورة. وقد دفع هذا الشيوعيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم خبراء في صناعة الثورات، رغم أنهم لم يكونوا قد قاموا بأي ثورة في تاريخهم كله إلى أن يطلبوا لقاء حميد نايلون في اليوم نفسه لبحث قضية الثورة المسلحة معه. لم يكن حميد نايلون شيوعياً ولكنه كان قد أظهر كفاءة في قيادة معركة كاورباغي، ووافق على أن يمثل الشيوعيين، وهو أمر لم يعلن أبداً، في الوفد الذي قصد بغداد والتقى الملك. وكان أيضاً قد حضر مجلس العزاء الذي أقامه الشيوعيون في أحد جوامع قره تبه، عند وفاة يوسف ستالين وقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة، حيث طفرت الدموع إلى عينيه وهو يرى الدموع في عيون الحاضرين. وعلى الرغم من صداقته للشيوعيين، فإنه ظل خارجهم، لاعتقاده أن الشيوعيين يقولون ما لا

يفعلون ويختفون أكثر مما يظهرون. أما الشيوعيون الذين كانوا يهابون تأثيره السحري في الناس، فقد اعتبروه مثالاً للعفوية والفوضوية، وهو مثال كان يصعب حشره داخل قالبهم الذي يعتمد قبل كل شيء على القواعد والقوانين النظرية التي وضعها الحكماء الماركسيون الكبار. كان حميد نايلون الذي واتته فجأة فكرة الثورة يحتاجهم الآن. فإذا كانوا ثوريين حقاً فلينضموا إليه إذن أو ليتركوا لعمال النقابة حرية الاختيار على الأقل. أما الشيوعيون فكانوا متلهفين لمعرفة حقيقة هذا الأمر الجديد عليهم، هم الذين أمضوا كل الأعوام السابقة داخل السراديب، حتى أن بعضهم كان قد نسي أن هناك عالماً آخر غير السرداب الذي يعيش فيه.

ولكن، والحق يقال، كان حميد نايلون يحمل في رأسه فكرة غامضة مثل الناس الآخرين كلهم عن السراديب التي يقطنها القادة عادة. كان فاروق شامل قد قال لحميد نايلون: «يبدو أن فكرة الثورة قد أحدثت ضجة في القيادة، ولذلك فإنهم يريدون لقاءك اليوم، إذا لم يكن هناك ما يمنعك من فعل ذلك». رد حميد نايلون: «ان هذا يناسبني جداً، إذ لم يعد هناك الكثير من الوقت لنضيعه في الأعمال التافهة». واقترب حميد نايلون وفاروق شامل في الظلام الذي كان يبدده قمر باهت في السماء من بيت خرب في أحد الأزقة، ما كان يمكن أن يثير حتى اهتمام الشيطان نفسه. همس فاروق شامل: «لقد وصلنا أخيراً». وحدق حميد نايلون إلى باب قديم من الخشب، مغطى بنسيج العنكبوت، ترقد تحته حمامة فوق بيوضها. وعلى ستارة الباب كانت تتمدد أفعى رمادية هائلة الحجم. ارتبك حميد نايلون وشعر بالرعب: «هذا البيت مهجور يا فاروق. لا أحد يمكن أن يوجد هنا». ابتسم فاروق شامل: «لا تغرنك المظاهر يا حميد، انتظر لحظة». واقترب فاروق شامل من الباب وقال بصوت مرتفع بعض

الشيء: «افتح يا سمسم»، فرفعت الأفعى رأسها المستطيل الضخم وظلت تحدق لحظات في عيني فاروق شامل، ثم خفضت رأسها وتسللت داخلة في ثقب كبير فوق الباب. التفت فاروق شامل إلى حميد نايلون وقال له: «لقد دخلت الأفعى لتبلغ الرفاق بحضورنا. تمويه متقن. إن أحد رفاقنا وهو من الحواة يمتلك أفكاراً مدهشة في العمل السري».

وصر الباب الذي انفتح فدخل فاروق شامل وحميد نايلون بهدوء محاذرين إقلاق الحمامة التي كانت تنام فوق عشها عند عتبة الباب. وصافحتهما في الظلمة فتاة لم يستطع حميد نايلون أن يتبين ملامحها. ثم قادتهما داخل بيت مهجور، تفوح منه رائحة الخراب، منبهة إياهما إلى أن المكان مليء بالعقارب والفئران: «ولكن لا ينبغي عليكما الخوف منها، لأنها جميعاً مدربة بطريقة جيدة». ثم التفتت إلى حميد قائلة: «أرجو ألا تكون أفعى الباب قد عاكستك. رفيقة جيدة، ولكنها تحب المزاح أحياناً. إنها في الحقيقة الملاك الذي يحرسنا جميعا». ودفعت الفتاة باباً، انفتح على سلالم مضيئة تنحدر داخل سرداب عميق، فأتيحت الفرصة لحميد نايلون ليلقي نظرة على الفتاة التي كانت تتقدمهما. فتاة جميلة، ترتدي تنورة قصيرة سوداء وبلوزة حمراء وحذاء أسود، ذا كعب عال. وفكر حميد نايلون: «من أين يحصل الشيوعيون على مثل هذه الفتيات الجميلات؟» كان كل شيء داخل السرداب مختلفاً عما رآه في الخارج. لم يكن في الحقيقة سرداباً، إلا لكونه تحت الأرض. فقد كان البناء حديثاً وأنيقاً ذكره بمكاتب شركة النفط الانكليزية. كان ثمة ممر طويل، تتدلى من سقفه ثريات كريستال جميلة، وعلى الجانبين تصطف غرف، ذات أبواب أنيقة، علقت فوقها قطع برونزية صغيرة، كان من الواضح أنها مكاتب عمل. ودفعت الفتاة أحد الأبواب فانفتح على رجل يجلس وراء منضدة. قال

الرجل الذي ظل يحدق في الفتاة من وراء نظاراته: «لا بد أن الرفيق قد وصل. ينبغي أن أسجل ذلك في دفتر الواردة»، ثم التفت إلى حميد نايلون الذي كان واقفاً أمام الباب، وهو يفتح دفتراً كبيراً أمامه: «الاسم الحزبي رجاء؟». بوغت حميد نايلون بالسؤال الذي لم يفهم معناه، فاعتقد أن الرجل يسأله عن لقبه، وجاهد أن يخفي ارتباكه وراء الضحكة التي أطلقها: «العالم كله يعرفني باسم حميد نايلون فإذا كنت تريد أن تطلق عليّ اسماً آخر أفضل منه فلن أمانع كثيراً في الأمر». ثم التفت إلى الفتاة التي كانت تقف إلى جنبه: «لا أعرف كيف تستقبلون شخصاً لا تعرفون اسمه». هزت الفتاة رأسها بغنج، جعل حميد نايلون ينسى اعتراضه: «لا بد من قليل من البيروقراطية يا حميد. هكذا هي الحياة». ثم التفتت إلى الرجل الذي كان يجلس حائراً أمام دفتره: «اكتب أي اسم. أنت تعرف عملك أفضل منا». ثم أمسكت بيد حميد نايلون الذي اعتقد أنها تغازله فضغط على يدها بأصابعه، وقادته حتى نهاية الممر الذي كانت قد علقت على جدرانه لافتات من قماش أبيض وخطوط حمراء ملتمعة: «وطن حر وشعب سعيد» و«عاشت الطبقة العاملة العراقية» و«عاش نضال الشعوب بقيادة الاتحاد السوفياتي العظيم»و«تايوان جزء لا يتجزأ من البر الصيني». دفعت الفتاة باباً في نهاية الممر انفتح على قاعة فسيحة، وضعت في وسطها طاولة مستديرة ضخمة، مع كثير من الكراسي الأنيقة. وفي الزوايا تكدست رزم كثيرة من المنشورات والكراريس التي كان من الواضح أنها قد أعدت لتنقل إلى أماكن أخرى. وكانت الجدران مزينة بصور لوجوه غريبة، لم يرها حميد نايلون من قبل ما عدا صورة ستالين التي لا يخطئها المرء، بوجهه الفلاحي الصارم وشاربه الكث. وكاد يسأل الفتاة عن الرجل الآخر الأصلع والشيخين المهيبين اللذين كانا يشبهان درويش بهلول بلحيتيهما المنحدرتين فوق الصدر، ولكنه

خجل من أن يفعل ذلك، خشية أن يكشف عن جهله أمام الفتاة التي كان قد راح يفكر في طريقة يغريها بها.

انفتح باب جانبي آخر ودخل رجلان، كان من الواضح أن أحدهما كردي والآخر عربي، صافحاه أولاً ثم عانقاه وقبلاه ودعياه إلى الجلوس. وقدمتهما الفتاة التي جلست هي الأخرى، واضعة أمامها قلماً وكومة من الأوراق الرقيقة التي تكتب عليها المحاضر السرية والتي يسهل إخفاؤها، لحميد نايلون الذي ظل يتنقل بنظرته بين الشاب الكردي، ذي الرأس الأقرع والعجوز العربي الذي ما كان قادراً حتى على جر رجليه لفرط سمنته. شكر الشاب الكردي الفتاة التي أسماها الرفيقة انتصار، طالباً إليها تدوين كل ما يدور في الاجتماع. ثم توجه إلى حميد نايلون قائلاً: «لقد سمعت عنك الكثير. وفكرت أكثر من مرة في دعوتك إلى زيارتي داخل سردابي هذا. ولكني خشيت أن تكون من الذين يتضايقون من السراديب».

ابتسم حميد نايلون وهو يركز نظراته عليه: «ان سردابك ليس بالسوء الذي تعتقده. إنه أفضل حتى من مكتب المتصرف نفسه. هذا المعمار الجميل، هذه الثريات الساحرة وهذا المكتب الأنيق». وتدخل الرجل العجوز: «هذا يدل على قوة الأفكار الشيوعية. كل ما تراه هنا هو هدية من الشعب. لقد قام بتصميم السرداب المهندس الوطني الديمقراطي الكبير رفعت الجادرجي الذي حاز تصميمه على الجائزة الأولى في مسابقة برلين للمعماريين الشبان. أما الثريات الكريستال التي تراها، فقد أهداها لنا الشعب التشيكوسلوفاكي العظيم. وكما تعرف أن الكريستال في براغ أرخص من سعر التراب، ولذلك وضعت اللجنة المركزية ضمن الخطة الخمسية برنامجاً لتعبيد جميع الشوارع هناك بالكريستال. أما الأخشاب فقد أهديت للمقر، كما علمت من محل مشهور لصنع الموبيليا في المدينة».

وتدخل الشاب الكردي: «انها هدية من محل شكر النجار».

قال حميد نايلون: «انني أعرفه. هو الذي صنع لي غرفة النوم عند زواجي».

وتدخل العجوز مرة أخرى: «ينبغي أن نثبت للبرجوازية أن من حق الشيوعيين أيضاً أن يعيشوا بطريقة لائقة. هل تعرف أي تعذيب بشع تعرض له رفيقنا سالم في سجن بعقوبة؟ إن من حقه الآن بعد فراره من السجن أن يستمتع بالحياة».

قال حميد نايلون: «لقد سمعت بذلك. الناس تطلق عليه اسم بطل التعذيب».

هذه الكلمات العاطفية أثرت كثيراً في الشاب فنزع قميصه الذي كان يرتديه من دون فانيلة، عارضا صدره وظهره على حميد نايلون، حيث ما زالت آثار العصي والسياط والأسلاك الكهربائية والسجائر المطفأة بادية للعيان.

أخرج حميد نايلون علبة سجائره وقدم سيجارة لكل منهما، ولكنهما اعتذرا.

قال الشاب الكردي: «ان من يسجن يضطر إلى التخلي عن التدخين. هذه هي إحدى فوائد السجن في الحقيقة».

رفعت انتصار رأسها محدقة في حميد نايلون: «ولكن يمكنك أن تقدم سيجارة لي، فأنا لم أدخل السجن حتى الآن».

اعتذر حميد نايلون وهو يقدم سيجارة لها، أشعلتها بنفسها ثم راحت تنفث الدخان حلقات في الفراغ. وخفق قلب حميد نايلون بشدة، حتى أنه كاد ينسى الموضوع الذي جاء من أجله. قطع عليه العجوز حلمه اللذيذ: «لقد أبلغنا الرفاق أنك تفكر في تنظيم ثورة مسلحة في الريف. ما الذي يجعلك تؤمن بنجاح عمل خطير مثل هذا؟».

وانتبه حميد نايلون لأول مرة إلى أن فاروق شامل لم يدخل معه الغرفة، ولكنه لم يسأل عنه. كان واضحاً أن الرجلين يريدان مناقشة الأمر معه هو بالذات. رد حميد نايلون بهدوء كان قد تعلمه من خضر موسى: «النجاح أمر متعلق بالبشر أنفسهم. السؤال يتعلق بالحق. هل من حقنا أن نثور أم لا؟»

رفع الشاب الكردي يده قائلاً: «انظر، إنني أعرف الأكراد جيداً. لم يحن الوقت بعد للقيام بثورة كردية. أنت تعرف أن الجنرال الملّا مصطفى البرزاني قد قصد الاتحاد السوفياتي منذ أعوام طويلة للتدرب على تاكتيك حرب العصابات. ويبدو أنه لم يكمل دراسته حتى الآن. الأكراد ينتظرونه ولن يقبلوا بثورة لا يقودها هو نفسه».

احتد حميد نايلون الذي استغرب هذا المنطق الغريب: «لم يخطر بذهني في يوم من الأيام القيام بثورة كردية. وكما تعرف أن نصفي عربي والآخر تركماني. ولن أرفض بالتأكيد إذا ما أرادت ابنتي الزواج من كردي. انني عراقي قبل كل شيء، والثورة ستكون عراقية».

هز الشاب الكردي رأسه مستنكراً: «هذه خيالات. لا يمكن للثورة إلاّ أن تكون كردية. العواطف القومية تسبق العواطف الطبقية، وهذا يعني كسب شيوخ العشائر الكردية والحزب البارتي إلى جانبنا. ولكن من يمكن أن يقبل ذلك؟»».

قال حميد نايلون: «يبدو لي أن أهدافنا مختلفة. لا أعتقد أن العرب أو التركمان أقل وطنية من الأكراد. كل ما يحتاجه العراق الآن هو وجود من يطلق رصاصة الثورة الأولى».

تدخل الرجل العجوز محاولاً التوفيق: «ما قصده الرفيق كان متعلقاً بالجانب العملي من الثورة. لا يمكن لأي ثورة الوصول إلى النجاح بمعزل عن الحركة الوطنية. لقد قال الرفيق فهد: «قووا تنظيم حزبكم، قووا تنظيم الحركة الوطنية. ولذلك أطلب إليك الانتماء إلى الحزب

الوطني الديمقراطي أو الحزب البارتي إذا لم تكن تملك ما يكفي من الوعي الطبقي للانتماء إلى الحزب الشيوعي».

احتد حميد نايلون وهو يشعل سيجارة أخرى: «ما هذه الأحزاب الغريبة التي تطلب إلي الانتماء اليها؟ إنني لست هنا لأنتمي إلى أي حزب. لقد جئت لأطرح عليكم سؤالاً محدداً: هل يمكن أن أعتمد على دعمكم إذا ما بدأت الثورة المسلحة في الريف؟»

أجاب العجوز، محاولاً التخفيف من حدة المناقشة: «إن الأمر ليس بالسهولة التي تعتقدها. لقد بحثنا الأمر أكثر من مرة داخل اللجنة المركزية بعد أن رأينا عادة اللجوء إلى الثورة تنتقل حتى إلى البلدان العربية. بل اننا أرسلنا أحد رفاقنا إلى أشقائنا في الصين والاتحاد السوفياتي للحصول على موافقتهم على قيامنا مع القوى الوطنية الأخرى بالثورة. هل تدري ما الذي قالوه له؟ لا يمكن أن تصدق ذلك. قالوا إن الوضع العالمي لا يسمح بوقوع أي ثورة داخل مجموعة حلف بغداد. فقد يتخذ الحلف من هذه الثورة ذريعة للقيام بهجوم ذري ضد الاتحاد السوفياتي العظيم. إنهم على حق».

هز حميد نايلون رأسه باستخفاف: «هذه أمور معقدة، لا تهمني. ولكنني لا أعتقد أن ماوتسي تونغ يمكن أن يطلب إلينا عدم القيام بالثورة، وخاصة إذا عرف أن الثورة سوف تنطلق من الريف، تماماً مثل الثورة الصينية التي قادها هو بنفسه».

وتدخل الشاب الكردي: «الثورة تحتاج إلى بنادق وأموال فمن أين ستحصل عليها؟»

رد حميد نايلون الذي ساورته الشكوك حول نوايا الرجلين: «الله كريم. العراق مليء بالخيرات. سوف نأكل التراب إذا اقتضى الأمر».

هذه كلمات عامة لا تعني شيئاً»، قال الشاب الكردي.

تضايق حميد نايلون من طريقة الرجلين في الحديث: «إذا كنتم لا

تفكرون في الثورة فلماذا تورطون الناس وتجعلونهم يفقدون أعمالهم ويدخلون السجون؟ هذه تضحيات لا معنى لها».

قال الشاب الكردي: «نحن ضرورة تاريخية. البرجوازية الصغيرة وحدها تتردد في تقديم التضحيات».

ولم يجد حميد نايلون بداً من أن يسأل الرجلين: «أنتم تستخدمون كلمات، لا يعرفها الشعب. المهم: هل أنتم مع الثورة أم ضدها؟».

حدق العجوز ملياً في الفراغ قبل أن يقول: «يقول الرفيق ستالين: ديالكتيكيا ينبغي للمرء أن يكون مع الشيء وضده في الوقت نفسه. وهذا هو موقفنا من أي ثورة، قد تنشب في العراق».

ما كان في إمكان حميد نايلون أن يفهم ما قاله الرجل، ولكنه التقط جوهر المعني: «هل يعني هذا إنني يجب أن أحب نوري السعيد وأكرهه في الوقت نفسه؟».

ضحك العجوز: «أنت تحاول إحراجي. الديالكتيك لا ينطبق على الخونة. كيف يمكن للمرء أن يفكر في الثورة من دون حفظ أكبر عدد ممكن من النصوص الماركسية عن ظهر قلب، وخاصة النصوص المركزة المهمة التي تنشرها وكالة نوفوستي؟ كيف يمكن للمرء أن يفكر في الثورة من دون حفظ قصائد الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت الذي طلق زوجته التركية وتزوج من امرأة روسية من فرط حبه للثورة الروسية؟ هل قرأت شيئاً لشاعرنا الدولي الجديد الرفيق عبد الرحمن القلقالي؟ هل تعرف أن قصائده قد ترجمت إلى اللغة الكورية والأميركية، ضمن حملة التضامن مع فقراء العلم؟ هذه هي الثورة الحقيقية، أيها الرفيق حميد. وكما ترى أننا لم نهدر الكثير من الوقت داخل السراديب، كما يشيع عنا أعداؤنا الطبقيون».

كان من الصعب على حميد نايلون أن يتابع هذه الطريقة في الكلام. ولذلك لم يجد بداً من المعاكسة: «لا أعتقد أن هناك شاعراً

في العالم كله، يمكن أن يجاري دده هجري. أمر سيىء أن يمدح المرء نفسه وأنتم الشيوعيون تفعلون ذلك ليل نهار. إنني في الحقيقة أحب الشعر الغزلي أكثر من غيره. ما رأيك بالمناسبة بشعر برهان عبد الله؟ في رأيي انه أهم من جميع الشعراء الذين ذكرتهم».

تساءل العجوز: «برهان عبد الله؟ لم أسمع حتى باسمه».

رد حميد نايلون بهدوء المنتصر: «طبعاً لا تعرفه. انه من أقاربي. وهو ينشر قصائده بأسماء مستعارة، تجنباً لغضب والدته التي تعتبر الشعراء متسولين، فقدوا احترامهم لأنفسهم. انه يتخفى في الحقيقة تحت أسماء مستعارة كثيرة مثل نزار قباني وبدر شاكر السياب ومحمد مهدي الجواهري وحسين مردان. بل إنه نشر قصائد كثيرة باللغة الانكليزية أيضاً، بأسماء مستعارة بالطبع. انه يطلعني على جميع أسراره، فأنا قريبه بعد كل شيء».

انفجر العجوز ضاحكاً، حتى أن الشاب الكردي خشي أن يصل رنين ضحكته إلى خارج السرداب: «ما هذا الذي تقوله يا رجل؟ جميع الذين ذكرتهم أشخاص حقيقيون وأعرفهم شخصياً. فقد أوصانا الرفيق فهد أكثر من مرة بالاهتمام بالشاعر الجواهري وقد صافحته بكفي هذه قبل عامين. ولكنه رجل متقلب المزاج، لا يمكن الاعتماد عليه. أما السياب، وهو شاب نحيف من البصرة، هزيل الشخصية، كان عضواً في حزبنا ثم طردناه بعد أن اكتشفنا علاقته بالشرطة. والجميع يعرفون من هو نزار قباني وحسين مردان؟ شاعران إباحيان ووجوديان يمثلان القيم البرجوازية المنحطة. ما علاقة ذلك بقريبك الذي لا أعرف اسمه؟».

أشعل حميد نايلون لفافة ثم حدق في الفتاة التي كانت تدون محضر اللقاء، واضعاً علبة السجائر أمامها: «لا أريد أن أكذبك. ولكنك ربما كنت ضحية نصابين، ينتحلون أمجاد الآخرين لأنفسهم».

قال الشاب الكردي: «حمداً لله أن عبد الله كوران أمضى أربعة أعوام معي في الزنزانة نفسها في سجن بعقوبة وإلا اعتقدت أنه شخص مختلق هو الآخر».

رفع حميد نايلون كفيه إلى الأعلى: «الأمر لا يتعلق بشخص معين بالذات. المشكلة عامة. عندما تتحول الأكذوبة إلى نظام شامل لن يكون هناك سوى الأشباح. معذرة إذا كنت قد اقتبست هذه الحكمة من برهان عبد الله الذي يكتب أحياناً أيضاً باسم كافكا، وهو اسم كردي كما يبدو لي».

قال الشاب الكردي مصححاً: «لا أعتقد ذلك. ربما كان قريبك يكتب باسم كاكه فالتبس عليك الأمر».

وتدخل العجوز متضايقاً: «لا ينبغي أن نضيع وقتنا الثمين في الحديث عن أمور ثانوية. ما يهمنا هو معرفة حقيقة الخطوة التالية التي تفكر فيها أيها الرفيق حميد».

أجاب حميد نايلون وهو ينهض مغادراً: «لقد ظلت الثورة مؤجلة فترة طويلة ولن يضيرها أن تنتظر بعض الوقت. سوف أفكر ملياً في الأمر وربما التقينا ثانية».

قال العجوز مداهناً: «لا بد من ذلك. سوف نتعلم بالتأكيد الكثير من بعضنا الآخر».

غادر حميد الوكر السري مضطرباً، مفزعاً في طريقه الحمامة الجاثمة أمام الباب والتي كاد يسحقها برجله في الظلام، فرفرقت بجناحيها قليلاً قبل أن تجثم فوق عشها مرة أخرى. وكانت الأفعى قد رفعت رأسها، مستفزة، ولكنها إذ وجدت كل شيء على ما يرام عادت وتمددت فوق ستارة الباب، غارقة في النوم.

لم يتبادل حميد نايلون في طريق العودة الكثير من الكلام مع فاروق

شامل الذي كان قد سأله حالما أصبحا في الشارع: «يكاد الفضول يقتلني. قل لي: كيف كان اللقاء؟»

ـ: «يبدو أن الشيوعيين يعتقدون أنه لا يمكن فعل شيء بدونهم. ولكن ما تكاد تحاول أن تفعل شيئاً معهم حتى يضعون أمامك المستحيل».

رد فاروق شامل بأسى: «كنت أعرف أنهم سوف يرفضون. أنت تعرف أن النضال في نظرهم يعني الصمود داخل السجون. انهم لم يتمرنوا حتى الآن على الثورة».

قال حميد نايلون حزيناً: «أجل. لقد سمعت مرة بعض العمال الشيوعيون يغنون فرحين:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما

لا أدري كيف يمكن للمرء أن يتغزل بالسجن ويهوى الظلام. إن هذا منتهى اليأس من الحياة يا فاروق».

وساد بينهما الصمت مرة أخرى. كان فاروق شامل متأكداً من أن حميد نايلون ليس من صنف الرجال الذين يتخلون بسهولة عما كانوا قد قرروا فعله، مهما بدا هذا الأمر أخرق وصعباً. وكان يعرف أيضاً أنه ما من قوة يمكن أن تغري الشيوعيين بخوض المغامرات. والأكثر من ذلك أن حيمد نايلون ما كان يمتلك حتى عصابة، ليفرض نفسه على الآخرين. وإذا كان رجلاً الوكر قد استمعا إليه فذلك بدافع الفضول، أو الرغبة في معرفة ما يدور في العالم الخارجي الذي كانا يتوقان إلى فهم تفاصيل حركته من داخل سردابهما السري. لم يرد أن يقول له ذلك، فقد كان واثقاً بطريقة ما من أن حميد نايلون سوف ينتهي مثل كثيرين غيره، إلى الخيبة حتى قبل أن يبدأ الخطوة الأولى في رحلة الألف ميل. ولكن فاروق شامل كان مخطئا هذه المرة. فقد كان حميد نايلون يرى أن ثمة مخرجاً دائماً عندما تطبق الدائرة على

المرء، وأن البراعة تكمن في اكتشاف هذا المخرج الذي قد لا يكون مرئياً. ولم يكن من الصعب على حميد نايلون الوصول إلى هذا المخرج الآن أيضاً.

بعد ليلة أخرى من الأرق، حيث ظل يعيد التفكير المرة تلو الأخرى في خطته وهو مضطجع على السرير قرب زوجته، نهض حميد نايلون مبكراً قبل الفجر وانسل خارجاً من دون أن يوقظها، حتى لا يضطر للجوء إلى الكذب في مواجهة أسئلتها الكثيرة. صعد إلى سيارته التي كان يوقفها عادة، قريباً من البيت وأدار المحرك، ثم انطلق إلى حيث اعتقد أن الثورة تنتظر وصوله، ممتلئا بروح جديدة، أيقظتها نسائم الصباح الباردة التي كانت تأتيه من نافذة السيارة المفتوحة، فراح يغني بصوت مرتفع مثل رجل عثر على السعادة فجأة، وهو يقطع طريقاً ترابية كانت تمتد على جانبيها المروج.

على الرغم من أن زوجته فاطمة قلقت بعض الشيء لاختفائه المفاجىء، فإنها لم تأبه كثيراً للأمر، فقد كان حميد نايلون كثيراً ما يختفي أياماً وأحياناً أسابيع ثم يظهر ثانية، بدون تقديم الكثير من الإيضاحات. وقد اعتادت الأمر ابنتاه نادية وسعاد أيضاً، إذ كانتا تسألان أمهما مرة واحدة ثم تكفان عن السؤال، بعد أن تكونا قد تلقيتا الجواب نفسه دائماً: «بابا سافر وسوف يعود». ولم ينتبه أحد في محلة جقور إلى غياب حميد نايلون، ما عدا خضر موسى الذي سأل عنه فقالت له فاطمة: «أنت تعرف حميد، انه يغيب ثم يظهر مثل الشيطان. لقد استيقظت قبل ثلاثة أيام من النوم فوجدته قد غادر البيت. لا شك أنه سافر إلى بغداد أو مدينة أخرى».

كانت المحلة في تلك الأيام منهمكة في متابعة الصراع الناشب بين أرملة قره قول والملّا زين العابدين القادري حول الحق في العطايا التي تقدم إلى الضريح. وقد توتر الموقف كثيراً عندما قصدت أرملة

قره قول وهي تجر وراءها عباءتها السوداء المفتوحة، يتبعها أطفالها الأربعة الذين كانوا يحملون في أيديهم العصي، بيت الملّا زين العابدين القادري ووقفت أمام الباب، تحيط بها نساء المحلة وأطفالها ورجالها، شاتمة الملّا الذي قالت إنه يعيش على المال الحرام الذي هو حق أطفالها اليتامى. ولما لم يظهر الملّا زين العابدين القادري، راح أطفالها يضربون الباب المغلق بالحجارة، صارخين «أخرج يا ملا دينار». أخفقت محاولات الناس في تهدئة الأرملة التي كان صراخها يسمع في المحلة كلها. وقد ازداد الأمر سوءا عندما أطلت زوجة الملّا زين العابدين القادري من سطح البيت، وهي امرأة في الستين من عمرها، وراحت تتبادل الشتائم مع أرملة قره قول: «أنت أيتها القحبة، اذهبي إلى عشاقك السود بدل الهجوم علينا». وهددتها: «إذا لم تذهبي فسوف أنزل وأضع رأسك القذر في البالوعة». وردت عليها أرملة قره قول: «هيا انزلي يا قحبة واجلبي معك الملّا القواد». وتدخل الناس: «عيب. لا يصح هذا الكلام، ما الذي سيقوله الناس عنكم؟». وبدأ أطفال الأرملة يقذفون زوجة الملّا بالحجارة. ولكن الرجال أمسكوا بهم، مانعيهم من فعل ذلك. واختفت زوجة الملّا لحظات ثم عادت وهي تحمل صفيحة ملأى بماء وسخ، سكبته فوق رأس أرملة قره قول التي كانت تقف شاتمة أمام الباب. هجمت أرملة قره قول التي بوغتت بالأمر على الباب وراحت تضربه برجلها: «سوف أقتل هذا الملّا». وعندما لم ينفتح الباب نادت على أحد أبنائها: «هيا اذهب وناد أعمامك. لا بد للدم من أن يسيل هذا اليوم». وجرتها نساء المحلة جانباً: «لا يصح ذلك، أنت أرملة ولي، اتركي الأمر لله». ولكن المرأة التي كان الزبد يتطاير من فمها رمت بنفسها فوق الأرض، لاطمة بكفيها رأسها الذي بان شعره الأجعد القصير: «لو كانت لقره قول كرامة لقتل هذا الفاسق. أين أنت يا قره قول

لتدافع عن زوجتك الوفية؟ أين أنت، يا قرة عين الأولياء؟». ووصل فجأة ثلاثة من السود العراة الذين ما كانوا يرتدون سوى سراويل بيض قصيرة، تلتمع بشرتهم السوداء الداكنة تحت الأشعة الأخيرة للشمس الغاربة، حاملين في أيديهم فؤوساً ذات أنصال حادة، وقد تنكبوا الأقواس والسهام، يتقدمهم ابن قره قول، وهو ذاك الذي ذبح قاتل أبيه قبل شهور في محلة المصلى بموسى للحلاقة. ما كان أحد في محلة جقور قد شاهد هؤلاء الناس من قبل. كان من الواضح أنهم غرباء، قادمون من أفريقيا، أو ربما من مكان آخر. وبدا لأطفال المحلة أنهم يعرفون هؤلاء الذين كانوا قد شاهدوهم من قبل في السينما، فراحوا يصرخون، مولولين «الوحشيون، الوحشيون». وأشارت أرملة قره قول التي كانت تقتعد الأرض، بيدها إلى بيت الملّا زين العابدين القادري، قائلة شيئاً لم يفهمه أحد من الذين كانوا يتحلقون حولها، فقد كانت الألفاظ غريبة عليهم، حتى اعتقدوا أن المرأة ربما كانت تخرف. ولكن أحد الرجال السود الثلاثة قال لها شيئاً ما، ردت عليه بكلمات غريبة أيضاً. وعند ذاك تأكد رجال المحلة ونساؤها أن هؤلاء الناس يتحثون لغة أخرى، كان من الواضح أنها لغة السود. وفي هذه اللحظة ظهرت زوجة الملّا مرة أخرى على السطح وراحت تكيل الشتائم لأرملة قره قول التي رفعت يدها باتجاه السطح، قائلة بلغة السود «دوشمان»، وهي كلمة قال الأطفال الذين كانوا قد شاهدوا الكثير من الأفلام الأميركية عن الوحشيين إنها تعني «العدو». وفي لمح البصر أخرج أحد السود قوسه وأطلق سهما باتجاه زوجة الملّا. لكن المرأة التي كانت قد انتبهت إلى الخطر المحدق بها تراجعت، معولة، فمرق السهم من فوق رأسها، مئزاً في الفراغ. كان هذا أكثر مما يمكن أن يطيقه سكان محلة جقور الذين شعروا أن هؤلاء السود قد جرحوا كرامتهم وتدخلوا في أمر لا يعنيهم. فإذا كان

من حق أرملة قره قول أن تتشاجر، باعتبارها واحدة منهم، فليس من حق الغرباء والوحشيين بالذات، أن يرشقوا بسهامهم زوجة الملّا. وانفجرت نساء المحلة أولاً في وجه هؤلاء الغرباء، شاتمات إياهم وصارخات، ثم تبعهن الأطفال، رامين السود بالحجارة وقناني النامليت. ولكن السود بدل أن ينسحبوا راحوا يرقصون في حركة دائرية، هازين فؤوسهم فوق رؤوسهم، مطلقين صرخات وحشية، قال الأطفال إنها رقصة الحرب. ووصل عباس بهلوان ومحمود العربي اللذان بلغهما خبر الشجار وهما عائدان من الضريح. قفز أحد السود عالياً باتجاه الحشد، ملوحاً بفأسه مما أفزع النساء والأطفال الذين بوغتوا بالحركة فتراجعوا، ساقطين فوق بعضهم الآخر. ونادت أرملة قره قول التي كانت لا تزال جالسة على الأرض، متكئة على الحائط بأعلى صوتها: «لو كنت رجلاً أيها الملّا الكذاب فاخرج من بيتك الذي تختبىء فيه». ثم تمتمت ببضع كلمات بلغة السود، هجم الرجال الثلاثة بعدها على باب بيت الملا زين العابدين القادري وراحوا يضربونه بفؤوسهم، محاولين كسره. هذه الحركة جعلت عباس بهلوان ومحمود العربي يندفعان من بين الحشد، وقد أمسك كل منهما في يده ساطوراً، أخذه من قصابي المحلة الذين كانوا يتفرجون على المشهد. نادى عباس بهلوان على الرجال السود الثلاثة بأعلى صوته: «أيها الوحشيون سوف تذبحون اليوم مثل النعاج». لم تؤثر كلمات عباس بهلوان في السود الذين كانت عيونهم تقطر شرراً، إذ هجم عليه أحدهم بفأسه حتى قبل أن يكمل جملته، ولكن عباس بهلوان مال جانباً في اللحظة المناسبة ففقد الرجل توازنه، وعندئذ وجه عباس بهلوان ركلة إلى قفاه، جعلته يهوي على وجهه فوق الأرض والدماء تسيل من أنفه. دوى تصفيق حاد من الحشد، مختلط بالضحك ونداءات «هيا اجهز على الوحشي يا عباس». وانضم إلى عباس

بهلوان ومحمود العربي عامل النفط عبد الله علي، وهو يحمل في يده رمحاً، كان يملكه ذات يوم جده حنظل الذي خاض معارك لا تعد في غزوات العرب ضد قوافل التجار في القرن التاسع عشر وفقد يده اليسرى في معركة وقعت مع الاتراك على ضفة نهر دجلة. وصاحت إحدى النساء: «الآن يمكن للمعركة أن تكون عادلة. ثلاثة ضد ثلاثة».
رمى عباس بهلوان بنفسه فوق الرجل الأسود الذي سقط على الأرض وشد ذراعيه إلى الوراء ثم ضربه بين كتفيه حتى أوشك أن يغمى عليه، ثم جره وسلمه إلى الشبان الواقفين، ليوثقوا يديه ورجليه بحبل. وعاد مرة أخرى إلى الميدان، حيث كان محمود العربي وعبد الله علي يخوضان معركة قاسية ضد الرجلين الآخرين. كان محمود العربي قد اشتبك مع أحدهما في صراع بالأيدي بعد أن باغته بضربة أوقعت الفأس من يده فرمى هو الآخر ساطوره على الأرض، مؤكداً مرة أخرى على سمو أخلاقه حتى في مثل هذا الموقف الصعب. تدحرج الرجلان على الأرض ثم نهضا ثانية. قفز الرجل الأسود في الهواء محاولاً ضرب محمود العربي في صدره برجليه، بيد أنه أخطأ هدفه فاصطدم بالجدار وهوى على الأرض، فاقداً الوعي. وكان عبد الله علي برمح جده الطويل قد حاصر الرجل الأسود الآخر وجعله يرمي بفأسه على الأرض، معلناً استسلامه. وضجت محلة جقور بالتصفيق وهتافات «اللهم صل على سيدنا محمد». واقتاد شبان جقور الأسرى الثلاثة إلى الخرابة القريبة التي كان يتدرب فيها الرياضيون عادة وشدوهم إلى ثلاثة أوتاد، دقوها في الأرض، ثم أحضروا قدراً كبيراً، كانت المحلة تستخدمه عادة في غلي الحبوب التي تؤكل في الشتاء، ملأوه بالماء وأوقدوا النار تحته. وصبغ شبان آخرون وجوههم بدهان أحمر، وراحوا يرقصون حول الرجال السود الثلاثة، موحين لهم بأنهن يريدون طبخهم وأكلهم، وسط ضجيج الأطفال الذين كانوا

يملأون المكان، وضحكت النساء اللواتي كن يتفرجن على المشهد من وراء السور الواطىء للخرابة. ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، فقد قدمت سيارة جيب مسلحة، نزل منها ثلاثة شرطيين، شاركوا الحشد ضحكه قبل أن يفكوا وثاق الأسرى الثلاثة ويضعوا الأصفاد في أيديهم، ثم يأخذوهم معهم إلى مركز قريب للشرطة، كان يقع في محلة اليهود. ولم ينتبه أحد إلى اختفاء أرملة قره قول التي كانت قد انسحبت هي وأطفالها الأربعة، تجنباً للوقوع في الأسر، عندما اكتشفت أنها أخطأت في تقدير قوة الخصم. ولكنها كانت مخطئة في اعتقادها هذا، إذ ما كان يمكن لأحد في محلة جقور أن يتعرض لها ولأطفالها الأربعة السود بالسوء، رغم سلاطة لسانها، فقد كنت لا تزال في نظرهم أرملة قره قول، أعظم ولي شهدته مدينة كركوك في تاريخها كله. ولم يكن هيناً عليهم أن ينسوا هذه الحقيقة.

لم يفطن الناس إلى غياب الملّا زين العابدين القادري إلا في نهاية ذلك اليوم الصاخب الذي عاشته محلة جقور. أكيد أنه ما كان يليق بالملّا أن يتبادل الشتائم مع أرملة قره قول، بيد أن غيابه حتى بعد انتهاء المعركة، وانسحاب أرملة قره قول، أثار فضول الناس وأسئلتهم. كان عليه أن يخرج ويشكر الرجال الثلاثة الذين غامروا بحياتهم، دفاعاً عن شرف بيته. بل إن بعض الناس قال إن على الملّا أن يزيد راتب كل من عباس بهلوان ومحمود العربي، الموظفين في دائرته أو أن يصرف لهما إكرامية مجزية على الأقل، بعد البسالة التي أبدياها في مواجهة الوحشيين السود الثلاثة، إذ لولاهما لدخلوا على الملاّ في بيته ومزقوه إرباً.

أبلغ عباس بهلوان ومحمود العربي الرجال الذين كانوا قد فرشوا بساطاً في الشارع أمام المسجد وجلسوا عليه، متمتعين باستعادة تفاصيل المعركة، أن الملّا لم يحضر الدائرة منذ ثلاثة أيام. وكان

الملّا قد انقطع عن الذهاب إلى مسجده أيضاً لأداء صلاة العشاء، وهو أمر ما كان يحدث إلا نادراً. وفجأة أدرك الرجال أن أمراً ما حدث للملا، أرغمه على الانزواء. ولم يعد بد من زيارة الملا زين العابدين القادري في بيته. قرع الرجال باب البيت ففتحته زوجته التي كانت عيناها متورمتين من البكاء. قالت: «لا أعرف ما الذي جرى للملّا. منذ ثلاثة أيام لم يفه بكلمة واحدة. أعتقد أنه فقد القدرة على الكلام». جلس الرجال في الغرفة الطويلة التي كان الملّا يقرفص في زاوية منها، محدقاً في الفراغ. لم يكن يبدو عليه المرض سوى أن عينيه كانتا زائغتين كما لو أنه ساه عن العالم كله. بل إنه لم يرد حتى على تحية الذين جاؤوا يعودونه، كما لو أنه لا يعرفهم. وقال خضر موسى: «لا بد من طبيب يفحصه، لا يمكن الاعتماد على القدر».

بعد نصف ساعة حضر طبيب فحص الملّا، فلم يجد ما يدعو إلى القلق سوى الخرس الذي عجز عن فهمه. فتح فمه وتحسس لسانه وحنجرته بقطعة من الخشب، فوجد كل شيء على ما يرام، حينئذ توجه إلى بكر وهو الابن الأكبر للملّا وقال له: «أعتقد أن والدك يعاني من صدمة، وهذا أمر لا علاقة له بالطب والأدوية». وفتح الملّا فمه المغلق كما لو أنه كان ينتظر الجملة التي فاه بها الطبيب وقال: «لقد رأيته، كان هناك». قال الطبيب مزهواً: «لقد انتهت هذه المشكلة أيضاً. الملّا يتكلم كما ترون». ثم بادره بابتسامة رقيقة: «من الذي رأيت؟». حدق الملّا في وجهه ملياً قبل أن يقول: «رأيت كل شيء».

ثم نهض وارتدى جاكيتته التي كانت معلقة فوق رأسه وانتعل حذاءه وانسل إلى الخارج، وهو يردد مثل شريط مسجل المرة تلو الأخرى: «رأيت كل شيء»، فتبعه الرجال الذين كانوا معه في البيت حتى ضريح قره قول، حيث استقبله شرطة المخفر مرحبين. وفتح الحارس الباب المغلق للمديرية فدخل، يتبعه الحشد الذي كان يسير وراءه

حيث اتجه إلى مكتبه، ملقياً نظرة متأملة على التابوت الذي كان يتصدر المكان. اغرورقت عيناه بالدموع وهو يعانق الجميع، مودعاً: «أريد أن أقضي ليلتي هنا، قريباً من قره قول». ثم تمدد في التابوت، طالباً من الرجال أن يطفئوا النور في طريقهم، لأنه يريد أن ينام. إنسحب الرجال صامتين، فأنصت إلى صوت خطواتهم المبتعدة في الظلام ثم أغلق عينيه وغفا.

الفصل التاسع

نقل الملّا زين العابدين القادري في التابوت نفسه الذي مات فيه إلى بيته حتى تبكيه أرملته وتودعه محلة جقور، التي لم تكن عواطف أبنائها لتظهر وتضطرم إلا عندما يرون الموت وقد اختطف واحداً منهم. وكان من عادة نساء محلة جقور أن يندبن الميت ثلاثة أيام، يلتهمن خلالها الكثير من فطائر الحلوى المصنوعة من التمر، والتي كان أهل الميت يوزعونها حتى على الغرباء الذين يمرون صدفة من أمام البيت، معتقدين أن الحلوى تترك آخر ذكرى طيبة عن الميت في أفئدة الناس. وقد جاءت منذ اليوم الأول لإعلان موت الملّا نادبة عدادة من محلة شاطرلو، ذاع صيتها في المدينة كلها لبراعتها في ابتكار المراثي، التي كانت تجعل أقسى القلوب تنفطر حزناً وعيون النساء تمتليء دموعاً على الموتى الذين كانت تنسب إليهم، حقاً أو باطلاً، الفضائل كلها. ولكن براعتها كانت تكمن في تصوير المشاهد التي تبتكرها مخيلتها. ورغم أن هذه النادبة ما رأت الملّا قط في حياتها، فإنها عرفت كل شيء عنه من نساء المحلة وأرملته التي أعطتها عشرة دنانير، قائلة لها: «أريدك أن تجعلي المدينة كلها تبكي عليه». فأخرجت النادبة من كيس كانت تحمل فيه عدة عملها، مكبر صوت، قامت بنصبه بنفسها أمام الباب وبدأت تنحب وتلطم وهي تعدد فضائل الملّا، بإيقاع رتيب، جعل النساء اللواتي كن يملأن فناء البيت يعولن ويلطمن ويمزقن ثيابهن كاشفات صدورهن، وممرغات رؤوسهن بالتراب.

واصطف رجال محلة جقور في الشارع أمام بيت الملّا، وراحوا يصغون إلى المدائح التي كانت النادبة العدادة تكيلها للملّا الراحل، حتى شعر الكثيرون منهم بوخز الضمير لأنهم لم يقدروا الملّا في حياته كما يليق به. كانت العادة تقضي أن يغسل الميت في الجامع ثم يصلى عليه ويشيع ويدفن في اليوم نفسه. ولكن الملّا زين العابدين القادري لم يكن واحداً مثل الآخرين الذين يموتون كل يوم، فقد قال ابنه بكر للرجال الذين كانوا يريدون تشييعه في اليوم نفسه: «لا تنسوا أنه مدير عام، لا بد أن تأتي الحكومة إذا ما تناهى إلى سمعها الخبر. ومن يدري فقد يأتي الملك نفسه. لا تنسوا أنه كان يعرفه شخصياً، ومن حق أبناء كركوك الذين أحبوه أن يلقوا نظرة أخيرة على جثمانه الطاهر». واقترح عباس بهلوان ومحمود العربي اللذان كانا يشعران بجميل الملّا زين العابدين القادري عليهما، أن يوضع الملّا وهو في تابوته داخل صندوق زجاجي مدة ثلاثة أيام ويعرض على سكان كركوك وزوار ضريح قره قول القادمين من العالم كله، ليتباركوا برؤية جثمانه المسجى. وقال الرجلان اللذان كان يحظيان بتقدير كبير في محلة جقور، باعتبارهما حاميين لأبنائها ضد المعتدين: «صحيح أن الملّا كان بشراً مثلنا، إلا أنه اختير ليكون سادنا لضريح قره قول وخليفته فوق الأرض. ومن ينسى أنه كانت للملّا نفسه معجزاته. تذكروا معجزة الطوفان التي شهدتها كركوك بعد قحط طويل، عندما قاد الملّا مسيرة محلة جقور إلى سهل المصلى، متضرعاً إلى الله أن يسقط أمطاره فوق المدينة، فامتلأت السماء بالغيوم، حتى قبل أن يكمل دعاءه، وكان ذلك المطر الذي لم تشهد له مدينة كركوك مثيلاً منذ طوفان نوح. هذه الإشارات التي صدرت عن الرجلين جعلت الناس يتأملون مرة أخرى في حياة الرجل الذي فقدوه وراحوا يعصرون ذاكرتهم لاستقطار كل ما قاله الملّا أو أوحى به في حياته.

تذكروا خطبة المطر وخطبة مقاومة الانكليز وخطبة التابوت. تذكروا حكمته في أن يتخذ من التابوت مكتباً له، على عكس رجال الدولة الآخرين الذين يديرون أمور رعاياهم وهم يجلسون على كراس دوارة. تذكروا حكمته في اتخاذه من عربة الذهب مطية، يقصد بها المقهى. وقال ابنه بكر: «أعتقد أنه مات لأنه رأى الغيب ينكشف أمامه». وتذكر رجال جقور أن الملّا ظل يردد قبل موته: «لقد رأيت كل شيء». وتأكدوا أن حجاب الغيب الذي رفع من أمام عينيه هو الذي جعل لسانه ينعقد وعينيه تزوغان من الرهبة. مات الرجل حتى من دون مرض، مصغياً إلى النداء القادم من الأبدية.

وضع التابوت الذي يضم جثمان الملّا داخل صندوق مغلق من الزجاج الشفاف مليء بقوالب ثلج جيء بها من معمل الثلج الذي كانت عائلته تملكه، حتى لا تتعفن الجثة أو تتعرض للفساد فوق دكة عالية بنيت في الشارع أمام مسجده، وأحيط الصندوق الزجاجي بعشرات المصابيح الملونة التي تشتعل وتنطفىء، بعد أن قام بعض العمال بسحب الكهرباء من عمود كان يقع في زاوية الشارع. هذا الأمر الذي كان بدعة لم تألفها مدينة كركوك، اجتذب الآلاف من الناس الذين جاؤوا ليتفرجوا على الملّا الذي كان يبدو أشبه بالنائم، وقد غطي بالعلم العراقي ووضعت فوق صدره عمامته. لم يكن يبين من الملّا في الحقيقة سوى وجهه الشاحب الطويل وعينيه الغائرتين اللتين كان يغطيهما حاجبان كثيفان متصلان. أما لحيته المتهدلة البيضاء فكانت قد مشطت وهذبت أطرافها بالمقص لتبدو أنيقة، وهو أمر ما اهتم به الملّا كثيراً في حياته. كان الناس يأتون ويمرون من أمام الصندوق، ملقين عليه ما كانوا يسمونه النظرة الأخيرة. ولكن الكثيرين كانوا يستديرون عائدين ليلقوا عليه نظرة أخرى. وقد أسر ذلك الأطفال خاصة، حيث كانوا يمرون مقلدين الكبار الذين كانت

الدموع تنهمر من عيونهم وهم يقفون أمام الصندوق. ومثلما يحدث دائماً اختلف علماء الدين المسلمون هذه المرة أيضاً على وضع الملّا داخل صندوق زجاجي وعرضه على الناس. فقد رأى بعضهم أن الإسلام ينهى عن تحويل جثة المؤمن إلى فرجة للناس، كما لو أنه قرد في حديقة للحيوان، وأن أمراً مثل هذا لا بد وأن يقود إلى الضلال. وقال هؤلاء إن حدسهم قد صدق، عندما راح بعض الناس يدعي أن الملّا غمز له بعينه وهو داخل تابوته أو ابتسم، بل إن النساء اللواتي ظللن يطفن حول الصندوق طوال ليال ثلاث، لاطمات باكيات، ذكرن أنهن رأين الملّا في فجر الليلة الثانية يرفع رأسه ويعتدل قليلاً في جلسته ثم يخلد إلى النوم. ولكن أحداً لم يصدق بالطبع ما روته هاته النساء اللواتي كن ناقصات عقل ودين. وقد اشتد غضب العلماء عندما سمعوا ان محلة جقور تفكر بتحنيط جثمان الملّا ووضعه داخل صندوق زجاجي حتى تتفرج عليه الأجيال القادمة أيضاً، مركزين على أن ذلك سوف يجعل من الملّا صنماً، يعبده الناس، وهو ما لا يرضى به الله أو رسوله. ومما زاد الطين بلة هو أن الشيوعيين راحوا يشيعون بين الناس أن الملّا يمثل رمزاً وطنياً في مكافحة الاستعمار الانكليزي وأن تحنيطه يكرس هذا الرمز ويؤصله في قلوب الناس، مؤكدين على أن تحنيط القادة عمل حضاري، لا بد وأن يشيع في العالم كله، وأن الروس كانوا أول من طبق هذه الفكرة التي اقتبسوها من الفراعنة عندما قام العمال والفلاحون بتحنيط كل من القائدين العظيمين لينين وستالين، وهو تقليد سوف يشمل جميع القادة الآخرين بالتأكيد. أصدر محامي أرملة قره قول بياناً ضد فكرة التحنيط، غمز فيه من قناة الملا زين العابدين القادري، مشيراً إلى أن ثمة دعوى مرفوعة ضده في المحاكم بتهمة السطو على أموال لا تخصه. والتجأ عدد من أعضاء جمعية «الحياة الآخرة»، حتى من دون

أن يتيقنوا تماما من الأمر، إلى أحد الجوامع، معلنين الإضراب عن الطعام حتى الموت إذا لم تتخل الحكومة وتوقف عملية التحنيط.

هذه الضجة المفتعلة التي لم تكن قائمة على أساس والتي أججتها إشاعات ربما كانت وراءها أرملة قره قول، جعلت عائلة الملّا تصدر بياناً، رثت فيه الملّا زين العابدين القادري، معلنة عن إقامة حفل خطابي وشعري، يسبق تشييع جنازة الملّا الذي سيدفن في صحن مديرية قره قول. وخصص المتصرف جائزة من مئة دينار، تمنح لأفضل قصيدة تلقى في الحفل، فجاء الشعراء من كل مكان في العراق وسوريا ومصر والسودان، وهي بلدان اشتهر شعراؤها بنظم قصائد المديح، حاملين في جيوبهم قصائدهم المطولة. ورغم أن الملّا زين العابدين القادري دفن في اليوم الثالث من عرضه في الصندوق الزجاجي بعد أن ذاب الثلج وأخذت جثته تتعفن وتفوح رائحتها، فإن الحفل استمر سبعة أيام أخرى حتى يلقي الشعراء مراثيهم التي نشرت الصحف مقتطفات منها مع صور لضيوف الشرف الجالسين في الصف الأول والذين كان المتصرف يتوسطهم دائما. وحدث ما يشبه الضجة عندما قررت لجنة التحكيم التي كانت مؤلفة من المتصرف ومدير البلدية ومدير الأمن ومدير الأوقاف، معتمدة في حكمها على كثرة التصفيق الذي لقيته كل قصيدة، من دون إغفال التوزيع الجغرافي للبلدان التي كان الشعراء قد جاؤوا منها، منح الجائزة بالتساوي لأربعة شعراء هم عبد التائب عبد الغائب وسلمان الصافن الذي كان يلقب بشاعر الأمة، نظراً لعمله في معمل سجائر الأمة في العطيفية في بغداد وأيمن سلطان الأيمن من سوريا وطبيب الأمراض العصبية المصري جرجيس رامي. فقد رفض الشعراء الفائزون أنفسهم هذه القسمة الضيزى وأرسل كل منهم برقية إلى المتصرف يطلب فيها تدخله العادل حتى تكون الجائزة كلها من نصيبه

هو وحده. ونشبت معارك كلامية بين الشعراء الفائزين وغير الفائزين، حيث ادعى بعضهم أن عبد التائب عبد الغائب من عبدة الشيطان ولا يحق له أساساً رثاء مؤمن في مثل مركز الملّا زين العابدين القادري، واتهم آخرون الصافن بكونه شيوعياً حاقداً، أصيب بالخرف من كثرة مكوثه في السجن. وقال بعض الشعراء الذين لم يحصلوا على الجائزة إن الشاعر السوري الفائز باطني، اعتاد نظم القصائد في مدح كل من هب ودب والانتقال من الأحمر إلى الأخضر إلى الأسود، سعياً وراء الرزق. ونفى الشاعر المصري المعروف أحمد رامي الذي لم يشارك في الحفل أن تكون له أي صلة قربى بالشاعر الفائز جرجيس رامي، مؤكداً بلهجته المصرية: «ده طبيب بهلوان وحق ثومة». وعند ذاك فقط انتبهت لجنة التحكيم إلى خطئها الذي لم تعد قادرة على التراجع عنه، فقد وضعت اسم جرجيس رامي بين الفائزين، متوهمة أنه الشاعر أحمد رامي الذي كان المتصرف نفسه يسهر في ليلة أول جمعة من كل شهر، واضعاً أمامه قنينة العرق ويذوب في صوت أم كلثوم، وهي تغني واحدة من روائعه. ولم تنته ضجة الشعراء إلا بعد تدخل خضر موسى الذي تبرع بثلاثمئة دينار أخرى، فحصل كل واحد من الشعراء الأربعة على المئة دينار التي جاء من أجلها إلى كركوك.

هذا الأمر أقلق الصبي برهان عبد الله الذي كان يعتقد أن الشعراء قوم مهذبون، فإذا به يراهم على حقيقتهم: متسولون يمدحون حتى الشيطان نفسه من أجل حفنة من الدنانير ومهرجون يحركون أيديهم وأرجلهم فوق كل منصة صارخين بأتفه الكلام. وقال خضر موسى لإبن أخته برهان عبد الله، مداعباً: «هل تريد أن تكون شاعراً بعد كل الذي رأيته من الشعراء يا برهان؟» رد برهان عبد الله بشيء من الاعتداد بالنفس: «هناك فارق دائماً بين الشاعر والشحاذ يا خالي، وهؤلاء جميعاً شحاذون، لا شعراء». ولكن ما قاله الصبي كان تعالياً

فارغا، فقد جعلته الصدمة يهجر كتابة الشعر أعواماً طويلة، حيث أسرته فكرة كان قد استوحاها من قراءة الكتاب المقدس الذي كان قد حصل على نسخة منه. كان برهان عبد الله قد وجد أن حياة الملّا تتضمن كثيراً من المواعظ التي تصلح أن تروى، لتكون جزءاً من التاريخ المقبل للبشرية. ولذلك أغمض عينيه وراح يتصور الملّا مسيحاً أخر، سبله مستقيمة، وقد امتزجت في رأسه الكلمات حتى ما عاد يميز بين الماضي والحاضر «كما هو منقوش في الأولياء ها أنا أنزل أمام عينك إمامي الذي يعبّد طريقك وراءك. صوت صارخ في البرية تلك هي سبلي مستقيمة. كان الملّا يسير بين الأمطار. وخرج إليه جميع أهل كورة الإسلامية وأهل جقور واغتسلوا معه في نهر خاصة صو، من خطاياهم. وكان الملّا يلبس وبر الإبل ومنطقة من جلد على حقويه ويأكل جراداً وعسلاً برياً. وللوقت راى الجبال قد انشقت والروح مثل حمامة، نازلاً عليه، فجفل وصدع قلبه وللوقت أخذه الروح إلى البرية. وكان هناك في البرية أربعين يوماً يجرب من الشيطان. وكان مع الوحوش. وصارت الملائكة تطعمه المن والسلوى. وفيما هو يلقي شبكة في الماء قال للصيادين الذي اجتمعوا حوله: هلموا ورائي فأجعلكم تصيرون صيادي الناس». هذا الاستهلال الانجيلي لقصة حياة الملّا أقلقت برهان عبد الله أكثر مما منحته الثقة بقدرته على اكتشاف الرسالة التي حملها الملّا زين العابدين القادري إلى محلة جقور، حيث تساءل مع نفسه: «ولكن ما الذي رآه حقاً؟». كان من الصعب عليه أن يعرف الحقيقة، فقد ذهب السر مع الملّا إلى قبره. ولكنه كان متأكداً من أن الملّا ما كان ليموت لو لم ير ما لا ينبغي له أن يراه. أهذا هو قدر الإنسان إذن؟ وبلغ به الحزن مداه. فقد كان يريد هو الآخر أن يرى ما لا يرى، أن يكشف سر الأسرار،

ولكن دونما استعداد للموت، ذاك الذي يشبه النوم، سوى أن المرء لا يستيقظ منه أبداً.

وخالط الشك قلب برهان عبد الله «هل يستحق الملّا أن أدون سيرته؟ أن أجعل مه أمثولة تروى؟ لا يمكن أن أجعل منه ملاكاً، هو الذي كان يقدس النقود». وابتسم مع نفسه «لقد بدأت أخرف أنا الآخر مثل الملّا. لقد رأى الملّا كل شيء. ولكن ما الذي رآه حقاً؟ ربما رأى ملائكة تهبط من السماء أو شياطين ملونة، بذيول ولحى ترقص أمام الجحيم. ربما لم ير شيئاً فابتلعه الفراغ». وأغمض عينيه فرأى ملائكته، الملائكة الثلاثة، الشيوخ الذين يحملون على ظهورهم أكياساً ممتلئة بالربيع «ربما كان على أن أكتب عن ملائكتي أنا، هؤلاء الرجال القادمين من الأبدية والمتجهين إلى محلة جقور البعيدة، جقور التي ربما لن يصلوها أبداً». وداخل الشك قلبه مرة أخرى، «ربما ليسوا ملائكة. ربما كانوا شيوخاً متعبين، قادمين من مدينة أخرى». وتساءل: «إذا كانت لله رسالته فهل يمتلك الشيطان رسالة أيضاً؟»، ثم أجاب: «كلا، كلا! ما من رسالة للشيطان. الرسالة الوحيدة الممكنة إلى البشر هي رسالة الله». ولكنه ما كان واثقاً من الأمر في الحقيقة، حيث تنهدم الحدود بين الواقع والوهم دائماً.

كان برهان عبد الله يقف في الصحراء، محدقاً في ملائكته الثلاثة الذين اختفوا وراء الأفق عندما رأى بناية بيضاء، مغطاة بالمرايا، تنتصب منفردة في الرمل مثل قلعة أسطورية، طالما حلم بها في ليالي وحدته. ظل واقفاً بعض الوقت، لا يعرف إن كان ينبغي عليه أن يتقدم إلى الأمام أم أن يتراجع إلى الخلف. وتراءى له أنه سمع صوتاً، قادماً من أعماق الكون يناديه: «تقدم يا برهان ولا تخف!» كان شيء ما يجتذبه إلى الأمام، حتى بلغ باباً، علقت على جانب منه لوحة من

البرونز، كتبت عليها عبارة لم يفهم معناها تماماً «المكتب المركزي لإدارة الكون». توقف أمام الباب الذي كان مصنوعاً من الذهب المزين بالجواهر، خائفاً ومرتبكاً، ولكن الصوت ناداه مرة أخرى: «اقرع الباب ولا تخف!» فقرع الباب ثلاث مرات قبل أن ينفتح، حيث استقبله ثلاثة ملائكة، أثارت دهشته بأجنحتها البيضاء القصيرة التي كانت ترفرف بها، متنقلة من مكان إلى آخر.

وسأله أحد الملائكة: «ما الذي جاء بك إلى هنا يا برهان؟». تلعثم برهان عبد الله قليلاً قبل أن يقول: «جئت أبحث عن الله، ليقول لي معنى كل شيء: لماذا يوجد الإنسان إذا كان محكوماً بالموت؟ لماذا يفسد الزمن كل شيء؟ لماذا يخلق الله كائناً يتحداه؟ إن كل ذلك يبدو لي أشبه ما يكون بلعبة لا هدف لها». إبتسم الملاك: «لا ينبغي لك أن تقلق كثيراً، إذ ما أنت سوى بطل في رواية مختلقة، يكتبها مؤلف يعاني من الضجر». ثم وضع يده على كتف برهان عبد الله وقال له بمودة: «ربما تحدثنا مع المؤلف ليقول لك معنى قصتك التي قد لا تمتلك أي معنى». وكتم برهان عبد الله غيظه: «جئت أسأل الله عن المعنى فإذا بك تحيلنى إلى مؤلف قد لا يكون أكثر يقيناً منى أو منك». ورد الملاك: «إذا كنت لا تثق بمؤلف قصتك فربما تثق بنا. سوف نهبط معك إلى محلة جقور، لنعلمك ما لا تعلم. ولكن حذار من صدمة الحقيقة التي قد تتجلى لك ذات يوم». وقاده الملاك العجوز إلى باب فتحه، فإذا بهم جميعاً في محلة جقور.

كان برهان عبد الله قد نسي القصة كلها، مثل حلم، ينساه المرء في اليوم التالي. استيقظ ذات صباح فوجد ثلاثة غرباء يخرجون من بيت ما سكنه أحد قط من قبل، حاملين على أكتافهم المعاول، متجهين إلى نهر خاصة صو، قاصدين مجاريه البعيدة عن المدينة.

هؤلاء الغرباء الثلاثة أثاروا استغراب سكان محلة جقور بملابسهم الغريبة التي كانوا يرتدونها حتى لكأنهم كائنات قادمة من عالم آخر، لا علاقة له بعالمهم. وقد تبعهم الأطفال، خائفين الاقتراب منهم، إذ ظلوا يرصدونهم عن بعد، وهم يشقون قنوات صغيرة بين الحصى الملونة لنهر خاصة صو. وعندما سئم الأطفال من الانتظار تقدم أحدهم وسأل بشيء من الخوف: «لماذا تحفرون النهر؟». رفع أحدهم، وهو رجل عجوز، ربما كان في السبعين من عمره، رأسه وقال مبتسماً: «إننا نبحث عن الذهب». ظل الأطفال واقفين قليلاً، ثم قفلوا عائدين، ليبلغوا آباءهم وأمهاتهم بما قاله لهم الرجل العجوز. غرقت محلة جقور كلها في الضحك، ساخرة من خفة عقل هؤلاء الغرباء. فقد يجد المرء أي شيء في خاصة صو سوى الذهب. ومع ذلك فإن الأمر أثار ريبة الكثيرين، حتى إذا لم يجرؤوا على الجهر به. فإذا كان هؤلاء الغرباء قد ذهبوا ينقبون عن الذهب في خاصة صو، فلا بد أنهم متأكدون من وجوده هناك. وإلا ما بددوا وقتهم في الركض وراء الوهم. وقد تحول الأمر إلى يقين عندما أشيع في محلة جقور أن هؤلاء الغرباء يتبعون الشيطان، ولا بد أنه هو الذي دلهم على وجود الذهب في نهر خاصة صو. وفي اليوم التالي أرسل بعض الآباء أبناءهم إلى نهر خاصة صو ليبحثوا هم أيضاً عن الذهب. تكرر الأمر مرتين أو ثلاث مرات دون أن يعثروا على أي شيء، فأصابهم الملل وعادوا إلى بيوتهم.

في الحقيقة إن وجود غرباء يعبدون الشيطان في محلة جقور أثار الحيرة والخوف في قلوب الناس، حتى أنهم ظلوا يتساءلون إن كان ذلك ممكناً. كيف يمكن لمخلوق أن يعبد الشيطان ما دام الله موجوداً؟ خطرت في ذهن بعض الشبان المندفعين فكرة ضرب هؤلاء الغرباء أو حتى إضرام النار في البيت الذي يقيمون فيه، إلاّ أن شيوخ المحلة

نهوهم عن ذلك، فقد كان الأمر يتعلق بحق الجيرة الذي كانت محلة جقور تعتبره مقدساً. في واقع الحال ان الأمر لم يكن واضحاً تماماً في نظر الناس الذين ما كانوا قد رأوا عبدة شيطان في مدينة كركوك. وقد اختلف الناس في أمر هؤلاء الرجال الغرباء الذين قيل إنهم قد نزحوا من جبل سنجار. فمنهم من اعتبرهم مسلمين يتبعون مذهباً خاصاً بهم، ومنهم من قال إنهم وثنيون، لم تصلهم رسالة الإسلام بعد. ولكن أهل العلم قالوا إنهم مجوس جاؤوا من إيران قبل ألف عام، فاعتنقوا الإسلام الذي حرفوه ليناسب عقيدتهم القديمة. ويبدو أن ذاك الذي يسميه الناس الشيطان كان قد طمع في هؤلاء القوم السذج منذ اللحظة التي غادروا فيها مدينة يزدم في بلاد فارس، حيث قادهم عبر الوديان والأنهار والجبال الوعرة مجتازاً بهم القبائل الكردية المتوحشة التي كانت تقطن الكهوف حتى جبل سنجار الذي احتل مداخله محاربوهم الشبان، الذين نصبوا راياتهم الحمر فوق القمم. ولم يكن هذا الشيطان الذي أحبهم وجعل من نفسه دليلاً لهم سوى طاؤوس ملك، الذي اتضح بعد أعوام طويلة من ذلك أنه كان رئيس الملائكة نفسه، والذي اعترض على أمر الله عندما طلب منه أن يسجد لآدم. وهنا تبدأ المشكلة. ففي حين أن المسلمين يقولون إن تمرد رئيس الملائكة أغضب الله فمسخه شيطاناً رجيماً، يقول هؤلاء إن الله اكتشف في تمرده حكمة عالية، مما جعله يرفع من قيمته. فقد رفض طاؤوس ملك السجود لآدم لاعتبارات مبدئية، أولًا، لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من تراب، وثانياً لأنه لا يجوز السجود لمخلوق غير الله الذي كان هو نفسه قد أمر بذلك.

هذا الرأي أثار بالفعل مخيلة أبناء محلة جقور الذين دخلوا في مناقشات حامية مع هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا ليقيموا في مدينة كركوك، فقد كان في رأيهم الكثير من الحق الذي يصعب رده. وقد

انقسمت مدينة كركوك كالعادة إلى طائفتين: طائفة تؤيد موقف الله وأخرى تؤيد موقف رئيس الملائكة. فقد قال الذين أيدوا موقف الله إن ثمة حكمة دائماً في ما يقوله الله أو يفعله، حتى إذا بدت هذه الحكمة غامضة، وغير مدركة بالنسبة للكثير من البشر. وربما أراد الله بطلبه الغريب ذاك أن يضفي على آدم قداسة خاصة وأن يفضله على جميع الكائنات الأخرى. أما الذين عارضوا هذا الموقف، مؤيدين موقف رئيس الملائكة، فقد اعترفوا بشجاعة أوصلتهم إلى الكفر أن الله قد ناقض نفسه عندما طلب إلى ملائكته أن تسجد لآدم. فإذا كان بعض الملائكة قد فعل ذلك، فذلك إما لخفة في عقله أو تملقاً لله وخوفاً من غضبه وطمعاً في المزيد من الوجاهة. وقال المعارضون إن رئيس الملائكة رفض فكرة أن يناقض الله نفسه، دفاعاً عن الحقيقة. وهذا أمر يستحق الاحترام أكثر من موقف الملائكة الأمعات.

هؤلاء الغرباء رفضوا منذ البداية أن يعتبروا أنفسهم أتباعاً للشيطان الذي كانوا يسمونه السيطان، لأنهم ما كانوا يجرؤون على لفظ حرف الشين الذي قالوا إنه يذكر الشيطان بهم. بل إنهم ذهبوا إلى القول أن السيطان كائن لم يخلقه الله وإنما خرج من العدم ليقاتل ويضلل أبناء الله، إذ لا يعقل أن يكون الله الممتلىء حباً لأبنائه قد خلق كائناً شريراً مثل السيطان، لا رساله له في الحياة سوى اقتياد البشر إلى الهاوية. وذات مرة قال الرجل العجوز لبرهان عبد الله: «أعرف أنك سترى السيطان ذات يوم. إذ ذاك فقط ستعرف الحقيقة المرة يا بني. أما نحن فلسنا سوى ملائكة فقراء مثل جميع الملائكة الأخرى فوق هذه الأرض الآيلة للفناء».

كان برهان عبد الله الذي انحاز منذ البداية إلى موقف رئيس الملائكة، قد عقد العزم على مصادقة هؤلاء الغرباء الذين كانو يقولون

ما لا يقوله الآخرون. وقد وثقوا به حتى أنهم راحوا يأخذونه معهم كل يوم للتنقيب عن الذهب في نهر خاصة صو، ثم أطلعوه على المصحف الأسود الذي كان الشيخ يزيد قد ألفه بوحي من طاؤوس ملك، حيث أثارت مخيلته النصوص التي تروي ظهور الخليقة ونشوء العناصر الأربعة المقدسة: النار، التراب، الهواء والماء. وأخيراً أدخلوه إلى بيتهم، بعد أن استبدل بقميصه الأزرق قميصا أبيض وكف عن التهام رؤوس الخس التي يقيم الشيطان بين أوراقها. بعد العودة من نهر خاصة صو ذات مساء قال العجوز الذي كان يلقب نفسه بالشيخ يزيد شيئاً ما لولديه زيفر وبيجوه بلغة كان يجهلها الصبي برهان عبد الله ثم التفت إليه بمودة: «ما من أحد في محلة جقور دخل بيتنا حتى الآن. ستكون الأول الذي يفعل ذلك». اقترب زيفر من الباب فقرعه. مرت لحظات قبل أن تفتح الباب امرأة عجوز كانت ترتدي ملابس حمراء، مزركشة بخيوط فضية. ورأى برهان عبد الله في فناء الدار حفرة كبيرة، تتقد فيها النيران، وقد فرش ما حولها بالسجاد الفارسي، فجلس قريباً من النار التي كانت تبدد الظلام، ملقية بظلالها فوق الجدران، وأخرج الشيخ يزيد من صندوق خشبي مركون في زاوية من فناء البيت تمثالاً من الذهب، يشبه الديك وضعه أمام النار المتقدة، حيث راح الجميع يرتلون بصوت رتيب، هازين رؤوسهم يمنة ويسرة، دعاء ما كان برهان عبد الله قد سمع مثله من قبل:

يزيد هو السلطان بعينه

سمي بألف اسم واسم

ولكن اسمه الأعظم هو الله

السلطان يزيد يدرك

ما يحويه البحر من مياه

والدنيا أمامه

خطوة واحدة

يقطعها في لحظة[1]

وجر زيفر دفا صغيراً، راح ينقر فيه بصوت خافت على إيقاع الدعاء الذي كانوا يرددونه. وشيئا فشيئاً غرق برهان عبد الله هو الآخر في حلم بعيد، ما كان قادراً حتى على الإمساك به، حلم يفلت في الزمن ويغيب في ألسنة النار المتقدة. وفجأة اجتذبت انتباهه ملائكة صغيرة بحجم الكف، ملائكة بأجنحة يغطي جسمها زغب ناعم في لون الفضة تخرج من أحد الأقفاص وترقص وتطوف حول تمثال الديك الذهبي. شعر برهان عبد الله فجأة بالرعب حتى أنه فكر بالهرب ومغادرة البيت، إلاّ أن العجوز تنبه إلى خوف الصبي فأمسك بيده، كما لو أنه يريد أن يطمئنه إلى أن كل شيء على ما يرام. وقد بدا كل شيء بالفعل على ما يرام، إذ ما كاد الدعاء المرتل على نقر الدف يتوقف، حتى وقفت الملائكة الصغيرة بخشوع أمام تمثال طاؤوس ملك الذي كان يشبه الديك، ثم هتفت باسمه بصوت واحد: «ليدم مجد السلطان الأعظم في السماء وفوق الأرض». ثم استدارت وحيت الجالسين واحداً بعد الآخر، كلاً باسمه، حتى أن برهان عبد الله شعر بشيء من الغبطة وهو يرى الملائكة الصغيرة تحييه وتلفظ إسمه: «مرحباً بك يا برهان عبد الله في بيت الحقيقة». وفتح برهان عبد الله فمه بصعوبة: «إنها تعرف حتى إسمي». والتفت إلى الشيخ يزيد الذي كان يبتسم وهو يرتشف الشاي الذي كان موضوعاً أمامه وقال مستفسراً: «هل أنت الذي أخبرتها باسمي؟». هز الشيخ يزيد رأسه

---

(١) أبيات من قصيدة دينية لليزيديين في جبل سنجار في شمال العراق، شيخ علي - حول اليزيدية، مجلة الثقافة الجديدة، العدد ٢٠٥، كانون الثاني ١٩٨٩.

وقال: «لم أخبرها شيئاً، إنها تعرف كل شيء. اسأل ما تشاء وسوف تتأكد من ذلك. إنها ترى حتى الغيب». لم يعرف برهان عبد الله ما يمكن أن يسألها إياه فصمت لحظة ثم خطر شيء ما في باله: «من هو أفضل لاعب كرة قدم في كركوك؟» قالت الملائكة الصغيرة بصوت موحد يشبه الكورس: «ليس هناك لاعب أفضل واحد وإنما لاعبان. إنهما الأخوان وداد وسداد». فهتف الصبي برهان عبد الله وقد أثاره الجواب: «يا إلهي، إنها على حق. وداد وسداد أفضل لاعبين حقاً في المدينة». ثم تجرأ فألقى سؤالاً آخر: «غداً يلتقي فريق كركوك فريق مدينة أربيل على ملعب الشركة. هل يمكن أن أعرف نتيجة هذه المباراة المهمة؟». رددت المخلوقات الصغيرة مرة أخرى بصوت هادىء ورتيب، كما لو انها تقرأ في كتاب موضوع أمامها، كتاب مفتوح يتضمن كل ما حدث في الماضي وما يمكن أن يحدث في المستقبل: «بالطبع يمكنك أن تعرف النتيجة يا برهان. سوف يسجل فريق كركوك اثني عشر هدفاً مقابل هدف واحد لأربيل». وانتفض برهان عبد الله، كما لو أن سلكاً من الكهرباء قد مسه: «يا إلهي سوف يكون ذلك حدثاً لا ينسى». وبالفعل فإن هذه المباراة، التي شاهدها برهان عبد الله في اليوم التالي والتي كان يعرف نتيجتها مسبقاً تحولت إلى لعبة لم تشهد لها المدينة مثيلاً، حيث سجل سداد ستة أهداف وشقيقه وداد خمسة أهداف. أما الهدف الثاني عشر فقد سجله فريق أربيل ضد نفسه. وقد أضحك ذلك الجمهور كثيرا، لأن فريق أربيل كان قد ادعى قبل ذلك أنه سوف يمسح الأرض بفريق كركوك الذي تقوم كل قوته على الأخوين وداد وسداد اللذين كان الانكليز قد دربوهما على اللعب. ولا شك أن هذا الادعاء تضمن بعض الغمز واللمز، مشككا بوطنية أفضل لاعبي كرة قدم، أنجبتهما مدينة كركوك على الإطلاق. كان يمكن للجمهور أن يتقبل هذه الإهانة على مضض،

لو أن فريق أربيل أظهر مهارة تشفع له في تحديه وتباهيه وادعائه الكاذب. أما وأنه هزم بهذه الطريقة المنكرة فقد نزل المتفرجون إلى الساحة وأشبعوهم ضرباً، شاتمين حتى متصرفهم الذي كان قد شاهد اللعبة من مقصورة خاصة، شاطره الجلوس فيها متصرف كركوك الذي نسي نفسه أكثر من مرة فراح يهتف لفريق مدينته. كاد الجمهور يفتك بلاعبي فريق أربيل لولا تدخل سداد ووداد اللذين قالا للمهاجمين: «هذا يكفي. إن هزيمتهم هي أفضل عقاب لهم». وجاءت الشرطة فوضعتهم في حافلة، نقلتهم بها إلى دار الضيافة، حيث كان متصرف أربيل ينتظرهم أمام الباب. ما كادوا يدخلون الحديقة حتى أمر المتصرف بإغلاق الباب وراح يحدق فيهم الواحد بعد الآخر، بدون أن يقول شيئاً. وأخيراً فتح فمه وقال لهم، كما لو أنه يقرر حقيقة اكتشفها لتوه: «ما كنت أنتظر هذا منكم، لقد أهنتم شرفي وشرف مدينتكم». فرد المدرب الذي كان معلماً للرياضة: «لقد بذلنا جهدنا، الأمر يتعلق بالحظ». هذه الكلمات التي أراد بها المدرب تبرير هزيمة فريقه أمام متصرف أربيل الذي كان العار يملأ قلبه، أغاظت المتصرف أكثر مما مضى فرفع يده وصفع المدرب الذي تراجع إلى الوراء وهو يردد بتلقائية: «ما الذي فعلته يا حضرة المتصرف؟». فناداه، مؤشراً إليه بيده: «هيا تقدم». أطاع المدرب، وهو يرتجف من الرعب، الأمر الصادر إليه فتقدم خطوتين أو ثلاثاً إلى الأمام، فصفعه المتصرف مرة أخرى، مما جعل المدرب يتراجع إلى الوراء، فلحق به المتصرف وأراد أن يركله في قفاه إلاّ أن رجله غطست في إحدى سواقي الحديقة فانزلق وسقط على ظهره في الطين. وعند ذاك أمر المتصرف حراسه الذين هبوا لمساعدته على النهوض بتأديب هؤلاء الذين ثلموا شرف مدينته. كان الشرطيون الذين شاهدوا هم أيضاً هذه المباراة ينتظرون بفارغ الصبر مثل هذا الطلب، إذ هجموا على

اللاعبين بالعصي التي كانوا يحملونها في أيديهم حتى أدموهم، مطاردينهم داخل الحديقة التي سحقت ورودها تحت الأقدام. وانبجس الدم من رأس المدرب الذي تولى ضربه عريف كردي كان يتدرب على الملاكمة. ثم وضعوا الأغلال في أيديهم واقتادوهم إلى شاحنة نقلتهم إلى أربيل، حيث اودعوا السجن، بتهمة الإساءة إلى سمعة المدينة. هذه الحادثة التي كانت الأولى من نوعها حينذاك تكررت كثيراً في الأعوام التالية، وبخاصة في ظل الجمهورية التي أعقبت الحكم الملكي والتي كان غالباً ما يقودها رؤساء يتفجرون وطنية ويعتبرون خسارة فريقهم لكرة القدم مساً متعمداً وتشكيكاً بنجاح سياساتهم القومية. فإذا ما عاد فريقهم بالكأس فإن سيارة جديدة كانت تنتظر كل لاعب أمام باب المطار، هدية من الحكومة التي ما كانت لتبخل في تكريم أبطالها. وعندما جمع اللاعبون ما يكفي من السيارات، حتى أن بعضهم افتتح مكاتب للنقل وسيارات الأجرة، قررت الحكومة إهداءهم قصراً عن كل مباراة يفوزون بها، وبالذات إذا ما فازوا على فريق إحدى الدول العربية المنافسة أو المعادية. ولكن كان للخسارة ثمنها أيضاً. فقد كان رجال الشرطة السرية، ومعظمهم من الملاكمين والمصارعين والمجرمين التائبين يصعدون إلى الطائرة حال هبوطها في مطار بغداد الدولي ويلقون باللاعبين من باب الطوارىء فوق الرصيف ويشبعونهم ضرباً وركلاً، وسط صرخات هواة كرة القدم المطالبين بكسر عظامهم. وكان الكثيرون منهم لا يدخلون المعتقل إلا وقد غطت الدماء وجوههم، حيث كانوا يضربون مرة أخرى من قبل المحجوزين الذين ما كانوا أقل وطنية من سجانيهم. كانوا يبقون في المعتقل أسبوعاً أو أسبوعين أو حتى شهراً، حيث لا يطلق سراحهم إلا إذا أمر بذلك الرئيس نفسه والذي كان غالباً ما ينشغل بأمور أكثر أهمية، ناسياً إياهم، بدون أن يجرؤ أحد

على تذكيره بالعفو عن هؤلاء الذين طالتهم اليد القوية للعدالة. وفي آخر الأمر كان وزير الشباب ومسؤول اللجنة الأولمبية يلجآن إلى الخياطة التي تصنع الثياب لزوجة الرئيس وبناته، أو الطباخة الخاصة التي كانت تجيد طهي المحشي والملفوف أو حتى إلى المرافق الأقرب إلى قلب الرئيس والذي كان يحمل لقب رئيس الذواقة، وهو رجل ما كان الرئيس يأكل من صحن لم يتذوقه هو قبله. كان أحد هؤلاء يتدخل في الوقت المناسب فيذكر السيدة الأولى التي كانت تعاني من السمنة عادة أو حتى الرئيس نفسه من خلال كلمة عابرة أو جملة تبدو غير مقصودة بلاعبي الفريق الوطني للعراق. هذه الإشارة وحدها كانت كافية ليأمر الرئيس بإطلاق سراحم ودعوتهم إلى تناول الغداء أو العشاء معه في بيته بحضور زوجته وبناته، فقد كان حريصاً على أن يظهر حبه لهم مثلما كان حريصاً على إظهار الشدة في تأديبهم بين الحين والآخر، تماما مثلما كان يفعل مع أولاده ومع الشعب كله. وكان ينسى أحياناً أنه قد أطلق سراحهم فيأمر بإطلاق سراحهم ثانية، مسبباً الحرج لمدير الشرطة الذي كان يضطر إلى اعتقالهم لمدة ساعة أو ساعتين قبل إطلاق سراحهم وأخذهم إلى القصر لتناول العشاء مع الرئيس.

هذه اللعبة الجميلة التي خاضها فريق كركوك لكرة القدم سحرت الصبي برهان عبد الله كثيراً، حتى أنها ظلت عالقة بذهنه فترة طويلة من الزمن. ولكن ما كان يشغله أكثر من أي شيء آخر هو سلطة المعرفة عند الملائكة الصغيرة التي تملكها عائلة الشيخ يزيد. هذه الملائكة كانت مؤدبة، وأكثر يقيناً من ملائكته الثلاثة التي كان يراها بين الحين والآخر، أولئك الشيوخ المتعبين الذين يحملون على أكتافهم أكياساً يقولون إنها ممتلئة بالربيع. وقد لعبت هذه المخلوقات الصغيرة، ربما حتى بدون أن تدري، دوراً حاسماً في

صنع التاريخ المقبل ليس لمحلة جقور ومدينة كركوك وحدهما وإنما للعراق كله.

فبعد دفن الملّا زين العابدين القادري شكلت الحكومة لجنة للبحث عن ثروة ضريح قره قول، ولكنها لم تعثر على شيء، رغم أنها لم تترك مكاناً لم تبحث فيه عن الكنز الذي كان الملّا زين العابدين القادري قد أخفاه عن عيون وأيدي اللصوص. وقد أصبح هاجس الجميع العثور على هذا الكنز الذي لم يكشف الملّا مكانه حتى لزونجته وأولاده. فإذا كانت الحكومة قد أرادت استرداد ما اعتبرته من حقها، فإن أرملة قره قول التي لجأت إلى السحر الأسود رأت أن عثورها هي على الكنز سوف يعفيها من مهمة الوقوف أمام المحاكم للمطالبة بما كانت تعتبره حقاً خاصاً بها هي وحدها. وبالتأكيد فإن زوجة الملّا التي نفت معرفتها بمخبأ الكنز، واجهت الكثير من التأنيب من أولادها الذين ظلوا يبحثون عن الأموال المخفية عبثاً، وقد اشغلت القصة محلة جقور كلها، حتى أن الكثيرين راحوا يغرون المجنون دلي إحسان على البحث عن الكنز معهم، معتمدين على صلاته المعروفة بالجن، وهو أمر ما استجاب له أبداً.

هذه الحمى التي أصابت سكان محلة جقور، فترت بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من البحث، عندما اتضح لهم أن الملا زين العابدين القادري حمل سر الكنز معه إلى القبر مع السر الآخر الذي كلفه حياته. وهكذا كفوا عن متابعة هذا الأمر بعد أن داخل اليأس قلوبهم. واكتفى موظفو الحكومة بوضع أيديهم على ما كان بادياً للعيان من ثروة الضريح. أما أرملة قره قول فراحت تؤمل في أن تمنحها المحكمة الحق في الحصول على الهدايا الجديدة التي تقدم إلى ضريح بعلها.

ما كادت هذه الحمى التي انتابت محلة جقور تهدأ حتى ظهر حميد نايلون ثانية، كما لو أنه خرج من العدم، إذ راح يؤكد للذين استغربوا

غيابه أنه كان في الكويت، حيث عمل سائقاً عند أميرها الذي قال عنه إنه يملك مرحاضاً من الذهب. وكالعادة لم يصدقه أحد، إذ لم يكن بادياً عليه أي أثر من أثار نعمة النفط التي كانت قد هبطت على الكويت. في الواقع إن قليلين فقط عرفوا أن حميد نايلون عائد من الثورة التي كان قد أشعل فتيلها في أرياف كركوك، حيث منح نفسه رتبة عسكرية واتخذ اسماً مستعاراً هو العقيد أنور مصطفى، على عادة قادة الثورات في العالم، مما منحه المزيد من الثقة بنفسه، بل انه فكر حتى في إطالة لحيته ولكنه أجل ذلك إلى فترة لاحقة عندما تكون الثورة قد امتدت إلى بعض القرى على الأقل، وهو أمر كان قد خطط له بعناية منذ أن اختاره القرويون الذين كانوا قد اختطفوا جثمان قره قول وهربوا إلى الغابات والتلال القريبة من قرية طاووق ليكون قائدا لهم.

في واقع الأمر أن قرويي طاووق ما كانوا قد فكروا في يوم ما في معاداة الحكومة التي كانوا يجهلون كل شيء عنها. كل ما كانوا يريدونه هو دفن قره قول في قريتهم لتحل البركة على حقولهم والخصب على أغنامهم. ولكن الهجوم الذي شنته الشرطة عليهم، قاتلة اثنين منهم، أرغمهم على العصيان للنجاة بجلدهم. كان هؤلاء الرجال المسلحون بالبنادق في حيرة من أمرهم، لا يعرفون ما ينبغي عليهم عمله سوى الانتظار، بعد أن رفض الآغا مامند الذي كان نفوذه يشمل عشرات القرى الواقعة بين كركوك وأربيل، ومن ضمنها طاووق، التدخل لإيجاد تسوية مع الحكومة، باعتبار أن طاووق تابعة لكركوك وتقع ضمن منطقة السيادة الخاصة بالحكومة العراقية التي قال إنه لا يحق له التدخل في شؤونها، بالرغم من أنه كان نائباً في البرلمان في بغداد عن المنطقة كلها، ومن ضمنها قرية طاووق. ولذلك فإن وصول حميد نايلون إلى قرية طاووق بسيارته جعل الأطفال

يركضون وراءها مهللين وصارخين وسط الغبرة التي أثارتها، والنساء يخرجن من بيوتهن المبنية بالطين والحجارة والمسورة بجدران غرست في أعلاها قطع من زجاج القناني الملونة المكسورة لتمنع اللصوص الذين كانوا يأتون من القرى البعيدة الأخرى من التسلق، والرجال يعودون من الحقول على أصوات الكلاب التي ظلت تنبح، وهي تعدو على جانبي السيارة منذ لحظة دخولها القرية. أوقف حميد نايلون سيارته أمام كوخ مفتوح، بنيت على أطرافه من الداخل دكة من الطين على شكل حدوة حصان وألقيت فوقه أبسطة ملونة متسخة، من النوع الذي تحوكه القرويات الكرديات. كان من الواضح أن هذا هو مقهى القرية. وخرج الرجل الذي كان يعد الشاي في زاوية من الكوخ ونهر الكلاب التي تراجعت قليلاً إلى الوراء، ولكنها إذ رأت باب السيارة ينفتح ويهبط منها حميد نايلون، داخلاً المقهى أحنت رؤوسها وأقفلت عائدة من حيث جاءت. سلم حميد نايلون على الرجال الثلاثة الذين كانوا يجلسون في المقهى وطلب استكاناً من الشاي. كان يعرف أن الفضول ينهش قلوب هؤلاء القرويين الذين كانوا يريدون معرفة السر الذي جعل هذا الرجل الغريب يصل إلى قريتهم بسيارته، من دون أن يجرأوا على سؤاله. ولكنهم إذ رأوه يتكلم الكردية مثلهم شعروا ببعض الاطمئنان، جارين إياه إلى الحديث عن المكان الذي جاء منه. قال أحد الرجال: «لا بد أنك من كركوك، إذ من يملك سيارة جميلة مثل هذه في غير كركوك». وابتسم حميد نايلون: «آه، انها سيارة مثل جميع السيارات الأخرى»، ثم أضاف: «إنني قادم لمساعدة قرية طاوق. لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك. أرجو أن تثقوا بي». بدت الحيرة على وجوه القرويين الذين يشكون عادة في كل شيء فالتزموا الصمت. ولكن الرجل الذي كان يعد الشاي قال: «حسناً، ما الذي يمكن أن نفعله من أجلك؟». رد حميد نايلون من دون مواربة: «[illegible]

يمكنني الاتصال بالعصاة الذين اختطفوا جثة الولي قره قول؟» سأل أحد الرجال: «هل أنت من الحكومة؟ ما الذي تريده منهم؟». ابتسم حميد نايلون مرة أخرى: «لا أستطيع أن أقول ذلك إلا لهم. أرجو أن تثقوا بي».

اضطر حميد نايلون إلى الانتظار حتى المساء قبل أن يشق طريقه عبر الحقول والغابات والأودية إلى الرجال الذين كانوا قد لجأوا إلى غابة مليئة بأشجار الجوز والتين والرمان والخوخ والعنب، تقع بين واديين، يخترقهما نهر صغير، بعد أن وضع سيارته داخل سقيفة في الطرف الآخر من القرية. سار حميد نايلون مع الشابين المسلحين اللذين قاداه في الظلام عبر ممرات وعرة وغابات كثيفة ومجاري مياه، صامتين، لا تسمع سوى أصوات خطاهم فوق الأعشاب والأوراق المبللة بالندى. وأخيراً بلغوا المخبأ الذي كان قد لجأ إليه القرويون الهاربون من الشرطة، حيث رأوا عبر الأشجار فانوسين مضيئين أمام صخرة كبيرة تقع أمام ما بدا شبيهاً بمدخل كهف وأشباحاً متكومة فوق الأرض. ونادى أحد بصوت عال: «السلام عليكم»، فانتفضت الأشباح التي بدت كما لو أنها بوغتت بالصوت ونهضت محدقة. وجاء الرد: «من هذا؟». قال الشاب: «إنني محمود، كل شيء على ما يرام». واقترب أربعة أو خمسة من العصاة وسلموا عليهم، مقبلين أكتاف بعضهم وأخذوا الكيسين اللذين كان الشابان اللذان رافقا حميد نايلون يحملانهما». لقد جلبنا لكم بعض الخبز والسكر والشاي»، قال أحد الشابين. وصافح حميد نايلون الرجال الذين منعهم أدبهم حتى من السؤال عن اسمه. ولكن الشاب الآخر قال: «الأستاذ جاء من كركوك وهو يريد التحدث إليكم». وانتظر الرجال أن يقول حميد نايلون أي شيء، مؤملين أن يكون مبعوثاً من الحكومة، جاء يبلغهم بالعفو عنهم للعودة مرة أخرى إلى حقولهم وبساتينهم، فقد تركت

كلمة «الأستاذ» التي استخدمها الشاب جلال عند تقديم حميد نايلون أثراً طيباً في هؤلاء القرويين الذين كانوا يعتقدون أن كل من يرتدي البنطلون هو من الحكومة. كانت تلك أصعب لحظات حميد نايلون، بل أصعب لحظة في تاريخ تلك الثورة المسلحة التي انطلقت من ريف طاووق. فقد كان حميد نايلون يعرف بخبرته التي قلما خانته أن كل شيء يعتمد على هذه اللحظة. فما لم يقتنع هؤلاء القرويون الآن بما سيقوله لهم فإنهم لن يقتنعوا أبداً. أخرج حميد نايلون علبة سجائر من جيبه ورماها أمام الرجال بعد أن أخذ منها سيجارة لنفسه، قائلاً كما لو أنه يقرر حقيقة ثابتة: «حسناً، لقد جئت إليكم لأكون معكم، لا يهم إذا كنت قد حملت أسماء أخرى قبل الآن، إذ أن إسمي الذي سوف يعرفني به العالم والذي منحتني إياه قيادة الثورة هو العقيد أنور مصطفى. من هنا سوف نحرر الوطن قرية بعد أخرى ونلقن الشرطة الذين يتعقبونكم دروساً في الشجاعة والإقدام». كان ذلك آخر ما ينتظره الرجال الذين لجأوا إلى الجبل، هرباً من القوات الحكومية التي ما كان بمقدروهم مواجهتها. وتجرأ أحد الرجال على القول: «كنا نتوقع صدور عفو عنا فإذا بك تأتي وتدعونا إلى العصيان». قال حميد نايلون: «ليس أسهل من استصدار عفو عنكم. لقد قابلت الملك فيصل الثاني نفسه قبل شهور وأستطيع أن أفعل ذلك الآن أيضاً. ولكن ما الذي فعلتموه حتى يعفى عنكم. حسناً لقد أردتم أن يكون هناك ولي، يدفن في قريتكم. وهذا من حقكم. ولكن قره قول دفن في كركوك التي تمتلىء قبورها بالأئمة، بل إن الشرطة ظلت تطاردكم حتى الآن، من دون أي سبب. لقد جئت إلى هنا لأقول لكم إن قره قول من نصيبكم وسوف تحصل عليه طاووق ذات يوم». كان القرويون العصاة قد واجهوا حميد نايلون في البداية ببعض الريبة حتى إذا لم يظهروا له مشاعرهم، ولكنه عرف كيف يكسب ودهم وثقتهم. فقد

بهرهم قبل كل شيء أن يكون حميد نايلون ضابطاً برتبة عقيد، بل إنه وعدهم بأن يكون لكل منهم راتب شهري، يستلمه من قيادة الثورة التي ما كانوا قد سمعوا بها من قبل، مؤكداً لهم أن الملك فيصل الثاني نفسه يؤيد هذه الحركة الموجهة ضد نوري السعيد وعبد الإله والانكليز، وجميعهم من أعداء الإسلام. وفي اليوم التالي تسلل حميد نايلون إلى القرية وأخرج من صندوق سيارته ثلاث بنادق، وهي البنادق التي كانت محلة جقور قد استولت عليها أثناء معركة المقبرة، عاد بها إلى القاعدة ووزعها على من لم يكن يملك بندقية خاصة به، بينما دس هو تحت حزامه مسدساً كان قد اشتراه من اللص محمود العربي.

في الليلة الأولى وفي الليالي التالية التي أمضاها حميد نايلون في هذا المخبأ الواقع في الوادي ما استطاع النوم إلا لماماً. كان ثمة شيء في داخله هو بين الفرح والقلق. فها هو لأول مرة في حياته يفلح في بدء الخطوة الأولى في الطريق الطويلة للثورة، إلا أنه لم يكن متأكداً تماماً من صلابة هؤلاء القرويين الذين ما كانوا يفكرون إلا في نسائهم وأغنامهم وحقولهم التي تركوها وراءهم. ولأنه أمضى حياته كلها بين أناس يشبهون هؤلاء في كل شيء، كان يعرف أنه ما من شيء يمكن أن يفجر الإيمان في قلوبهم الجافة أكثر من المال والقوة. فإذا ما شعروا أن الثورة تمتلك ذلك فإنهم لن يترددوا في الموت من أجلها.

في اليوم السابع من وصوله وقف حميد نايلون على صخرة ناتئة في مواجهة رجاله وألقى كلمة قصيرة أعلن فيها البداية الفعلية للثورة، ثم سحب مسدسه وأطلق رصاصة واحدة في الهواء. كانت تلك هي الرصاصة الأولى للثورة. وقد حزن بعض الشيء لأنه لم يحصل على قماشة حمراء ليصنع منها العلم الذي سوف يرفرف فوق العراق. وهلل

القرويون الذين أعجبهم هذا المشهد فرفعوا هم أيضاً بنادقهم وأطلقوا الرصاص في الهواء، معلنين انتماءهم إلى الثورة التي قال حميد نايلون عنها إنها ستكون ثورة فلاحين.

ومنذ ذلك اليوم انتقلت كتائب الثورة، وهذا هو الاسم الذي أطلقه حميد نايلون عليها إلى الهجوم، حيث بدأ رجاله يزورون قرية طاووق والقرى المجاورة حتى في النهار، مقررين دحر أي هجوم قد تشنه الشرطة ضدهم. بل إنهم راحوا يدعون الناس صراحة للانضمام إلى الثورة. وقد نجح حميد نايلون في اجتذاب عدد آخر من الفلاحين وطلبة المدارس الذين أسند اليهم مراقبة العدو.

حين عاد حميد نايلون إلى كركوك كان متأكداً من أن الثورة قد بدأت بالفعل، إلا أنه كان يعرف أن ثمة الكثير الذي ينبغي فعله قبل أن تتحول الثورة إلى قوة لا تقهر. وغمرت قلبه أمواج من مشاعر متناقضة، الحزن والفرح في آن. يا لهذه الحياة الغريبة التي كتب على المرء أن يعيشها. الثورة، هذا الفعل الذي لا حدود له، هذا الذي يمتد إلى المستقبل فيجعله حاضراً. ورأى يده تمتد إلى المسدس فتشهره، وقد اختنق بسعاله. إنه الربيع. يا لحبوب الطلع اللعينة التي تجعل أنفه ينغلق حتى لا يعود قادراً على التنفس. «لماذا كان عليّ أن أحمل في جسدي هذا المرض؟» لم يكن قد قتل أحداً حتى الآن». ولكنني سوف أقتل بالتأكيد. لا يمكن للثورة أن تكون ثورة من دون دم». وفكر أن ثمة ثمناً، ينبغي أن يدفع دائماً. وفي الطريق رأى أرض العراق تمتد أمام عينيه، فأوقف سيارته وحمل حفنة من تراب في كفه، تراب ندي «هذا التراب المقدس». ثم نثر الكومة في الهواء. دم فوق التراب. سيكون هناك دم دائماً فوق هذه السجادة الأرجوانية، هذا التابوت الكبير الذي يسمى الوطن.

كانت ثمة أمور كثيرة تشغل بال حميد نايلون المهلوس بالثورة. كان

يعرف القليل عن تعاليم الثورة. اتصل بفاروق شامل ونجاة سليم وطلب منهما كتباً، تتضمن تعاليم حول الثورة الفلاحية، وهي كتب لم تكن موجودة لأنها كانت قد رميت في التنانير وأحرقت، خوفاً من أن يعثر عليها رجال الأمن الذين كانوا يداهمون البيوت بين الحين والآخر. ولكن فاروق شامل الذي كان يملك ذاكرة قوية سجل هذه التعاليم التي كان يحفظها عن ظهر قلب على ورقة، قدمها لحميد نايلون الذي دسها في جيبه، مفكراً في دراستها عندما يعود إلى القاعدة.

كانت أخبار الثورة قد بلغت الكثيرين في المدينة، ولكنهم راحوا يسخرون من الإشاعات التي راجت حولها، قائلين: «لم يبق سوى أن يحررنا هؤلاء القرويون السذج الذين اختطفوا قره قول»، بل ان الشيوعيين الذين أخذ الحسد ينهش قلوبهم ادعوا أن قره قول نفسه يتولى قيادة التمرد، هازئين كعادتهم من كل من لا يتفقون معه. ثم ندموا عندما أدركوا بعد فوات الأوان أن الكثيرين صدقوا ذلك، حتى راحت كركوك كلها تتحدث عن عودة قره قول للقتال من أجل الفقراء. وانتهز حميد نايلون الفرصة فاتصل بقريبه الصبي برهان عبد الله الذي كان يجيد كتابة الإنشاء وقال له: «حسناً يا برهان، أعتتقد أن الوقت قد حان لتكون واحداً من أبطال الثورة». وهكذا كتب برهان عبد الله البيان الأول الذي أصدره حميد نايلون والذي أثار استغراب الأحزاب السياسية بلغته الأدبية العالية وقوة منطقه، والذي تولى كتابته على الآلة الطابعة واستنساخه على الرونيو أحد العاملين في القنصلية التركية في كركوك، مما صعب مهمة الشرطة في معرفة المصدر، نظراً لأن أجهزة الطبع الخاصة بالهيئات الخارجية لم تكن مسجلة عند الحكومة. وقام حميد نايلون بنفسه ذات ليلة بتوزيع هذا المنشور في كل مكان من المدينة. ألصقه على الجدران أمام المساجد والسينمات

والمقاهي والدوائر الحكومية ورماه من فجوات الأبواب داخل البيوت وفي الأسواق. ورغم أن الشرطة اعتقلت في اليوم التالي عدداً من المشبوهين الذين كانوا يجلسون في المقاهي ويثرثرون ضد الحكومة، فإنها عجزت عن معرفة مصدر هذه المنشورات التي كانت تدعو الشعب للانضمام إلى الثورة. وهكذا حقق حميد نايلون بضربة واحدة وفي غضون أيام قليلة ما عجز الكثيرون عن تحقيقه خلال عشرين عاماً. واتصل الشيوعيون بحميد نايلون يطلبون إليه التفاوض بعد أن تناهى إلى أسماعهم أنه جند الكثير من الشبان العاطلين عن العمل في محلة إمام قاسم والذين كانوا يقضون أيامهم متكئين على الجدران. بيد أنه أبلغهم أنه لا يملك ما يكفي من الوقت للدخول في مفاوضات غير مجدية، عارضاً عليهم الانتماء إلى حركته بدون قيد أو شرط، إذا كانوا جادين في دعواهم الثورية.

في الواقع إن ما كان يشغل بال حميد نايلون لم يكن مرتبطاً بالشيوعيين أو بالأنصار الجدد الكثيرين الذين انضموا إلى حركته والذين بعث بهم إلى الجبل، مشياً على الأقدام ولا حتى بالأسلحة التي كانت تعوزه، وإنما بالكنز الذي خلفه الملّا زين العابدين القادري وراءه والذي لم يعثر عليه أحد. كان كل شيء يعتمد في الحقيقة على العثور على هذا الكنز، فبدون الحصول على أموال كافية سوف يتركه الجميع. كان متأكداً من ذلك. فالعواطف وحدها لا تكفي مهما كانت جياشة، إذ ان عليه أن يطعم رجاله ويسلحهم ويوفر القوت لعوائلهم التي تركوها وراءهم.

كان الجميع قد يئسوا تماماً من البحث عن الكنز عندما بدأ حميد نايلون بحثه المضني عنه والذي لم يفض إلى أي نتيجة حتى أنه كاد يستسلم لليأس هو الآخر. بحث في جميع الأماكن المحتملة وغير المحتملة، وحاول أن يتقمص شخصية الملّا ويفكر مثله حتى يهتدي

إلى المخبأ الذي اختاره للكنز، إلا أنه أخفق في الوصول إلى السر، وهو أمر جعله يفرط مرة أخرى في تناول الكحول بعد انقطاع طويل. ولم يستعد قوته إلا بعد أن قال له برهان عبد الله ذات يوم وقد أفزعه المآل الذي انتهى إليه حميد نايلون: «أهكذا تريد أن تقود الثورة يا حميد؟ إنك لم تعد تفرق بين رأسك ورجليك، لماذا تفعل ذلك؟». إحمر وجه حميد نايلون الذي شعر بالخجل من الصبي، ينتقده عن حق فقال بلطف: «لن تكون هناك ثورة يا برهان ما لم أعثر على الأموال التي أخفاها الملّا اللعين. الثورة بدون أموال لا تعدل قلامة أظفر. سوف ينهار كل شيء بعد شهر أو شهرين ما لم نحصل على ما يكفي من البنادق وندفع رواتب للمقاتلين». إقترب حميد نايلون من البكاء، وهو ينعي ثورته التي سوف تنتهي وهي في بدايتها. لقد وعد رجاله برواتب لم يستلموها حتى الآن. وكان يعرف أنه لن يجرؤ على العودة إليهم ما لم يعثر على الكنز الذي كان قد وضع كل أمله فيه. ولسوف يسخر منه الجميع: «هذا الدعي الذي أطلق على نفسه إسم العقيد أنور مصطفى». وكان يفكر مع نفسه: «حسناً أيها العقيد، لقد انتهت أيامك». فوجىء حميد نايلون بالابتسامة تملأ وجه الصبي: «لماذا لم تقل لي ذلك منذ البداية؟ قد لا يكون الأمر بالصعوبة التي تعتقدها».

ـ «ليس صعباً؟ ما هذا الذي تقوله؟»

إبتسم برهان مرة أخرى: «سوف أساعدك في العثور على الكنز. هذا ما أقوله».

واستيقظ حميد نايلون تماماً، فسأل متردداً: «هل تعرف أين يوجد الكنز؟»

هز برهان عبد الله رأسه: «كلا، لكنني سوف أعرفه هذا المساء».

إنطفأ حميد نايلون مرة أخرى. لم يشأ حتى أن يسأله عما يجعله

متأكداً من كشف هذا السر الذي ظل لغزاً على الجميع حتى المساء. وأدرك برهان عبد الله أنه لا يصدقه فتركه، متجنباً المزيد من الأسئلة التي ما كان يعرف إن كان ينبغي عليه أن يجيب عنها أم لا. وانتظر حتى المساء حيث قصد البيت الذي تقيم فيه الملائكة الصغيرة وقرع الباب. كان ثمة صمت يلف البيت في ظلام الزقاق الذي ينيره مصباح معلق بعيد. مرت لحظات طويلة حتى اعتقد أن لا أحد في البيت. ولكنه قرع الباب ثانية، بدون أمل كبير في أن يرد عليه أحد. انتظر قليلاً، ثم ابتعد، مفكراً في العودة مرة أخرى. ولكنه انتبه إلى الباب ينفتح وصوت ممتلىء بالحنان ينادي عليه: «هذا أنت يا برهان. هيا ادخل، لقد كنا في انتظارك».

وتناهت إلى سمعه موسيقى آتية من مكان ما في الظلمة، موسيقى تشبه خطوات رجال ينحدرون من جبل، فانتابه قلق مفاجىء ما كان يعرف مصدره حتى أنه فكر في الهرب، ناسياً كل شيء، إلاّ أن العجوز الذي كان يقف أمام الباب، نصف الموارب، بوجهه الذي تشطره الظلمة والضوء، شعر بتردد الصبي الذي كان يقف هناك محدقاً فيه فمد إليه يده المعروقة النحيلة وأمسك برسغه برفق وجره إلى داخل البيت الذي كانت تضيئه ألسنة النار المتقدة في حفرة وسط الفناء، مغلقاً الباب وراءه بهدوء وصمت.

الفصل العاشر

بلغ حميد نايلون الجبل على بغل كان قد ألقى فوق ظهره خرجا مزركشاً، ملأه بأكداس من الدنانير التي حملها معه، وقد ارتدى بدلة عسكرية، زينها بشارتين حمراوين شدهما على كتفيه، ممتلئاً بالحياة التي كانت تمتد أمامه. هذا الوصول الجديد لحميد نايلون، مثل ملك يعود إلى رعيته بعد غياب، جعل الثورة تنتشر في القرى المجاورة، حتى بأسرع مما كان يتصوره حميد نايلون الذي كان يعرف أنه ما من شيء أكثر إقناعاً من النقود. فقد دفع منذ اللحظة التي عاد فيها إلى قاعدته الرواتب المتأخرة لمقاتليه الذين ما صدقوا أن تمتلىء جيوبهم بكل تلك الدنانير التي ما رأوا مثلها في حياتهم، قائلاً: «الثورة التي تعجز عن إطعام أبنائها لا تستحق الحياة». وانبعثت الحياة فجأة في قرية طاووق والقرى المجاورة التي سمعت أن الثورة تدفع رواتب للمقاتلين، فانعقدت مجالس قادها الشيوخ الطاعنون في السن والذين كان قد بلغهم نبأ الثورة التي ظهرت من العدم، حيث اقترح بعضهم أن يسألوا اغواتهم ويطلبوا منهم الموافقة على تعيينهم في الثورة، إلاّ أن القرويين رفضوا ذلك بحزم: «ما علاقة أغواتنا بهذا الأمر الذي يتعلق بأرزاقنا؟» وانفضت الاجتماعات، تاركة الأمر للناس أنفسهم ليقرروا ما يرونه مناسبا. كان ذلك هو بالذات ما ينتظره الكثيرون. فقد جاء المقاتلون في البداية فرادى، متسللين إلى القاعدة في جنح الظلام، ثم جماعات بعد أن اقتنعوا أن الرواتب التي تدفعها الثورة أفضل من زراعة البصل والطماطم وحتى من العمل عند الحكومة.

هذه الحقيقة أغرت الكثيرين من رجال الشرطة وعمال البلدية والجنود وتلاميذ المدارس وجعلتهم يأتون طالبين تعيينهم، بل إن مدراء نواح وقائممقامين هربوا من الخدمة والتحقوا بحميد نايلون الذي استقبلهم بلطف ثم أعادهم من حيث جاؤوا، معتبراً إياهم من ضمن جيش الداخل، وواعداً بأنهم سوف يستلمون رواتب إضافية من الثورة، وهم جالسون في دوائرهم. وفي النهاية اضطر حميد نايلون في مواجهة هذا الزخم البشري إلى عدم قبول المتطوعين الجدد لفترة من الزمن، رافضاً حتى وساطات مقاتليه أو التوصيات التي كان هؤلاء يجيئون بها من مختاري القرى الذين كان حميد نايلون قد أضاف أسماءهم إلى قائمة الرواتب التي يدفعها في آخر كل شهر. كان ذلك في الحقيقة إجراء لا بد منه قبل أن تفلت الأمور من اليد. فقد كثر عدد المقاتلين حتى أنهم راحوا يقصدون نساءهم ليلاً أو يغيبون أياماً بدون أن يفطن أحد إليهم. وواصل القرويون عاداتهم القديمة في سرقة القرى المجاورة التي كانوا يسطون عليها في الليالي، مما جعل حميد نايلون يسجنهم في كوخ طيني شيده على طرف الوادي، بل إنه اضطر إلى جلد الذين عادوا إلى السرقة بعد إطلاق سراحهم، رغم معرفته أن ذلك قد يخيفهم ولكنه لن يغير كثيراً من قيمهم التي توارثوها جيلاً بعد جيل.

ثم انسحب حميد نايلون ليدرس تعاليم الثورة المدونة التي ما كان يعرف كيف يطبقها في الواقع، إذ كانت تتضمن أفكارا مجردة، لا علاقة لها كثيراً بما كان يحتاجه هو قبل أي شيء آخر وهو تنظيم الثورة والانتقال إلى الهجوم. كانت ثمة تعاليم مفيدة من نمط «اعتمد على الشعب ووثق علاقاتك بالفلاحين» و«احترم من هو أكبر منك سناً» و«اضرب العدو ثم اهرب». ولكنها كانت أموراً، يعرفها الجميع. فقد وثق حميد نايلون علاقاته بالفلاحين حتى أكثر من ماوتسي تونغ

نفسه «إنني أدفع لهم رواتب لم يحلموا بها في حياتهم كلها». وغرق حميد نايلون في تأمل عميق وهو يفكر في معنى «اضرب العدو ثم اهرب». ثم قال مع نفسه «ربما كان من الضروري أن نفعل ذلك الآن، ولكننا لن نفعله إلى الأبد، إذ سوف يأتي اليوم الذي نزحف فيه إلى الأمام ونحرر العراق قرية بعد قرية ومدينة بعد مدينة». وهكذا قرر حميد نايلون أن يضع بنفسه تعاليم ثورته، مثل جميع القادة الآخرين الذين يردد الناس أسماءهم، فحبس نفسه داخل غرفته التي كان القرويون قد بنوها له من الحجارة والجص، حيث يرفرف العلم الأحمر فوقها، فملأ بضعة دفاتر بأفكاره حول الثورة خلال أيام قلائل فقط ثم بعث بها مع أحد مراسليه السريين إلى برهان عبد الله في كركوك، ليصوغها له بأسلوب أدبي رفيع. كان ذلك أمراً جديداً على برهان عبد الله الذي أشغل نفسه دائماً بمعرفة سر الحياة والتأمل في قصص الأنبياء والقادة، بدون أن يتوصل إلى ما كان يعتبره الجوهر الذي ينبغي أن يكون خزانة الأجوبة كلها، مردداً مع نفسه «الأجوبة تزوغ دائماً، تفسد دائماً، تتداخل حتى يصبح من الصعب على المرء أن يعثر على جواب أبعد من اللحظة نفسها». وكان يفكر «ما من جوهر يتضمن أجوبة وإنما أبدية تقدم أسئلة. السؤال هو سؤال عن نفسه. السؤال هو حظ البشر في العالم».

انتحى برهان عبد الله ركناً في حديقة أم الربيعين، متمدداً على العشب الندي وراح يتأمل تعاليم حميد نايلون عن الثورة. كانت تتضمن أفكاراً جديدة، ما عرفتها الكتب القديمة. فقد كانت تحاول الوصول إلى الحقيقة في قلوب الناس، لا خارجهم وتدعوهم إلى أن يكونوا هم سادة العالم. وفكر «حسناً لقد أردت دائماً أن أضع كتاباً عن الحياة ولذلك سيكون هذا محاولة أولى في صياغة الكتاب الذي أريده. كتاب ليس لي ولكنه سيكون جزءاً مني».

كان برهان محكوماً بالأفكار الصارخة التي دونها حميد نايلون والأمثلة التي كان قد استقاها من عمال النفط في بابا كركر، والخبازين في محلة جقور، وصاغة الذهب في السوق الجديد، والجنود في الثكنات ومؤجري الدراجات الهوائية في الشارع المحاذي للقلعة. ظل برهان عبد الله يفكر أياماً في صياغة هذا الكتاب الذي أراده أن يكون دليلاً إلى الثورة التي ما كان يعرف في الحقيقة أي شيء عنها، إلا أنه كان في إمكانه تخيلها، معتمداً في ذلك على لغة الأناجيل التي كانت تتضمن وصايا أبدية إلى البشر. وهكذا صعد إلى علية البيت وحبس نفسه أسبوعاً هناك ثم هبط وقد انتهى من صياغة الكتاب الذي عنونه بـ«الدليل»، وهو عنوان وجده حميد نايلون لا يفي بالمرام فغيره إلى «دليل الجيب إلى الثورة» ثم بعث به إلى تركيا مع طالب تركماني من صارى كهيه كان يدرس الطب البيطري في استانبول فطبع عشرة آلاف نسخة منه في مطبعة يلدزلر التي كانت تمتلك حروفاً صغيرة جداً، تستحيل قراءتها بالعين المجردة. وصل الكتاب الصغير الذي لم يكن حجمه ليزيد كثيراً عن حجم علبة الثقاب إلى حميد نايلون بعد أقل من شهرين مع عشرة آلاف مكبر من ماركة كارل سايز الألمانية، أرسلت في شحنة منفصلة خشية أن تفطن الرقابة إلى العلاقة بين الكتاب والمكبر. وقد أظهر حميد نايلون بالفعل حصافة في تضليل رجال الأمن، حيث اعتقد موظفو الرقابة الذين رأوا الكتاب الذي زين غلافه بالنقوش الإسلامية أنه واحد من كتب الأدعية التي كانت توضع عادة داخل خرقة من القماش وتشد على أعلى الذراع لتقي حاملها من الشر الذي كان منتشراً في العراق. وهكذا أفلت هذا الكتاب الذي أحدث ضجة كبيرة بين محترفي السياسة اليساريين الذين كادوا يطقون حسداً وغيرة، ليس لأن حميد نايلون ابتكر طريقة لم يفطنوا إليها في تضليل رجال الأمن، وإنما لأنه وضع

كتاباً ذا لغة أدبية عالية، بعكس الأسلوب الركيك للبيانات التي كانت الأحزاب السياسية تصدرها بين الحين والآخر. فعلى الرغم من تظاهرهم بالسخرية والهزء أمضوا لياليهم، عاكفين على قراءة الكتاب الذي كان أنصار حميد نايلون يبيعونه مع المكبر الألماني بمئة فلس. وقام آخرون من الذين سحرهم بيان الكتاب بترجمته إلى اللغتين الكردية والتركية، مما جعل أئمة المساجد يقتطفون مقتبسات منه ويضمنونها خطبهم التي كانوا يختتمون بها صلاة الجمعة، من دون الإشارة إلى المصدر بالطبع.

هذا الكتاب الذي حمل إسم العقيد أنور مصطفى جعل حميد نايلون يتيه زهواً وخيلاء، فقد حقق خلال شهور قلائل فقط ما عجزت عن تحقيقه أحزاب العراق مجتمعة منذ اندحار العثمانيين في الحرب العالمية الأولى ودخول الجيش الانكليزي إلى العراق، بقيادة السير مود الذي قال انه جاء محرراً، لا فاتحاً. فقد نجح في كسب العشائر الكردية أولاً ثم استغل نفوذه بين عرب الحويجة فكسب عشائر العبيد والجبور التي أوقفت حروبها الداخلية، معلنة ولاءها للثورة التي اعتقدت أن الملك فيصل الثاني نفسه يقف وراءها.

لم تكن كتائب الثورة قد خاضت حتى بعد شهور من إطلاق رصاصة الثورة الأولى أية معركة فعلية مع القوات الحكومية التي ظلت غير آبهة بهذه الثورة، ما عدا بعض المناوشات الصغيرة التي كانت تقع بين الحين والآخر مع الحراس الليليين أو مخافر الشرطة التي كان أفرادها يرفضون تسليم أسلحتهم إلى المتمردين. وقد أغاظ الأمر بعض الشيء حميد نايلون الذي كان يتوقع من الحكومة أن ترد عليه بطريقة تليق بقدر الثورة التي أعلنها. فقد ظلت الحكومة صامتة حتى عندما أرسل مجموعة من رجاله، أطلقت النار من بعيد على مدرسة الشرطة الخيالة التي كانت تقع عند طرف المدينة، فقتلت بغلاً

وجرحت شرطياً في فخذه. ولما رأى حميد نايلون إصرار الحكومة على إهماله أو حتى إصدار بلاغ، تهاجم فيه التمرد، قرر الإنتقال إلى المواجهة، حيث أخذ رجاله يقيمون كمائن متنقلة لسيارات الأجرة العاملة بين المدن. كانت الفكرة التي لجأ إليها رجاله مقتبسة في الحقيقة من مشهد، كان حميد نايلون قد شاهده في فيلم أميركي فظل عالقاً بذهنه، وهي فكرة أثبتت نجاحها دائماً. كان أحد رجاله يتمدد على جانب الطريق وقد حبس أنفاسه، متظاهراً بالموت، فكانت السيارات المارة تقف ويهبط سائقوها وركابها مسرعين لمد يد المساعدة إليه. عند ذاك كان يبزغ خمسة أو ستة رجال يشهرون البنادق من وراء الصخور والأشجار والأكمات ويأسرون الركاب الذين كانوا يجعلونهم يرفعون أيديهم إلى الأعلى ثم يفتشون جيوبهم ويصادرون خمس أي مبلغ يزيد عن خمسة دنانير كزكاة للثورة. أما من كان جيبه خالياً إلا من بضعة دراهم فكانوا يعطونه ديناراً، مساعدة من الثورة للفقراء، بعد أن يكونوا قد قرأوا عليه صفحة أو صفحتين من كتاب «دليل الجيب إلى الثورة» ثم يصافحونهم مودعين ومتمنين لهم السلامة. ولكن حميد نايلون اضطر بعد شهرين أو ثلاثة إلى أيقاف هذه العمليات التي كلفت الثورة ألوف الدنانير. فقد اجتذبت رائحة الدنانير القرويين الذين راحوا يتنقلون كل يوم بين المدن الجبلية في باصات خشبية، ممنين أنفسهم بالوقوع في أسر كمائن الثورة. بل إن بعض أصحاب السيارات اتفق معهم على اصطحابهم مجاناً لقاء الاستحواذ على نصف المبلغ الذي يحصلون عليه في كل كمين ينصبه رجال الثورة لهم.

وإذ وجد حميد نايلون أن الحكومة تتعمد إغفال ثورته، قرر الضرب حيث يكون الألم قاسياً حتى الصراخ. فقاد ذات ليلة بنفسه تسعة من رجاله المسلحين بالبنادق، تسللوا إلى مدينة كركوك التي

كانوا يعرفون كل زقاق فيها، فعبروا نهر خاصة صو الجاف تقريباً والذي كانت حصاه الملونة تتلألأ في ضوء نجوم تملأ السماء إلى الطرف الآخر من المدينة، متجهين إلى منطقة عرفة التي يوجد فيها الحي الانكليزي المحاط بالأسلاك الشائكة. كان حميد نايلون يعرف كل بيت في هذا الحي الذي يقطنه المهندسون والإداريون ورجال المخابرات الانكليز مع عائلاتهم، ولذلك لم يكن صعباً عليه الوصول إلى المنطقة التي كانت مليئة بالأشجار وواحات العشب الخضراء. كان في إمكانه أن يفاجىء الحي حتى بدون أن يفطن أحد إلى ذلك. ولكنه ما كان يريد أن تسفك حتى قطرة دم واحدة. فإذا ما انتبه رجال مخفر الشرطة الذي كان يقع في أول الشارع المؤدي إلى الحي، وراء السكك الحديد التي تمر فوقها عربات القطارات ما بين كركوك وأربيل، وهم في معظمهم أعراب من البادية، كرسوا أنفسهم لخدمة الانكليز الذين ما كانوا يبخلون عليهم بالهدايا، فإنهم قد يلجأون إلى إطلاق النار، مما يمكن أن يؤدي إلى مذبحة لا ضرورة لها. في الحقيقة لم يجد حميد نايلون صعوبة تذكر في احتلال المخفر. فقد كان ثمة ثلاثة شرطيين يغطون في نومهم، بدون أن يتركوا أحداً يحرس باب المخفر، فوضع القيود التي كانت معلقة على جدار في الغرفة في معاصمهم وأرجلهم وشدهم بأسرتهم السفرية حتى قبل أن يستيقظوا من نومهم. ثم ترك ثلاثة من رجاله هناك بينما توجه مع الآخرين، متسللاً بين الأشجار إلى الحي الانكليزي الذي كان يظل مضاء دائماً.

بعد نصف ساعة، عاد حميد نايلون ورجاله وهم يحيطون بأربعة رجال وامرأة، كان من الواضح أنهم من الانكليز، شدوا أيديهم بالحبال وعصبوا أفواههم بخرق من القماش من أجل إخماد أصواتهم. كانوا يسيرون بخطوات مترنحة بدون أي أثر للمقاومة وبدوا غائبين

عما يدور حولهم لكثرة ما احتسوه من الويسكي الذي كانت رائحته تزكم أنوف القرويين الذين ما كانوا قد اعتادوا مثل هذه الرائحة المدوخة. وأصدر حميد نايلون الذي كان يلف رأسه ووجهه مثل رجاله الآخرين بقماشة خضراء، حيث لا تبين منه سوى عينيه الثاقبتين وهو يرتدي الزي العسكري على عكس رجاله الذين كانوا يدفنون أجسادهم داخل شراويل كردية، غامقة اللون، أوامره إلى القرويين الثلاثة الذين كانوا يصوبون فوهات بنادقهم إلى رجال الشرطة المغلولين إلى أسرتهم: «حسناً، ارفعوا علمنا فوق المخفر واجمعوا البنادق والمسدسات فقد حان وقت انسحابنا». كان الشارع خالياً تماماً وثمة هدوء شامل يخيم فوق المدينة، يقطعه بين حين وآخر نباح كلاب بعيدة. ألقى حميد نايلون نظرة متأملة إلى الشارع، ثم تسلل الجميع في موكب واحد، باتجاه نهر خاصه صو، عابرين السدة الترابية التي يمر من فوقها القطار، تاركين داخل المخفر بضع نسخ من كتاب «دليل الجيب إلى الثورة»، ذيلها حميد نايلون بإهداءات رقيقة إلى متصرف كركوك ومدير الشرطة ومدير الأمن ووقعها باسمه العسكري المستعار: العقيد أنور مصطفى.

سار الرجال مع أسراهم الخمسة مخترقين خاصة صو، فوق الحصى الصغيرة المدفونة في الرمل، مخوضين في المياه الضحلة بين الحين والآخر، بدون أن يتبادلوا كلمة واحدة. وتعثرت المرأة الانكليزية أكثر من مرة بسبب حذائها ذي الكعب العالي والذي كان ينزلق فوق الحصى أو يغور في الرمل. فنزعته بحركات عصبية من رجليها، ثم انحنت والتقطت فردتيه. فابتسم حميد نايلون في ضوء النجوم وقال لها بالانكليزية متودداً: «هذا أفضل، تستطيعين الآن أن تستمتعي بهذه النزهة». كانت النسائم الليلية التي تلذع وجوههم، محملة بعبق البراري قد بددت كل أثر للويسكي في رؤوس الأسرى

الذين انتبهوا كما يبدو الآن فقط إلى اختطافهم فتوقفوا عن السير وراحوا يهزون رؤوسهم، مطلقين أصواتاً مكبوتة بسبب خرق القماش المشدودة فوق أفواههم. دفعهم القرويون بأعقاب بنادقهم ولكن حميد نايلون قال لهم مطمئناً: «لا تقلقوا، لن يؤذيكم أحد. سوف نعاملكم كضيوف. وسوف ترون أننا أكثر إنسانية مما تعتقدون».

ثم تقدم وحل عقدة القماشة الموضوعة فوق فم المرأة الانكليزية، قائلًا لها: «كيف أنت يا مسز ماكنلي؟»

هزت المرأة رأسها متأففة، ولكن بغنج: «آه، شكراً يا مستر حميد»، ثم سألته برقة: «ما الذي تريد أن تفعله بنا؟»، فرد حميد مطمئناً بطريقته الخاصة: «آه، لا شيء، لا شيء على الإطلاق». وأضاف بزهو ولكن بشيء من السخرية التي كان الصعب الانتباه إليها: «يشرفني أن أخبركم أنكم الآن ضيوفي، باعتباري قائداً للجيش الثوري».

فقالت هيلين ماكنلي، موجهة الكلام إلى زوجها الذي كان يسير وراءها مكموم الفم بخفة: «جورج، هل سمعت؟ لقد أصبح صديقنا المستر حميد قائداً للثورة».

وساد الصمت مرة أخرى في الظلام الذي كان يشف قليلاً قليلاً عن المدينة الغارقة في لجة الليل، مثل شبح أسطوري، تنقل الريح نبضه المختلط بالطبيعة المفتوحة على الفراغ. واجتازوا خاصه صو من الطرف القصي للمدينة، عابرينه إلى الحقول العابقة برائحة الأعشاب والتراب. هذه العملية الجريئة التي قادها حميد نايلون جعلت مسؤولي المدينة يفقدون أعصابهم ويقسمون على الانتقام، بعد أن اتصل بهم رئيس الوزراء وشتمهم بلغة تخلو من أي أدب، مهدداً إياهم بقطع رؤوسهم، إن لم يعد المخطوفون الانكليز سالمين. عند الظهر خرجت عشر سيارات جيب مسلحة، تكدس داخلها شرطيون، أسندوا بنادقهم

على أكتافهم، متجهين نحو قرية طاووق التي اعتبرتها الحكومة مسؤولة عن هذا الهجوم.

كان مدير الشرطة الذي قاد العملية يعرف أنه لا أمل له في العثور على المخطوفين الانكليز، فهؤلاء القرويون لن يفتحوا أفواههم مهما كلف ذلك من ثمن، ولكنه كان مرغماً على إظهار بطش الحكومة وبأسها أولاً قبل التعامل مع هؤلاء السذج الذين كان متأكداً من أنهم يعرفون كل شيء. أحاطت القوة المسلحة بالقرية ومن ثم دخلتها بدون أية مقاومة، حتى أن الكثيرين ظلوا قابعين داخل بيوتهم وكأن الأمر لا يعنيهم. هذا الإهمال الذي لا تبرير له جعل رجال الشرطة يستشيطون غضباً، فاندفعوا مقتحمين البيوت التي لم تغلق حتى أبوابها، مخرجين جميع الرجال والنساء إلى الطريق الترابي الذي كان يخترق القرية، وسط نباح الكلاب التي تجمعت محيطة بالجمع. كان رجال الشرطة يشهرون بنادقهم في وجوه هؤلاء الناس الذين ظلوا يدخنون هادئين. وعندما تعبوا من الوقوف جلس بعضهم القرفصاء على الأرض. وأخيراً سحب مدير الشرطة مسدسه وأطلق رصاصة في الهواء، جعلت الكلاب تبتعد مجفلة: «لقد جئنا لنبلغكم أن الحكومة قررت قتلكم جميعاً بعد خطفكم الانكليز الخمسة. ولكنني سوف أغض النظر عن كل شيء إذا ما أعدتموهم إلينا. لقد سببتم ما يكفي من المشاكل لنا حتى الآن».

ساد الهدوء فترة من الزمن قبل أن يتقدم رجل عجوز، كان من الواضح أنه مختار القرية: «ليحفظ الله لنا الملك. لا أعتقد أن الملك يمكن أن يأمر بقتلنا. نحن قرويون فقراء، لا علاقة لنا بالانكليز، لعنة الله عليهم. إننا مسلمون، نتبع سنة الله ورسوله».

ورد مدير الشرطة الذي بذل جهداً ليكتم غيظه: «إنني أتحدث عن

الانكليز الذين اختطفتموهم أثناء الليل. لا أريد سوى الحقيقة. دلني على مكانهم وسوف أعفو عنكم».

هز المختار رأسه بعفوية: «هذا أمر أسمع به لأول مرة. ما حاجتنا إلى الإنكليز حتى نخطفهم. إن قريتنا بحاجة إلى إمام يحميها، لا إلى إنكليز ملاعين كفرة». توقف الرجل لحظة، محدقاً في عيني مدير الشرطة: «ربما كان الثوار هم الذين قاموا بذلك. ولكن لا علاقة للقرية بالأمر. لا بد أنك تعرف الأماكن التي يختفون فيها». ثم أشار بيده إلى وراء القرية: إنهم هناك في الجبال. هذا كل ما نعرفه».

ما كاد المختار يتوقف عن الكلام حتى بدأ أطفال القرية يغنون نيشدهم المحبب الذي كانوا قد تعلموه في مدرسة القرية:

مليكنا، مليكنا

نفديك بالآرواح

عش غانما، عش سالماً

بوجهك الوضاح

ولم يجد مدير الشرطة بداً من أن يأمر رجاله بخفض بنادقهم ثم قال، مخاطباً القرويين الذين ظلوا يحملقون فيه: «يمكنكم الانصراف الآن. من الأفضل أن نتفاهم مع مختار القرية وشيوخها بدل الاستماع إلى الأناشيد». ثم اتجه مع المختار وثلاثة رجال آخرين من القرية إلى الكوخ الذي كان مقهى القرية، يحيط بهم رجال الشرطة. وجاء قرويون آخرون جلسوا القرفصاء فوق الأرض، منصتين إلى الحديث، إلاّ أن مدير الشرطة أمر رجاله بإبعادهم لأنه ما كان يريد لأحد أن يطلع على ما يمكن أن يدور داخل هذا المجلس الذي انضم إليه معاون للشرطة ومفوضان كانا يقودان هذه القوة التي ضمت أكثر من خمسين شرطياً. كان مدير الشرطة يعرف أنه ما من وسيلة لتحرير الأسرى الإنكليز إلا عبر صفقة يعقدها مع رجال القرية الذين كان

متأكداً من أنهم قادرون على مساعدته، إلا أنه لم يكن ليريد أن يكشف أوراقه كلها دفعة واحدة: «لا أريد أن يحل الأذى بقريتكم. ما فعله المتمردون الليلة الماضية تجاوز كل حد». فرد المختار متسائلاً: «لا أدري لماذا يقدم الشبان على مثل هذه الحماقات. ما جدوى مثل هذه الأعمال؟». واضطر مدير الشرطة إلى القول: «حسناً، إنني أوكل إليك أمر إعادة الأسرى قبل مغيب الشمس. أنت مختار القرية ومسؤول أمام الدولة عن كل ما يحدث في قريتك». أطلق المختار ضحكة مفاجئة: «ما هذا الذي تقوله يا رجل؟ هل يمكن لمن يقف ضد الحكومة أن يستمع إلى كلام مختار فقير مثلي؟ تصور ذلك أيها السيد المدير، تصور ذلك فقط». تدخل المعاون: «إننا نعرف كل شيء يا مختار، لسنا عمياناً كما تعتقد». عند ذاك قال مدير الشرطة: «قد يكون ما تقوله صحيحا، ولكنك يمكن أن تساعدنا في الإتصال بالمتمردين للتفاهم معهم على إطلاق سراح الأسرى». حدق فيه المختار ملياً قبل أن يقول: «ربما كان ذلك ممكناً. سوف أفعل كل ما أقدر عليه. ما الذي تريد أن تقوله للمتمردين؟». قال مدير الشرطة بدون مواربة: «ليرسلوا أحداً يمكن التفاوض معه حتى نطلع على شروطهم». ولم يطق مدير الشرطة الذباب الذي كان يلسع ويطن في الهواء الحار فنهض وهو يقول: «سوف أنتظر داخل سيارتي. الحرارة هنا تقتلني». وخرج، متجهاً نحو سيارات الجيب التي كانت تقف وسط القرية، يحيط به رجاله الذين شهروا بنادقهم مرة أخرى، بدون أي سبب واضح.

كان مدير الشرطة قد توقع أن يلتقي أحداً من الثوار قبل المساء إلا أنه انتظر ثلاثة أيام قبل أن يتمكن من ذلك. كان نبأ هجوم الشرطة على قرية طاووق قد بلغ حميد نايلون في اليوم نفسه بيد أنه لم يجد سبباً يدعوه للإسراع في تلبية مطلب مدير الشرطة الذي كان يعرف أنه

أعجز من أن يفعل شيئاً ضد القرية. لم يكن ثمة خيار آخر أمامه سوى الانتظار.

في واقع الحال، إن حميد نايلون الذي لم يكن قد ذاق طعم الحب الحقيقي في حياته وجد نفسه فجأة أسير عواطف فجرتها في جسده المسز هيلين ماكنلي التي منحته نفسها حتى قبل أن يسألها وهي تقول: «لكم كنت بلهاء يا حميد عندما طردتك!»، ثم أضافت: «أعرف أنك غامرت بحياتك من أجل الحصول علي. قل لي إنك قمت بثورتك هذه من أجلي». وغرق حميد نايلون في الضحك. فقد كان هذا آخر ما يمكن للمرء أن يقوله عن ثورته. ثم ضرب بيده على قفاها ممازحاً: «معك أشعر بالثورة تنتصر في جسدي. من أين لك هذه النار كلها؟»

كانت هيلين ماكنلي قد احتلت غرفة القيادة التي هي غرفة حميد نايلون، رافضة الانضمام إلى زوجها والأسرى الثلاثة الآخرين الذين حجزوا في مغارة واقعة على سفح الجبل. وقد قالت لحميد نايلون منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى القاعدة الواقعة داخل غابة بين جبلين أمام الآخرين «أريد أن أكون معك. لا أعتقد أنك سترفض رجاء سيدة مثلي». وبدا لها أنها في حلم يختلط بالموت، لم تكن لتريد أن تستفيق منه. ولكن حميد نايلون كان يعرف أن متعته هذه عابرة وأن عليه أن يطلق سراح أسراه في آخر الأمر.

كانت شروط حميد نايلون واضحة، لا لبس فيها قدمها في قائمة إلى مدير الشرطة الذي نقلها بدوره إلى المتصرف الذي أملاها هو الآخر بدوره في الهاتف على المرافق الخاص لوزير الداخلية. وهي شروط جعلت مجلس الوزراء الذي اطلع عليها يغص بالضحك. فقد علق رئيس الوزراء على وصف حميد نايلون الحكومة بأنها حكومة محتالين ولصوص بالقول: «يبدو أن الرجل يعرف كل شيء عنا». كان حميد نايلون قد طلب استقالة الحكومة وتشكيل حكومة أخرى من

الوطنيين والاعتراف بالصين الشعبية. لكنه اكتفى خلال المفاوضات التي استمرت ثلاثة أيام بشروط أخرى عرضتها الحكومة عليه هي منحه رتبة عقيد فعلية في الجيش وتعيين فلاحيه المتمردين حراساً للقرى المحيطة بمدينة كركوك، بل وذهبت إلى حد الاعتراف لقرية طاووق بحق الأولوية في زيارة ضريح الولي قره قول.

هذه التنازلات التي قدمتها الحكومة جعلت القرويين يتيهون زهواً وخيلاء ويطلقون النار في الهواء، أما حميد نايلون فقد اعتبر الأمر خطوى أولى في مسيرة الألف ميل نحو الدولة التي يحلم بها. واحتفلت قرية طاووق، التي زحف إليها القرويون من كل زاوية وركن بهذا النصر في انتظار قدوم الأسرى والجيش الذي يقوده العقيد أنور مصطفى. ودخل حميد نايلون القرية مثل امبراطور من زمن آخر، جالساً فوق محفة يحملها الأسرى الذين أصروا هم أنفسهم على فعل ذلك، تكفيراً عن ذنوبهم التي ارتكبوها بحق العراقيين وتباهيهم الكاذب وعجرفتهم العنصرية. أما هيلين ماكنلي فراحت ترقص أمام المحفة، باعثة النشوة في قلوب الرجال ومثيرة فضول النساء والأطفال. وقد غمرت الفرحة الجميع حتى أن مدير الشرطة نفسه ترك سيارته واحتضن حميد نايلون بإخاء جعل الدموع تطفر من عينيه، ثم اشتركا في دبكة قدمها رجال قرية طاووق على شرف الأسرى الانكليز. وقد تأثر هؤلاء كثيراً وهم يستقلون السيارات الخاصة التي كانت القنصلية الانكليزية في كركوك قد أرسلتها إلى القرية لنقلهم مرة أخرى إلى بيوتهم. وتعلقت هيلين ماكنلي بعنق حميد نايلون طابعة قبلة حارة على فمه وهامسة: «سوف أعود إليك مرة أخرى». وشعر حميد نايلون بالأسى وهو يرى الموكب يبتعد قليلاً قليلاً ويغيب وراء الأفق الساقط فوق السهل المنبسط مثل سجادة ملونة، ولكنه كان فرحاً، فقد كان هذا هو أول نصر يحققه، منذ أن بدأ الثورة.

بعد ثلاثة أسابيع من ذلك، وذات يوم قائظ، دخل حميد نايلون مدينة كركوك على رأس قوة ضمت أكثر من عشرين من مقاتليه القرويين المسلحين ببنادق محمولة على الأكتاف وخناجر مدفونة في أحزمتهم فاستقبلوا مثل أبطال خارجين من التاريخ، حيث تدفقت الحشود البشرية من الأزقة الضيقة والمحلات القديمة وحتى من بيوت الشعر التي كان البدو الرحل يقيمون فيها عند أطراف المدينة لرؤية الرجل الذي كان الأكراد يعتبرونه كردياً والعرب عربياً والتركمان تركمانياً، مستندين في ذلك على حقائق تاريخية، يصعب دحضها. وخرج المتصرف ومدير الشرطة ومدير الأمن لاستقبال حميد نايلون الذي كان قد أطال لحيته، مرتدياً ملابس الميدان المصنوعة من الخاكي ومعتمراً بيرية حمراء، جعلها تميل نحو اليسار وطافوا معه في شوارع المدينة التي امتلأت بالناس، وسط الرايات واللافتات التي كان يحملها شبان ملثمون ثم اقتادوه إلى نادي الموظفين، حيث أقيمت مائدة طويلة على شرفه في الهواء الطلق في الحديقة. وخرج حميد نايلون أكثر من مرة إلى الشارع ليحيي الحشد البشري الذي كان قد تجمع أمام النادي وراح يهتف باسمه. ولما ظل الحشد مصراً على الوقوف أمام النادي بدون سبب واضح ارتقى جدار النادي وألقى كلمة، أثبت فيها قدرته على التواضع ومرونته في قيادة الثورة التي كانت لا تزال في بدايتها، حيث أعلن انه ليس سوى خادم مطيع لصاحب الجلالة المعظم الملك فيصل الثاني، حفظه الله، وأنه لا يريد أكثر من رفع اسم العراق عالياً بين الشعوب المتحضرة. وصفق المتصرف وكبار رجال المدينة الذين كانوا يقفون على مقربة منه عند باب النادي لهذه الكلمات الحكيمة التي نطق بها حميد نايلون والتي امتصت حماسة الناس الذين ظلوا واقفين فترة أخرى من الزمن، ثم أحنوا رؤوسهم وانصرفوا.

وعاد حميد نايلون إلى المائدة، حيث جلس قرب المتصرف، أما القرويون المسلحون الذين رافقوه فقد تحلقوا فوق العشب بين الأشجار أمام الأطباق التي امتلأت بكل ما لذ وطاب من صنوف الطعام. وقد شعر القرويون الذين التهموا كل ما وضع أمامهم من طعام، وتمددوا على العشب، طلباً للراحة، بالمغص يلوي أمعاءهم فجأة، فهرعوا، الواحد بعد الأخر إلى المغاسل التي كانت تقع عند الطرف الآخر من الحديقة وهم يضغطون بأيديهم على بطونهم المقرقرة بدون أن يفطنوا إلى رجال الشرطة الذين كمنوا لهم وراء الأشجار وراحوا يلتقطونهم بصمت ويلقون بهم، بعد وضع الأغلال في أيديهم داخل شاحنات غطيت من الخلف بستائر من المشمع.

كان حميد نايلون قد استلم رسالة من رئيس الوزراء نفسه، داعياً إياه إلى الدخول في مفاوضات مع الحكومة، بدل اللجوء إلى القتال. ورغم أن حميد نايلون ما وثق قط بالحكومة ووعودها، الا أنه ما اعتقد أن الأمر يمكن أن ينطوي على مكيدة مدبرة. كان ثمة عفو عام قد صدر عن المتمردين، ولكن كتبا سرية أخرى وصلت إلى مسؤولي المدينة تطلب إليهم اعتقال حميد نايلون ورجاله، بدون إثارة ضجة كبيرة. ووضع مدير الأمن الخطة بنفسه ووافق عليها المتصرف ومدير الشرطة اللذان غصا بالضحك عند الاطلاع عليها. كان لا بد من تجريد المتمردين من أسلحتهم قبل القبض عليهم، خشية لجوئهم إلى المقاومة. ولم تخطر ببال مدير الأمن وسيلة أسهل للوصول إلى هذه الغاية من مزج الطعام الذي قدم إلى القرويين المسلحين بكمية كبيرة من مسهّل قوي للمعدة، جعلهم يتلوون ألماً. ولم يفطن حميد نايلون إلى اختفاء رجاله إلا عندما تقدم منه ثلاثة رجال مدنيين من الخلف ووجهوا فوهات مسدساتهم إلى رأسه وظهره، حيث قال أحدهم بلهجة لا تخلو من الأدب: «لقد انتهت الحفلة، هيا انهض معنا».

وتظاهر المتصرف بالاستغراب: «ما هذا الذي تفعلونه يا شباب؟ لا يجوز هذا، إنه ضيفنا». فرد عليه أحد الثلاثة بهدوء: «أوامر من فوق يا سيدي». وفرك مدير الشرطة يديه: «ما دامت عندك أوامر من فوق، فلن يستطيع أحد منا أن يفعل شيئاً». وانتزعوا مسدس حميد نايلون من وسطه وجروه من ياقة قميصه إلى سيارة فورد رمادية واقفة أمام ممر للزهور، انطلقت حالما صار حميد نايلون داخلها. كانت المفاجأة قد عقدت لسانه، ولكن رأسه ظل صاحياً. وفكر وهو محشور داخل السيارة بين رجلين يوجهان فوهتي مسدسيهما إليه «ما كان ينبغي للحمامة أن تثق بوعود الثعلب». كان حزيناً، ولكنه لم يكن خائفاً، فقد كان يعرف أن كل شيء سوف ينتهي بطريقة ما وأن عليه أن يكون ما كان قد أراده دائما.

في مساء اليوم نفسه أصدرت الحكومة بياناً قالت فيه إن حميد نايلون الذي ينتحل اسم العقيد أنور مصطفى انتهك أصول الضيافة العربية عندما أمر المتمردين الذين كانوا معه بفتح النار على كبار رجال الدولة الذين استضافوه، حيث أصيب ثلاثة من الحراس بجروح بليغة، نقلوا على أثرها إلى المستشفى. وادعت الحكومة أن العناية الإلهية ظللت المسؤولين فلم يصب أحد منهم بأذى، مشيرة إلى أن رجال الأمن الساهرين على حماية أرواح المواطنين تمكنوا من تجريد هؤلاء العصاة من أسلحتهم وإلقاء القبض عليهم وأنهم سوف يلقون العقاب العادل الذي ينتظر كل ناكر للجميل.

لم تنطل الإكاذيب التي نشرتها الحكومة عن حميد نايلون على أحد في المدينة، فقد اكتشف الناس الحقيقة حتى قبل أن تصدر الحكومة بيانها الذي ظلت الإذاعة تردده المرة تلو الأخرى. فعلى طول نهر خاصه صو الذي يشطر المدينة وقعت معارك بين شبان الصوب القديم وشرطة البادية التي كانت قد احتلت الشوارع، وشن شبان جقور

الرياضيون هجوماً مخفقاً على موقف القشلة الذي كان حميد نايلون ورجاله قد وضعوا فيه، تاركين وراءهم ثلاثة من الجرحى الذين اختفوا هم أيضاً داخل المبنى المغلق. وزحفت قرية طاووق والقرى الأخرى القريبة أثناء الليل على المدينة من جهة الشرق، فاضطر الجيش إلى التصدي للزاحفين الذين وجدوا الدبابات تغلق أمامهم الطرق المؤدية إلى المدينة. ومع الفجر شنت الطائرات غارات على الزاحفين الذين أرغموا على التراجع وقصفت قرية طاووق والغابات التي كان يختبىء فيها العصاة، مثيرة الرعب بين القرويين الذين فروا إلى شعاب الجبال القريبة.

بعد ثلاثة أيام من المعارك التي دارت في المدينة كسرت القوات الحكومية شوكة المقاومة التي ظلت تقاتل بدون هدف، ولم يعد ثمة سوى بعض القناصة المنفردين الذين راحوا يتصيدون رجال الشرطة والأمن من ستائر المنارات العالية المنتشرة بين البيوت، مما أرغم القوات الحكومية على قصفهم بالمدافع التي كانت غالباً ما تخطىء أهدافها، فتصيب البيوت القريبة محولة إياها إلى ركام ورماد. وهرع الناس إلى ضريح قره قول يحتمون به بينما هام آخرون على وجوههم في البراري، هاربين من الجنود ورجال الشرطة الذين كانوا يقتحمون أي بيت ويعتقلون كل من يصادفونه بعد ضربه بأعقاب بنادقهم. أما من يقاومهم فكان يسند إلى أي جدار وتطلق النار عليه. ودفع الخوف النساء إلى الوقوف أمام بيوتهن والتصفيق للقوات الحكومية، حاملات صور الملك بأيديهن.

كان كل شيء قد ضاع. ولكن برهان عبد الله لم يفقد الأمل. فالأكذوبة لا يمكن أن تنتصر على الحقيقة، مهما امتلكت من أسلحة. كان قد أمضى ثلاثة أيام بلياليها مع المقاتلين الذين تفرق شملهم. ولم يكن ليريد أن يعود مقهوراً ومنهزماً إلى البيت مثل جميع الآخرين

الذين سوف يواصلون حياتهم وكأن شيئاً لم يكن. كان قد كبر فجأة، شاعراً أنه لا بد للمقاومة من أن تظل مستمرة. وأغمض عينيه، باحثاً عن ملائكته الثلاثة، الشيوخ القادمين من الأبدية إلى الأبدية، لكنهم كانوا قد اختفوا. كانت ثمة صحراء تمتد وآثار أقدام عميقة في الرمل وعواء بنات آوى، ولا شيء آخر. وقال في نفسه «لقد اختفوا هم أيضاً. أي نصح يمكن أن يقدمه هؤلاء الشيوخ لي في مدينة تنزف دماً».

كان المساء قد هبط فوق المدينة، فراح يتنقل من زقاق إلى آخر، متجنباً الحراس السود المدججين بالبنادق، القتلة الباحثين عن ضحايا «ان الأمل يكمن في تحرير حميد نايلون من السجن، ذلك وحده يمكن أن يحرر المدينة من الخوف». كان الجميع قد هزموا ولكن طاؤوس ملك وملائكته الصغيرة، تلك التي تعرف كل شيء لا يمكن أن تنهزم أبداً، سوى انه لم يكن يعرف إن كان هؤلاء قادرين على التدخل في أمر مثل هذا. كان كل ما يريده منهم هو أن ينقذوا حميد نايلون ولا شيء بعد ذلك. فقد كانوا بصورة ما جزءاً من الثورة، إذا لولاهم لما عثر على كنز الملاّ زين العابدين القادري والذي مول به حميد نايلون ثورته المدماة. وردد مع نفسه: «إنهم مسؤولون مثلي، كلنا مسؤولون». وكان يقترب شيئاً فشيئاً من البيت الذي يمتلىء بالأسرار. وعبر محلة بيريادي إلى الزقاق المؤدي إلى محلة جقور، ثم استدار يساراً إلى الزقاق الذي توجد فيه الخرابة التي يقع إزاءها بيت الملائكة. ومسح عينيه بيده، محدقاً من جديد في العتمة: «لا يمكن أن يكون كل هذا حقيقة». تقدم إلى الأمام، ثم توقف مطيلاً النظر. لم يكن أي أثر يدل على أن بيتاً ما كان هناك. لم تكن ثمة حتى أنقاض ما وإنما فراغ غارق في عتمة ليل، تضيئه نجوم شاحبة. فاتكأ برهان عبد الله على الجدار وراح يبكي: «كل هذا الوهم، كل هذه الحقيقة!»

الفصل الحادي عشر

إنقضى أكثر من عامين على غياب حميد نايلون الذي كان قد أبعد إلى سجن نقرة السلمان، وهو حصن كبير بني وسط الصحراء الغربية، يقف مثل علامة هائلة مغمورة في الرمل، يحيط به العاقول والصبار، حيث لا يسمع المرء في الليالي سوى عواء ذئاب تطوف حول الأسوار، وقد اجتذبتها رائحة البشر. كان كل شيء قد انتهى، فقد فر العصاة الذين اجتذبتهم الثورة إلى جبال أكثر بعداً أو التجأوا إلى قبائلهم التي ما كانت الحكومة قادرة على الوصول إليها. وأطلق سراح شبان المدينة الذين أسروا أثناء المعارك، بعد شهر أو شهرين من تأديبهم بالفلقة، وجعلهم يهتفون ثلاث مرات في اليوم بحياة الملك. وعاد الفرح مرة أخرى إلى المدينة التي لبت نداء المتصرف، فخرج الرجال والنساء والأطفال إلى الشوارع، مصفقين للمواكب المنتصرة التي كانت ترفع الأعلام العراقية وصور الملك، محتفلة بنجاة مسؤولي المدينة من المؤامرة التي دبرها العصاة وهزيمتهم.

في البداية سار موكب حملة الأعلام، يتبعهم موكب شرطة البادية فوق جمالهم، والشرطة الخيالة على صهوات خيولهم والشرطة الجبلية التي كانت تجر بغالها وراءها، يتبعها موكب المخبرين السريين الذين غطوا وجوههم بالأقنعة. وصفق الناس طويلاً لموكب رجال الدولة، يتقدمهم المتصرف، جالساً داخل عربة الذهب السيارة التي كان الملّا زين العابدين القادري يذهب بها إلى المقهى. ووراء موكب رجال الدولة سار الدراويش، الذين كان كل واحد منهم يحمل بيده اليمنى

قنينة مكسورة، يتسلى بالتهامها ومضغها. ثم مر موكب الرياضيين الذين قدموا ألعاباً سويدية مسلية، والصفارين الذين كانوا يقرعون أوانيهم النحاسية، وحفاري القبور الذين رفعوا على أكتافهم جنازة حمراء، كتب عليها بلون أبيض بخط الثلث: «الثورة».

كانت الفوضى التي عمت المدينة قد انتهت وخفتت حتى حمى اللجوء إلى ضريح الولي قره قول منصور الذي أعادته الحكومة إلى زوجته فأساءت تدبير أموره، حيث تحول بعد شهور إلى إمام آخر مثل جميع الأئمة الآخرين المنسيين في برية المصلى. وافتتحت في مركز المدينة، حيث يقع حصن الفرقة العسكرية الثانية، مقاه صيفية، كانت تظل ساهرة حتى منتصف الليل، ومقاه شتوية، تمتلىء بلاعبي البليارد الذين كانوا ينتظرون دورهم أمام المناضد الخضراء. وانتشرت محلات بيع اليانصيب الذي كان ينظمه الهلال الأحمر بسحبتين، أسبوعية وشهرية، والتي كانت تلصق صفحة الأرقام الفائزة على ألواح توضع فوق الرصيف ليقرأها المارة. واستجلب الخياطون والخياطات موضاتهم من باريس ولندن وبيروت واستانبول، فانتشرت السراويل الضيقة من الأسفل. أما الفتيات الآشوريات اللواتي كن يخرجن عصراً، متنزهات في شارع تكساس، فقد ارتدين الثياب القصيرة التي كانت ترتفع فوق الركبة. وافتتح بغدادي جاء من الأعظمية مطعماً من غرفة صغيرة واحدة في شارع العلمين، يشبه المتجر بصندوقه الزجاجي الطويل الذي جعل منه مقصفاً، راح يبيع الساندويتش الذي كان يؤكل وقوفاً مع البيبسي كولا والكوكا كولا، وهو أمر ما كانت كركوك قد عرفته من قبل، مما أرغم الكثير من مطاعم الكباب على إغلاق أبوابها، بعد أن هجرها الشبان التواقون إلى الحياة العصرية.

واختفى خضر موسى عن الأنظار حتى قبل ذهاب حميد نايلون إلى الجبل الذي قاد منه ثورته الفاشلة، ولم يعد الناس يرونه إلا صدفة،

وهو يسير في الشارع وحيداً ساهماً، غارقاً في أفكاره أو خارجاً إلى البرية في الأماسي للنزهة، برفقة صديقيه دده هجري ودرويش بهلول، مثل أشباح خارج كل تاريخ وكل زمن. كانوا يسيرون في صف واحد دائما، يحدقون في أسراب القطا القادمة من الغرب أو يجمعون باقات من الأوراد البرية الملونة ثم يجلسون على الصخور ويتحدثون عن الغروب. وفي الليل يعودون إلى البرج الذي أقامه خضر موسى فوق التكية التي لجأ إليها ذات مرة قبل أعوام والتي سمع فيها صوت شقيقيه الأسيرين، يناديانه من روسيا. وقد قاوم خضر موسى هذه المرة أيضاً نزوات زوجته نظيرة وأمها الساحرة، اللتين كانتا تهاجمان بين الحين والحين التكية التي يرتفع فوقها البرج وتبدآن بشتم دده هجري ودرويش بهلول اللذين كانتا تقولان عنهما إنهما أغريا خضر موسى بالانسحاب إلى هذا البرج العالي الذي ما كانتا قادرتين على ارتقاء سلالمه، بسبب سمنتهما المفرطة. كانتا تظلان هناك، تحت، تشتمان الرجال الثلاثة بصوت عال، متعمدتين إسماع الناس الذين كانوا غالباً ما ينصحونهما بالكف عن هذا الهذر، بدون أن يرد عليهما أحد من الرجال الثلاثة الذين كانوا يظلون صامتين، كما لو أن الأمر لا يتعلق بهم.

إعتقد الناس أن الغنام القديم أصيب بنوبة صوفية جديدة فاعتزل الحياة، وهو أمر غالباً ما كان يحدث عند الشيوخ في كركوك، ولكنهم كانوا مخطئين هذه المرة، فالبرج الذي أقامه خضر موسى فوق التكية كان في واقع الحال المركز السري للمؤامرة التي كان الجيش يدبرها، وهو أمر ما كان يمكن أن يفطن إليه أحد، اقترح بناءه درويش بهلول، بعد أن حدثه خضر موسى بما كان العقيد عدنان الدباغ، قائد الفرقة الثانية قد عرضه عليه، والذي كان قد شعر بمودة خاصة تجاهه منذ المرة الأولى التي التقاه فيها في نادي الضباط.

فعندما زاره خضر موسى بعد ذلك في مكتبه ومن ثم في بيته كانت الحواجز التي تفصلهما عن بعضهما الآخر قد سقطت، حتى أن العقيد راح يستشيره في أموره العسكرية. وفي اليوم الذي اعتقل فيه حميد نايلون قصد خضر موسى الذي كان ممتلئاً غضباً العقيد، طالباً إليه التدخل لإنهاء قتل السكان الآمنين. ولكن العقيد أمسكه من يده وأجلسه على مقعد جواره، وهو يقول: «ليس الآن، لم يحن الوقت بعد. لا بد من الإنتظار بعض الشيء»، ثم أضاف بعد تردد: «إننا نحتاجك، أرجو ألا تخيب أملي فيك». وعادت الحياة فجأة إلى وجه خضر موسى الذي نهض وعانق العقيد: «إن حياتي التافهة فداء لحرية الوطن. قل لي ما ينبغي عمله. أستطيع أن أفعل الكثير». ابتسم العقيد عدنان الدباغ: «كنت واثقاً من ذلك يا خضر».

لم يكن ثمة الكثير الذي ينبغي على الرجال الثلاثة القيام به في برجهم الذي ركزوا فوقه علماً إسلامياً أخضر سوى الاحتفاظ بالوثائق السرية التي كانت تضم أسماء الضباط المشاركين في المؤامرة وخطتين، إحداهما تنفيذية وأخرى للطوارىء، مع سجل صغير ضم أسماء الذين ينبغي اعتقالهم منذ اليوم الأول، سلمها خضر موسى لدرويش بهلول الذي وضعها على الرف مع الكتاب المحفوظ الذي كان ينظر فيه كل يوم قبل أن يخرج إلى عمله الذي ما كان ينقطع. وفي ركن من البرج وضعت المطبعة الصغيرة التي كان حميد نايلون قد جلبها من بغداد عند زيارة الملك، فظلت مرمية في مدخل البيت حتى شاهدها دده هجري فطلبها لنفسه، ليطبع بها دواوينه الكثيرة التي ما كان يجد لها ناشراً في كركوك. وهكذا صدرت من البرج البيانات الأولى التي هزت الحكومة وجعلتها ترتعب، حاملة اسم منظمة الضباط الأحرار والتي كان دده هجري يحملها بنفسه إلى بيت في القلعة ثم يتركها هناك. وترك العقيد عدنان الدباغ أمر قيادة المدنيين

في يوم الثورة لخضر موسى الذي كان واثقاً من أن المدينة كلها سوف تتبعه عندما تحين ساعة الصفر.

وفي الليلة التي سبقت صباح الثورة التي فاجأت الجميع هبط درويش بهلول من البرج، حاملاً في يده اليمنى صرته التي كانت تضم كل ما يملكه فالتقى خضر موسى الذي كان عائداً من نزهته المسائية على السلالم فقال له فرحا: «حمداً لله أنك قد عدت في اللحظة المناسبة». رد خضر موسى في الظلام الشفيف الذي كان يخيم على السلالم: «ما هذه الصرة التي تحملها؟ لا أعتقد أنك سوف تتركني في مثل هذا اليوم». وضع درويش بهلول يده على كتف خضر موسى بمودة قائلاً: «بل ينبغي أن أغادرك في مثل هذا اليوم بالذات. ثمة أعمال كثيرة تنتظرني غداً في بغداد»، ثم أضاف مبتسماً: «أنت تعرف أنني سأعود في النهاية». وعرف خضر موسى أن دماً كثيراً سوف يسفك في اليوم التالي، فغادر النوم عينيه، حيث ظل يفكر طوال الليل في المجهول الذي يضمره الغد.

في تلك الليلة زحف الجنود على مدينة بغداد التي يقيم فيها الملك فيصل الثاني ورجال الحكومة مثل لصوص متسللين، قادمين من قاعدتهم البعيدة فاحتلوا كل زاوية فيها حتى قبل أن يفطن أحد إلى أن ثمة أمراً ما قد حدث. وعند الفجر اقتحمت وحدة من الجنود قصر الملك الذي كان يغط في نومه، فظلت واقفة في قاعة الشرف، تنتظر خروج الملك، وقد انتابها القلق. بعد دقائق انفتح باب ما، أطل منه درويش بهلول الذي ألقى نظرة صامتة على الجنود وهم يشهرون في وجهه بنادقهم التي كانوا يضعون أصابعهم على زنادها. ثم قال للضابط الذي يقودهم، غائباً في ممر طويل، مفروش بالسجاد الأحمر: «سوف أذهب وأوقظ الملك». وفتح درويش بهلول باب مخدع الملك الذي كان لا يزال نائما بالبيجاما. تقدم ووضع يده على

رأسه، هامساً: «لقد حلت الساعة، ها أنذا آتيك ثانية يا صاحب الجلالة». وفتح الملك عينيه فجفل من الصدمة: «ماذا تفعل في غرفتي؟»، فرد درويش بهلول بأسى: «هيا انهض يا صاحب الجلالة، جئت لآخذك معي». وقال الملك متذكراً: «مرحباً يا درويش بهلول، كيف وصلت إلي؟». رد درويش بهلول بأدب: «إنني الموت يا صاحب الجلالة، جئت أقودك إلى قتلتك الذين ينتظرونك في صالة الشرف». قال الملك حزيناً: «لقد حانت الساعة إذن يا درويش بهلول، أليس كذلك؟». قال درويش بهلول متأثراً بعض الشيء: «أجل يا صاحب الجلالة، إنها الساعة التي لا بد منها». فارتدى الملك روباً فوق بيجامته، ثم خرج مستنداً إلى كتف درويش بهلول، آملاً أن يكون ذلك كله حلماً، يستيقظ منه بعد حين.

في ذلك الصباح الذي ظل الناس يتذكرونه أعواماً طويلة أطلق الجنود النار على الملك الذي كان في الحادية والعشرين من عمره، فسقط على ركبتيه متمتماً وهو يحدق في درويش بهلول الذي حمله على كتفه، قاصداً الاسطبل الذي كان ملحقاً بالقصر والذي تقف أمامه دائماً العربة الملكية المنقوشة بالذهب. وضع الملك الذي كان الدم يسيل من جروحه الكثيرة داخل العربة التي لطخ الدم قماشة مقعدها، ففتح الملك عينيه للمرة الأخيرة وقال بصوت واهن: «وداعاً أيتها الحياة القصيرة الجميلة». ابتسم درويش بهلول وهو ينظر في ساعة، أخرجها من جيبه، قائلاً: «ما زالت عندك دقيقة أخرى، يا صاحب الجلالة». مد الملك يده الملطخة بالدم وأمسك بيد درويش بهلول: «كن رحيماً بي أيها السيد الموت»، وضغط عليها. وانتظر درويش بهلول قليلاً حتى رن منبه ساعته، فأخرج دفتراً من جيبه وشطب إسم الملك. ثم أخرج حصانين شدهما إلى العربة التي انطلق بها من باب مفتوح على المدينة التي كانت لا تزال غافية،

غارقة في السكون الذي كانت تقطعه صليات الرصاص بين الفينة والأخرى.

أمضى درويش بهلول ثلاثة أيام، لم يذق فيها طعم النوم لحظة واحدة. فقد أصيبت المدينة بالجنون حالما سمعت البيانات التي كان يطلقها من الإذاعة مثل صرخات صادرة من السماء عقيد لم يكن أحد قد سمع باسمه من قبل، مقطوعة بمارشات عسكرية، تنقر داخل رؤوس انفتحت على الموت فجأة. فقد انتهى سأم الناس الذين اندفعوا إلى الشوارع حتى لكأنهم في حفلة كبرى، تشمل العالم كله. خرجوا من أزقة الرماد في الفضل والشواكة والأعظمية وجاؤوا من عقد النصارى وبغداد الجديدة والتاجي، ومدينة الصرائف، حاملين في أيديهم الطبول والدنابك التي كانوا يقرعونها فيرقص على إيقاعها الموظفون الذين تركوا دوائرهم ونزلوا إلى الشوارع. ودبك القرويون الذين جلبوا رايات سوداً من حسينياتهم الكثيرة في الميادين العامة ووسط الشوارع، مهوسين للثورة التي ما كانوا يعرفون في واقع الحال أي شيء عنها. وامتلأت المدينة بالقردة والدببة والأسود والفهود والنمور التي أخرجها المروضون من سيرك هندي، كان يقدم عروضاً كل مساء في مكان ما خارج المدينة. وقدمت راقصات الملاهي الليلية حفلات رقص شرقي مجانية للجنود المتعبين، حتى أن البهجة جعلت الراقصات يتعرين من ثيابهن، فاغتصبن فوق العشب المحروق بالشمس، وسط صراخ الناس وتدافعهم لرؤية هذه المشاهد المثيرة، إلاّ أن بعض النساء المتفرجات أشاح بوجهه خجلاً، في حين قالت آخريات: «لقد جاءتنا الحرية أخيراً». واستبدت الحماسة بالناس فاهتاجوا، مهاجمين كل ما اعتبروه عدواً لهم. اجتاحوا القصور الفخمة وقتلوا سكانها بالعصي والأرجل، ناهبين كل ما يمكن حمله. وتدفقت موجة بشرية فاجتاحت قصري الرحاب والزهور الممتلأين

بالجثث فربطتها بالحبال وأخذت تجرها عارية في الشوارع قبل أن تعلقها على أعمدة الكهرباء في الباب الشرقي، هاتفة «ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة». بعد ثلاثة أيام لم يبق من الجثث سوى عظامها، فقد صعد أحد القصابين وقطع قضيب الوصي عبد الإله الذي كان يتدلى بين فخذيه ثم دسه في مؤخرته، وسط تصفيق الجمهور الذي غص بالضحك، ثم صعد آخرون يحملون البلطات بأيديهم وراحوا يقطعون أيدي وأرجل الجثث ويرمون بها للقرويين الذين كانوا يتقاتلون للحصول على قطعة منها.

في اليوم الثالث عاد درويش بهلول إلى مدينة كركوك التي تغير كل شيء فيها، حتى لكأن العالم في عيد أبدي أو مهرجان، يظل مستمراً في الليل والنهار. كان خضر موسى قد ارتدى بدلة عسكرية ووضع شارة حمراء فوق يده، بعد أن جرى تعيينه قائداً لقوات الدفاع الشعبي عن الجمهورية، وراح يتنقل ما بين المقاهي الكثيرة التي اتخذها المتطوعون المسلحون بالعصي والسكاكين والحبال مقرات لهم، طالباً إليهم فتح عيونهم جيداً، فقد يهجم الانكليز مرة أخرى من معسكر الحبانية أو الشعيبة اللذين كانت قواتهم توجد فيهما، كما حدث قبل سبعة عشر عاماً. لم تشهد مدينة كركوك في الحقيقة مجازر مثل تلك التي حدثت في بغداد، على الرغم من أن الناس خرجوا إلى الشوارع حالما سمعوا نبأ إعلان الجمهورية، إذ لم يهاجموا سوى المركز الثقافي الأميركي الذي نهب المثقفون والبقالون معظم كتبه. كان المثقفون قد عرفوا منذ زمن قيمة تلك الكتب، أما البقالون فقد وجدوا فيها مصدراً لا ينضب للورق الذي كانوا يحتاجونه في صنع لفائف الشاي والبهارات الصغيرة التي يبيعونها. وخرج الشيوعيون من سراديبهم الكثيرة، رافعين لافتاتهم التي بهرت الناس بشعاراتهم التي ما كان الكثيرون يعرفون معناها. وترك منظر الرايات الحمر، بالمنجل

والمطرقة انطباعاً، أصبح حقيقة بعد حين، وهو أن الشيوعيين هم الذين قاموا بالثورة، حتى أن الكثيرين راحوا يتباهون بأنهم كانوا شيوعيين دائماً. وقد أزعج هذا الأمر كثيرين آخرين، اعتقدوا أنهم هم الذين قاموا بالثورة، فانقسمت المدينة إلى شيوعيين، يجلسون غالباً في المقاهي ويلعبون الشطرنج أو يقرأون جريدة «النور» التي كان خالد بكداش يصدرها في دمشق، فتباع مثل سلعة نادرة في مقهى الجبهة في كركوك، وإلى تركمان طورانيين، رفعوا شعار الوحدة العراقية ـ التركية ضد البعثيين والقوميين العرب الذين خرجوا إلى الشوارع مطالبين بالوحدة العربية الفورية التي أزعجت البارتيين الأكراد فجعلتهم يدعون إلى تشكيل دولة كردستان الكبرى، في حين رفع الأرمن الطاشناق لافتات، تطالب بالاقتصاص من الأتراك القتلة وضم تركيا إلى ارمينيا. أما الآشوريون والكلدان الذين كان الانكليز قد وعدوهم بإقامة دولتهم في شمال العراق فراحوا يغنون فرحين في الشوارع «تلكيف نال استقلالوخ، دين محمد بطالوخ» وهو أمر أفزع أعضاء «الحياة الآخرة» الذين رموا باللوم كله على الشيوعيين، فهاجموا مقاهيهم وأشعلوا النار في لافتاتهم التي كانوا قد كتبوا عليها «ماكو مهر، بس هالشهر، ذبوا القاضي بالنهر»، ووزعوا على الشبان التركمان ميداليات ذهبية، تحمل صور قطط سود، فاغرة أفواهها، وضعوها على صدورهم، لتأكل حمامات السلام البيض فوق الميداليات التي كان الشيوعيون يثبتونها في العادة فوق صدورهم أو يعلقونها في أعناقهم.

في الأشهر الأولى التي أعقبت الثورة والتي انفلتت فيها العواطف من عقالها، سيطر الشيوعيون على معظم أحياء كركوك الشعبية التي أعلنوها جمهوريات ديمقراطية شعبية، ذات حكم ذاتي، حيث انضم إليهم رجال الأمن والشرطة الذين كثيراً ما كانوا يسيرون في مواكب

منتظمة، قاطعين شوارع المدينة وهم ينشدون بصوت عال «اسأل الشرطة: ماذا تريد؟ وطن حر وشعب سعيد». وكانت الحماسة تدفع رجال الأمن بين الحين والآخر إلى اعتقال الذين لا يصفقون في الشوارع، بتهمة التآمر ضد الجمهورية، فيضربونهم حتى الاعتراف في النهاية بالمؤامرات التي كانوا يدبرونها في الخفاء ضد العقيد الأوحد الذي كان ينافسه عقيد آخر أراد أن يكون أوحد هو الآخر، فاعتقل ثم ضرب حتى قبل بتعيينه سفيراً في بون وعيناه ممتلئتان بالدموع، مما جعل المطربين يسخرون منه شامتين في أغنية شعبية، كانت الإذاعة تبثها ثلاث مرات في اليوم «رايح سفير إلى بون، يبكي خطية». ولكن الرجل لم يغادر مطار بون ـ كولونيا الذي هبطت فيه طائرته، حيث عاد على متن نفس الطائرة التي أقلته، فاعتقل مرة أخرى، لأن زوجته، وهي امرأة سليطة اللسان، تخافها نساء محلتها، اقتحمت وزارة الدفاع وراحت تشتم العقيد الأوحد وأمه التي كانت تقترض منها النقود، فلا تردها لها. وسلم العقيد الأوحد العقيد الآخر إلى قاض عسكري، جهوري الصوت، ما كان ينطق إلا شعراً، فواجهه حال وقوفه في قفص الاتهام، متسائلاً:

ماذا تقول وأنت كلب أغبرُ؟ هل جئت تبكي أم تراك تطرطرُ؟

ولكن المدعي العام تدخل لينقذ الجلسة من القصيدة التي كان يمكن أن تستمر ساعات أو ربما أياماً، لأن كل بيت كان يقاطع في العادة بقصائد يلقيها شعراء الشعب الذين توافدوا على المحكمة، وسط تصفيق الجمهور وهلاهل النساء وهوسات الفلاحين المدوية، معلناً أن الخائن الأوحد الذي يقف أمام العدالة أتفه من أن يدافع عن جرائمه الكثيرة بحق الشعب، أما دموعه فليست سوى دموع تماسيح، تعيش في المياه الآسنة. واقترح إعدامه في ساحة التحرير ليكون عبرة لمن يعتبر من الخونة في المستقبل.

واستهوت الناس هذه الحفلات التي صارت تسليتهم الوحيدة، حتى أن كل محلة أوجدت محكمتها الشعبية الخاصة بها والتي كانت تعقد في أي وقت من الليل والنهار. وقد امتد هذا الهوس إلى محلة جقور أيضاً، حيث نصب هادي أحمد، وهو الصبي الذي كان قد أصيب بالعمى في عينه اليسرى في معركة كاورباغي قبل أعوام، نفسه رئيساً للمحكمة الشعبية التي لم تجد من تحاكمه، رغم اكتشاف مؤامرات كثيرة في أماكن أخرى، حتى بوغت الناس ذات يوم بهادي أحمد الذي لم تكن الرشاشة لتفارق كتفه يقود والده العجوز واثنين آخرين من الجيران إلى برية المصلىّ، مرغماً إياهم على حفر قبورهم بمعاول في أيديهم في انتظار إطلاق النار عليهم، بدعوى السخرية من الثورة. ولم ينقذ الرجال الثلاثة سوى نساء محلة جقور اللواتي غافلن هادي أحمد فهاجمنه وعضضنه في يديه وكتفيه، فرمى الرشاشة وولى هارباً، وهو يشتم ويهدد بالانتقام.

كانت الثورة في الحقيقة قد سحرت الناس فجعلتهم يتغيرون ويقومون بما لم يكن أحد يتوقعه منهم. فقد أخذ الكثيرون ينامون في النهار ويسهرون في الليل، وأطال الشبان لحاهم في حين لجأ الشيوخ إلى صبغ شعر رؤوسهم بالحناء، وولد أطفال كثيرون من أمهات عذراوات، نطقوا، مدهشين الناس بكلماتهم الحكيمة، حال خروجهم إلى الدنيا، ونبتت أسنان إضافية عند أبناء بعض الطوائف، أثارت اهتمام الأطباء الذين وضعوا دراسات وافية حول هذه الظاهرة التي لم تكن غريبة على الجنس البشري.

ومع الحرية الجديدة التي فاجأت الناس اضطر مدراء السجون إلى فتح أبوابهم المغلقة فخرج السجناء القدامى، عائدين إلى مدنهم التي استقبلتهم مثل أبطال أسطوريين انتهى منفاهم. فقد وقف حميد نايلون

ورجاله الذين دخلوا مدينة كركوك، حاملين الرايات الحمر، في ميدان وسط المدينة، احتشد فيه الناس وقدموا عروضاً حية عن التعذيب الذي كانوا قد تعرضوا له في السجون والمعتقلات التي أقاموا فيها. فقد نزع حميد نايلون قميصه الأزرق المخطط بالأبيض فبان صدره المشعر وظهره الملحوم، حيث تركت السياط وجمرات السجائر آثارها في اللحم البشري. وقدم الآخرون الذين كانوا معه في السجن عروضاً تمثيلية واقعية عن طرق التعذيب المألوفة في العراق، إذ نزل الجلادون من شاحنة، كانوا قد حجزوا فيها ووقفوا أمام ضحاياهم المرتجفين الذين كان عليهم المرور بالتجربة للمرة الأخيرة. وتبرعت فتيات من الحشود المتفرجة فانضممن إلى الضحايا الذين شدت أيدي الكثيرين منهم بالحبال، بينما أخذ الجلادون يضربونهم بقضبان من الأسلاك المعقودة، غير آبهين بالدم الذي كان يتدفق فيلطخ أيديهم. رغم الخجل وجد الضحايا أنفسهم يصرخون، متوسلين إلى الجلادين الكف عن ضربهم، ولكن عبثاً، فقد استعاد الجلادون روحهم القديمة التي ما كانت قد فارقتهم. كانت هذه الحفلة التي قدمت في الهواء الطلق مثيرة ومسلية، استهوت الجمهور الذي راح يطالب برؤية كل شيء. فلم يجد الجلادون بداً من إخراج فلقاتهم التي تشد على الأرجل فتضرب على باطنها، والزجاجات التي دسوها في مؤخرات ضحاياهم والكلابات التي اقتلعوا بها أظافرهم، بل إنهم جلبوا مراوح سقفية، علقوها بأعمدة الكهرباء، ثم شدوا أيدي ضحاياهم إلى الخلف وربطوهم إليها بعد رفعهم عن الأرض ثم جعلوها تدور بقوة، حتى انخلعت أكتاف الضحايا الذين ظل الجلادون يضربونهم بالعصي أثناء دورانهم، فيصيبونهم كيفما اتفق، غارقين في الضحك. ومزقت ثياب الفتيات المتطوعات واغتصبن أمام الحاضرين، من دون أن

يبحن بكلمة اعتراف واحدة عن خلاياهن السرية. ثم أوقف الذين انهاروا، عاجزين عن مقاومة التعذيب في صف واحد وطلب إليهم العواء، فراحوا يعوون مرة مثل كلاب تائهة في ليلة مقمرة، وأخرى مثل ذئاب جائعة، أو بنات آوى، مضطربة وهي تقترب من حافات القرى.

هذا الضعف البشري جعل الجمهور الذي كان مأخوذاً بفكرة البطولة التي صنعت الثورة، يفقد أعصابه ويهاجم الخونة المنهارين الذين ضربوا مرة أخرى فاختلط عواؤهم بالشتائم التي كانت تأتيهم من كل مكان«الخاين شعبه، نقطع ايده». ولم ينقذ الموقف سوى حميد نايلون الذي ألقى كلمة بليغة بالمايكروفون، شكر فيها الشعب على حماسته وأشار إلى أن الغضب يجب أن يوجه ضد الجلادين، لا الضحايا الذين قدموا كل غال ونفيس من أجل حرية الوطن. ما كاد الجلادون يسمعون هذه الكلمات المحرضة حتى لاذوا بالفرار، فلحقهم الناس الذين كان الشرر يتطاير من أعينهم وقتلوهم بالعصي والأرجل، ثم عروهم من ثيابهم وشدوهم من أرجلهم بالحبال وراحوا يجرونهم من شارع إلى آخر، يلاحقهم الأطفال مغنين وهاتفين مقلدين الكبار. ولكن بعض الذين جرى شدهم إلى سيارات تسحلهم، كان يستعيد وعيه فيظل يرفس، محاولاً الإفلات من الأنشوطة، حتى أن ثلاثة أو أربعة منهم نجحوا في تحرير أرجلهم، فنهضوا وراحوا يعدون عراة في الشوارع، مثيرين ضحك الجمهور الذي كف عن مطاردتهم. أما الآخرون فقد شنقوا على الأشجار أو علقوا على أعمدة الكهرباء والتليفون.

كانت مدينة كركوك قد أدمنت هي الأخرى على الموت مثل المدن الأخرى، متبعة رغبات العقيد الذي كان يغير بين الحين والآخر أفكاره، مأخوذاً بينبوع النور الذي كان يتدفق من روحه مثل وحي

يهبط عليه من السماء، فيتحول إلى تعليمات صارمة، توجه إلى دوائر الأمن التي كانت تدير عصابات قتلة من كل صنف ولون. فعندما بدا أن العقيد صار شيوعياً راحت العصابات تطوف المدن وتسلم من لا يزين صدره بالمنجل والمطرقة إلى القصابين الذين كانوا يعلقونه من رجليه بالخطاطيف، مع خرافهم. وعندما انقلب ضدهم مثلما كان يحدث غالباً، هجمت الطوائف الأخرى عليهم وأسرتهم، مرغمة آباءهم أو أمهاتهم على قتلهم بالسكاكين والحراب. ولكن الكثيرين منهم أحرقوا أحياء في حفلات شعبية، كانت توزع فيها النساء الشوكولاته والحلوى والملبّس على الجمهور الذي كان يهتف دائماً مع اتجاهات الريح. بعد شهور انقلب العقيد الذي ملأ المدينة بصوره وتماثيله مرة أخرى فأصدر صحفاً، راحت كل واحدة منها تهاجم طائفة من الطوائف قائلة إن العقيد نفسه يقف فوقها جميعاً، وصدرت قوانين تحرم فعل أي شيء لا يقترن باسم العقيد الذي كان قد كرس حياته كلها من أجل الشعب. توجب على المطربين الشعبيين أن يدسوا اسمه في أغاني الحب والغرام التي تتغزل بالحبيبة التي ما كان يمكن لها أن تنام مع رجل، لا يحب العقيد الأوحد. وكانت النساء يلدن أطفالهن بدون ألم، إذا استمعن إلى القابلة، تتلو عليهن تعاليم العقيد وحكمياته التي صدرت في مجلدات لا عد لها، ووزعت على تلاميذ المدارس والموظفين الحكوميين ونقابات العمال دواوين الشاعر عبد التائب عبد الغائب الذي أشاع في معلقاته أن العقيد يجلس على حافة الأبدية ويمد رجليه فوق التاريخ. والحق يقال أن الطوائف كلها أصيبت بما يشبه اللوثة في روحها المحروقة. فإذا ما هاجم أعضاء «الحياة الآخرة» الشيوعيين هتفوا قبل كل شيء «عاش العقيد، المسلم الأوحد، قاهر الشيوعية والشعوبية». وكان الشيوعيون يردون عليهم بشعار «عاش العقيد الأوحد، قاهر الرجعية». وإذا ما اختلف البعثيون

مع القوميين هتفوا بأعلى أصواتهم «عاش العقيد الأوحد، مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي» ليغطوا على هتاف «عاش العقيد الأوحد، قائد الوحدة العربية ومحرر فلسطين». وكان الأكراد يخيفون التركمان عادة بشعار «عاش الكاكه العقيد الأوحد، موحد كردستان» فيردون عليه بشعار «عاش العقيد الأوحد القرداش، محرر الأتراك من الأوباش». ولم يقتصر الأمر على الحرب بالشعارات المتخفية وراء اسم العقيد، فقد أخذ الناس يقتلون بعضهم الآخر بالرصاص والخناجر والبلطات في وضح النهار، وفي الليالي كانوا يشعلون الحرائق في بيوت خصومهم، فتلتهمها النيران التي غالباً ما كانت تمتد إلى البيوت المجاورة أيضاً، فتحيلها رماداً.

وبدا خضر موسى الذي أفجع قلبه الخراب الذي حل بمدينته أشبه بمن أضاع نفسه. كان كل شيء قد أفلت من يديه ولم يعد يجد من يستمع إاليه. وقد تهاوى العالم دفعة واحدة أمام ناظريه عندما اقتاد رجال الأمن ذات مرة شقيقيه العجوزين إلى المخفر وضربوهما، متهمينهما بالترويج للإلحاد في محلة جقور. فاضطر إلى أن يقصد العقيد عدنان الدباغ الذي تدخل فأطلق سراحهما، ناصحاً إياه بإعادتهما مرة إخرى إلى طاشقند التي كانا قد جاءا منها، ولكنهما فضلا أن يقصدا مدينة مكة المكرمة حيث اتخذا لنفسيهما زاوية في فناء الكعبة التي كانت تحمي كل من يلتجىء إليها. ولما فقد خضر موسى آخر أمل في قلبه انسحب مرة أخرى إلى برجه القائم فوق التكية، بعد أن نزع بدلته العسكرية وأعادها إلى العقيد عدنان الدباغ، منقطعاً عن الدنيا ومكرساً ما تبقى من عمره لذكر الله مع صديقيه دده هجري ودرويش بهلول اللذين انضما إاليه، مبتعدين عن الشر الذي استفحل في كل مكان من المدينة.

لم يعد الرجال الثلاثة يغادرون برجهم أبداً. كان كل شيء يبدو

مكرراً ورتيباً. موت يتبع موتاً وجنون يعقب جنوناً. فقدت المدينة براءتها الأولى فامتلأت بالمحتالين والقتلة. ورفض الرجال الثلاثة أن يستقبلوا أحدا غير حميد نايلون وبرهان عبد الله اللذين كانا يحملان إليهم الطعام والسجائر كل يوم، حتى بدا أن الناس قد نسوا تماماً هؤلاء الرجال الذين ما عاد أحد يذكرهم. واكتفى درويش بهلول الذي ما كانت أعماله لتنقطع بوضع ساعة منبه إلى جانبه، تذكره بشطب هذا الاسم أو ذاك من اللوح المحفوظ الذي كان يضعه عادة تحت وسادته. لم يكن هذا بالتأكيد إهمالاً، تعمده درويش بهلول وإنما لأن الناس لم يعودوا يأبهون حتى بالموت. فقد أخذوا يموتون هكذا ببساطة، وكأنهم فقدوا كل حس بالحياة، مانحين أنفسهم للموت الذي ما تعبوا منه، حتى أنهم أنشأوا أغاني راحوا يرددونها في الشوارع مثل «يموت الشعب ويحيا العقيد» و«اعدم، اعدم، كل الشعب يريد، اعدم، اعدم». وكان العقيد، وهو رجل ذو طباع غريبة، قد استبدل بالبلبل الذي يغرد في الإذاعة قبل افتتاح برامجها، أسد شركة ميترو غولدوين ماير الذي يزمجر في مستهل كل فيلم من أفلامها، مخيفاً به أعداءه. ومع الموت انتشرت الخرافات التي كان فلكيو العقيد يشيعونها بين الناس فتنتشر مثل النار في الهشيم. فقد اشترى الكثير من القرويين الذين يسكنون في الصرائف نواظير، راحوا يوجهونها كل ليلة إلى القمر لرؤية العقيد الذي قيل إنه أخذ يطل من هناك، مانحاً العالم النور والحنان.

كان الناس قد تغيروا، حتى أصبح من الصعب التعرف عليهم. فقد عثر كل منهم على مهمة جديدة، شغلت حياته حتى ما عاد يذكر ماضيه الذي جاء منه. وبدا كل شيء جديداً، مثل أرض عذراء يسلكها قادمون مبهورون، يتبعون أدلاء، يعرفون كل شيء، الماضي والحاضر والمستقبل. وانتشرت عادة عبادة الأصنام التي اعتاد الكهنة الجدد

صبغها بالحناء ووضعها على دكات في زوايا الشوارع والأزقة وأمام المقاهي والحوانيت، مثل علامات منذرة بقدوم الزمن الذي تتحد فيه الأرض بالسماء.

وانقطع حميد نايلون عن مقاتليه القرويين الذين تركهم لمصيرهم الجديد، فاصطادهم آخرون، جعلوهم ينتمون إلى الجمعيات الفلاحية التي كانت تغيِّر بين الحين والآخر على المدن فتنهبها بحجة أو بدون حجة. كان السجن قد ترك الكثير من الندوب على روح حميد نايلون فانطفأ مثل جمرة بفعل الزمن أو الخيبة. لم يلحظ ذلك أحد غيره. كان الكثيرون يعتقدون أنه قد ازداد حكمة ونضجاً إلا هو، فقد بدا له العالم أشبه بمسرحية، يقدمها ممثلون هزليون من جميع الأصناف. وكان يقول لنفسه: «إذا كان الجميع قد أصبحوا ثواراً، فأي دور يبقى لك، أنت يا حميد نايلون؟» وراح يجلس اليوم بعد الآخر، كل مساء في نادي نقابة النفط ويحتسى العرق، غارقاً في ذكرياته. كانوا قد عرضوا عليه أن يكون رئيساً لنقابة النفط التي كانت قد خرجت من السر إلى العلن، ولكنه إذ رفض ذلك اختير أن يكون رئيس شرف لها حتى بدون أن يسأله أحد. وتكررت زياراته للبرج الذي كان يقيم فيه خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري، مأخوذاً بالمناقشات التي كان يخوضها هؤلاء الرجال. وكان في كل مرة يغادر فيها البرج يغرق في البكاء، ممتلئاً بعواطف يجهل ينبوعها، مثل رجل توقظه نداءات بعيدة. كانت الثورة قد غيرت حميد نايلون مثلما غيرت الكثيرين، حتى أن الأصدقاء أنفسهم صاروا يلجأون إلى الخصام، بل وإلى الغدر أيضاً. كان الواحد منهم يمر بالآخر فيرفع يده محيياً: «السلام عليكم» ثم يخرج مسديه ويطلق النار عليه. ولم يكن رجال الشرطة يسألون عن الشهود، إذ أنهم كانوا يعتقلون دائماً أقرب الناس إلى القتيل، متهمينه بالقتل، في حين يقف الفعلة متفرجين. وانتهى الأمر إلى الخراب

عندما أطلق رجل النار على دلي إحسان الذي كان الجميع يعرفون أنه من فصيلة أخرى غير فصيلة البشر. ما كادت الرصاصات الثلاث تخترق جسد دلي إحسان حتى تحول إلى نافورة نار هائلة تصاعدت نحو السماء، مبرقة ومرعدة، فاهتزت الأرض وتزلزلت فتساقط الناس فوق بعضهم الآخر، وامتدت النار إلى الأسواق والبيوت فحولتها إلى رماد. ومن النار هبطت قبيلة دلي إحسان، ملائكة موت فوق الخيول والدراجات البخارية، منزلة الدمار بالمدن، الواحدة بعد الأخرى. ولم ينته هذه الهجوم الذي ما توقعه أحد إلا بعد ثلاثة أيام، عندما بسطت قوة عسكرية متآمرة أخرى سيطرتها على العاصمة التي هاجمتها طائرات القوة الجوية، منطلقة من قاعدة الحبانية. وألقي القبض على العقيد الأوحد فأعدم بالرصاص ورميت جثته في نهر دجلة.

ولكن إذا كانت القبيلة الهابطة من النار قد انسحبت، مكتفية بالدمار الذي ألحقته بكركوك والمدن الأخرى، فإن العقيد الجديد ألقى خطبة، نقلتها محطتا الإذاعة والتلفزيون، باللغتين العربية والكردية، شتم فيها الذين كانوا يؤيدون عن جهل العقيد الأوحد الذي كان يحتل المرتبة السابعة والعشرين في طائفة إبليس السرية، معلناً نفسه قائداً أوحد، يستمد شرعيته من روحه المحلقة فوق الجبال والأنهار والصحارى، والتي اخترقت الأجيال فاستخلصت جوهر الثورة. ولكنه أضاف بتواضع: «ومع ذلك فإنني بشر مثلكم حتى إذا كان أجدادي من الملائكة»، داعياً الشعب للخروج إلى الشوارع والابتهاج بعودة الرجل الذي انتظرته البشرية طويلاً.

كان الناس الذين شهدوا الدمار الذي ألحقته ملائكة النار بهم قد لجأوا إلى بيوتهم، مرعوبين وأوصدوا أبوابهم وراءهم. ولكن الجنود الذين كانوا يضعون الخوذ فوق رؤوسهم راحوا يكسرون الأبواب بأرجلهم وبنادقهم ويقتحمون البيوت. كانوا يقتادون الشبان ويوقفونهم

أمام جدران بيوتهم ثم يطلقون النار عليهم. وفي مداخل الأزقة والشوراع نصبت المشانق التي كان يتدلى منها المشنوقون. وفي السجون والمعتقلات كانت فرق الحرس القومي القادمة من كل مكان في التاريخ تقيم احتفالات موت لم تخطر على بال أحد من قبل. كانوا يقتادون كل يوم ثلاثة أو أربعة من المعتقلين ثم يذبحونهم ويطعمون الآخرين لحمهم. ولكنهم كثيراً ما كانوا يقيمون حفلات طرب يغتصبون فيها الشبان الأصغر سناً أمام رفاقهم الذين كانوا يرغمون على التصفيق والغناء.

ولم يجد الناس بداً من اللجوء إلى شعاب الجبال والوديان، هاربين من الموت الذي ظل يلاحقهم من مكان إلى آخر، وعاد حميد نايلون مرة أخرى إلى مقاتليه ليقود ثورة ما عاد يؤمن بها. ولجأ الشيوعيون الأحياء القليلون مرة أخرى إلى سراديب جديدة أكثر سرية، بعد أن طالت الاعترافات سراديبهم القديمة. وحاصر الجند البرج الذي كان يقيم فيه الشيوخ الثلاثة، ثم أغلقوا بابه ونوافذه بالاسمنت فتحول إلى قبر. ومثلما غاب الكثيرون غاب برهان عبد الله أيضاً حتى اعتقد الناس أنه ربما كان قد قتل ودفنت جثته في مكان ما على عجل داخل مقبرة جماعية ما. كان قد غاب هكذا ببساطة حتى لكأنه لم يكن موجوداً ابداً. ومرت سنوات كثيرة بدون أن يظهر له أي أثر. وانتشرت إشاعات تقول أن الجنود قتلوه عندما قذفهم بقنبلة مولوتوف في محلة بيريادي، وادعى آخرون أنه قتل أثناء هجوم شنه مع آخرين على وزارة الدفاع في بغداد، وجاء من يقول إن طائرة أطلقت النار عليه فأصابته عندما كان يحاول اجتياز الحدود إلى تركيا. ورغم أن أمه كانت قد سمعت هذه القصص كلها، إلا أنها لم تصدقها قط. فقد ظلت تقول: «إنني أثق بقلبي أكثر مما أثق بأقاويل الناس. أعرف أن ابني ما زال حياً. كل ما في الأمر هو أنه غائب، وسوف

يعود ذات يوم». ولكن برهان عبد الله ظل غائباً حتى اختفى ذكره في محلة جقور التي انكفأت على نفسها أمام مواكب الغزاة التي كانت تجتاحها بين الحين والآخر، تاركة جروحاً لا تندمل في قلبها المنطفىء.

الفصل الثاني عشر

كل شيء هدأ فجأة. صفرة غير معهودة تلبد السماء. أهي النهاية أم البداية؟ عاد برهان عبد الله الذي أضاع نفسه بين المدن والقارات، بين أزمنة الموت وأزمنة الحياة مرة أخرى إلى مدينته التي لم تعد بالنسبة له سوى ذكريات مقذوفة في الزمن. كان قد أصبح عجوزاً يتكىء على عصاه ويعتمر قبعة رمادية تغطي صلعته بعد ستة وأربعين عاماً قضاها وهو يتنقل من مكان إلى آخر، من مطار إلى مطار، ومن مدينة غارقة في الضباب إلى مدينة تبرق الشمس فوق معابدها. هل مرت عليه ستة وأربعون عاماً حقاً؟ كان يشعر أنه قد غادر مدينته أمس فقط فلم يمر عليه سوى يوم واحد فقط. لم يكبر أبداً، لأنه ما امتلك زمناً آخر غير زمن ذكرياته. ومع ذلك كانت قد مرت عليه ملايين، بل ومليارات القرون. مرت به الأبدية كلها، تاركة آثارها في جسده النحيل، ولكن بدون أن تمس روحه التي ظلت معلقة في ما وراء جوهر الأشياء. كانت أسنانه قد تساقطت ولم يعد في رأسه سوى القليل من الشعر الذي كان يتدلى من الأطراف ويداه تغضنتا وبانت عروقهما. من وراء نظارته الطبية رأى العدم وما قبله، الذرة المعتمة الأولى التي انفجرت فملأت الكون مجرات وشموساً: «يا إلهي، لقد كنت هناك أيضاً». واستغرب أن يكون مقيداً، هكذا بيدين ورجلين وجذع ورأس وعينين وأذنين وأنف، هو المنحدر من العتمة والنور. وفكر: «أية لعبة هذه، أن أكون كل شيء وألا أكون شيئاً». وبدا له الأمر فكاهياً تماماً وجاداً حتى اللعنة. رفع يده ونزع نظارته التي

مسحها بخرقة كان قد أعطاها له صانع نظارات في شارع شونهاوسر آليه في برلين: «هذه اليد التي تتحرك من تلقاء ذاتها، حتى بدون محرك، ينظم قدراتها، تكاد تشبه سمكة». كانت سمكة بصورة ما. وخطر له أنه ربما كان قد قرأ ذلك في مكان ما، في إعلان ملصق على جدار، أو رواية بوليسية. لا يهم أين حدث ذلك كله، فما يحدث يحدث بحكم العادة. البشر هم هكذا دائماً. الأفكار موجودة دائماً. كل ما يحتاجه المرء هو أن يرى حتى تكون له أفكاره. وكان هو يرى. فقد تعلم في أعوام نفيه الطويلة فكاهة الرؤيا أو ما كان يسميه «تناقض المعنى». كان يرى الحياة كلها مقطرة في أصابعه المنفرجة، بعقدها البادية مثل أصابع روبوت في معرض. ولكنها حياة تتجه إلى الموت. على مر الأجيال كان الناس يولدون ثم يموتون. بعد مئة عام على الأكثر لن يكون هناك أحد من الذين نعرفهم الآن. سيكون هناك آخرون، لن نعرفهم أبداً، عمال وعاهرات وكتاب ورسامون وقادة وحكام وجنود. ولكن ما الذي يهمني منهم إذا لم أكن موجوداً؟ كلا، ربما ظللت موجوداً كذكرى أو كحركة خفية في هذه الحفلة الفكاهية التي تدعى الحياة.

كان قلب برهان عبد الله قد انطفأ ومع ذلك ظل حياً، لأنه لم يكف لحظة واحدة عن الأمل في العودة إلى مدينته التي هرب منها. طوال ستة وأربعين عاماً ظل يجلس اليوم بعد الآخر في غرفة في مدينة بعيدة ويستمع إلى نشرات الأخبار، لعله يسمع شيئاً ما عن مدينته. كان هناك الكثير الذي يقلقه. فعلى مدى هذه الأعوام كانت الانقلابات تتوالى. دكتاتور يعقب دكتاتوراً آخر. وأخيراً اختفى البشر من المدن والشوارع بعد أن خرج الموتى من مخابئهم واحتلوا كل شيء. طوال ستة وأربعين عاماً ظلت الحروب مشتعلة بينهم أو ضد الآخرين. كان الموتى القدامى يكرهون الموتى الجدد وموتى القرن التاسع عشر

يكرهون موتى القرن الثامن عشر. وظهر نظام جديد، جعل الكثيرين منهم يلجأون إلى العنف. فقد منع الموتى الذين كانوا يعتبرون أنفسهم متحضرين رفاقهم من موتى العصور الأولى للبشرية، بل وحتى موتى العصر الحجري والعصر البرونزي من مخالطتهم، بدعوى أن هياكلهم العظمية هي أقرب إلى القردة منها إلى البشر، بل إن ثمة من اعتبرهم قردة، لا علاقة لهم بالبشر. وبسبب هذا الصراع الذي تسبب في جرائم كثيرة، حيث كان الأموات من الطرفين يهاجمون بعضهم بصفائح النفط أو البنزين ويشعلون النار فيه، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لقتل الموتى، ظهرت مذاهب موتية، تدعو إلى المساواة المطلقة بين الأموات، فالميت لا يملك سوى امتياز كونه ميتاً، وهذا وحده كفيل بأن يضمن وحدة الموتى وتآخيهم. في الواقع إن هؤلاء الموتى أظهروا شيئاً من الحكمة أيضاً، إذ أبقوا على كثير من الأحياء، حتى لا يوقفوا الرافد الذي يمدهم بقوى متجددة كل يوم. فقد كان من سوء حظ الأموات أنهم غير قادرين على التناسل، ولذلك لم يكن بد من الاعتماد على الأحياء الذين كانوا يتناسلون وينجبون ويكبرون ثم يموتون، منضمين إلى الجيش الأكبر للبشرية: الأموات الأبديون.

ومع ذلك لم يفقد برهان عبد الله الأمل في العودة ذات يوم إلى مدينته، ليلاقي الأحياء الأخيرين الذين ما فقدوا الرغبة أبداً في الحياة. لم يكن خائفاً من الموت، بقدر ما كان خائفا من أن يكون واحداً من الموتى، ولذلك أوصى بأن تؤخذ جثته إلى المحرقة ويذر رمادها في نهر دجلة. ولكنه كان يعرف أيضاً أن الإنسان لا يموت إلا عندما يفقد الأمل في الحياة، ولم يكن هو قد فقد هذا الأمل، وما كان بمقدوره أن يفقده. كان يستيقظ في الصباحات في منفاه الذي

أمضى فيه ستة وأربعين عاماً ويحدق من نافذة غرفته في الثلوج البيضاء المتكومة في الشوارع وعلى أسطح البنايات: كل شيء ناصع وأبيض، يضيء ملتمعاً وثمة غربان سود تحلق هنا وهناك، ترتفع عالياً في الجو ثم تهبط تنقر الثلج، باحثة عن قطعة خبز أو حبة قمح، لا وجود لها. كان قد عرف كل صباح وكل مساء. طوال ستة وأربعين عاماً انتقل من مدينة إلى مدينة ومن شارع إلى شارع ومن مقهى إلى مقهى. رأى مدن العالم كلها. في أفريقيا صار محارباً مع قبائل الزولو وفي زنجبار اقتات أعواماً على البهارات. في اليمن انضم إلى حلقة للذكر في الجامع الكبير بصنعاء وأصبح دليلاً للمكتشفين الذين كانوا يقطعون الربع الخالي على الجمال. عمل طباخاً في باخرة ألمانية، كانت تنقل الشاي من سيلان. قاد ثورة الطلبة في باريس حتى بدون أن يشير أحد إلى اسمه. وفي لندن عمل مرافقاً لأثرياء الخليج بين المستشفيات ومراقص سوهو، ثم سكرتيراً لعالم فلكي كان يقرأ الأبراج ويقيم حلقات روحانية بالهاتف ويكشف الغيب. وفي مكة شكل عصابة دولية من النشالين لسرقة الحجاج، ثم هرب إلى نيويورك بجواز سعودي مزور، حيث أقام عاماً أو بعض العام في أحد أنفاق تمثال الحرية. ولما ضاقت به الأرض عاد مرة أخرى إلى أوروبا، حيث اختار أن يكون مترجماً بالقطعة في مؤسسة كانت تملك بناية تكاد تكون ملاصقة لجدار برلين. في كل مرة كان يفقد كتبه وأثاثه، يتركها فلا يعود إليها أبداً. ولكنه ما تخلى قط عن الراديو الترانسستر الذي كان يحمله معه، وهو راديو أسود اللون من صنع شركة سيمنس الألمانية بثماني موجات قصيرة. كان يجلس اليوم بعد الآخر ويبحث في الإذاعات عن خبر، يعيد إلى قلبه حياته المطفأة. كل حرب كانت تعقبها حرب أخرى في وطنه. كانت الحروب تتداخل أحياناً حتى ليصعب على

المرء أن يفرق بين حرب وأخرى. حروب بين الأموات وحروب بين الأحياء. حروب في الجبال، حروب في المدن، حروب في الأهوار وحروب في الصحارى.

ومع الحروب كان كل قائد جديد، يمسك بالقائد الذي كان قبله ويذبحه، مطعماً لحمه لحاشيته التي كانت تأكل حتى الحجر، غير آبهة بعسر الهضم الذي كانت قد أصيبت به. وبين حين وآخر كانت المهرجانات تقام لتخليد آثار الحاكم الجديد. كانت لكل منهم لغته التي تختلف عن لغة الآخر، حتى أنه أصبح من مألوف العادة أن تؤلف الكتب عن عبقرية استخدام اللغة عند هذا الحاكم أو ذاك. وكان لكل منهم عاداته الخاصة به. كان بعضهم يأكل الخس مسلوقاً وبعضهم يرش السكر فوق طعامه. وقد بلغ من فساد ذوق أحدهم أنه كان يدخن سيجاره نائماً، حتى أصبحت عادة ملازمة للشعب كله. كانوا جميعاً أنصاف آلهة، وهذا أمر كان مفهوماً بصورة ما حتى جاء من احتقر هذه العادات الوثنية، معلناً أن لا إله إلا الله. وكان هو الله بالطبع. كان برهان عبد الله يذهب كل يوم تقريباً إلى المقهى، يتناول فنجاناً من القهوة ويدخن، منتظراً أحداً ما، قد يأتي صدفة وينقل إليه خبراً ما عن مدينته البعيدة. كان يلتقي أحياناً بعضاً ممن كانوا هاربين مثله، مصغياً إلى كلماتهم التي كان قد حفظها عن ظهر قلب. فقد فقدت حتى الكلمات معناها مع الزمن. وعندما كان يتحدث هو ما كان يخاطب أحداً سوى نفسه مثلما كان يفعل دائما. كان موجوداً في ماضيه، ترهقه ذكرياته، إلا أنه كان يكره أن يكون راوي ذكريات مثل شيخ يضحك جمهوره. كان يسأل أحياناً: «هل ثمة أخبار جديدة من الوطن؟» وكان الآخر يجيب بشيء من القلق «لا بد أنك سمعت الأخبار. لقد لجأوا مرة أخرى إلى ضرب بعضهم الآخر بالقنابل الذرية. هذه هي القنبلة الثانية التي تنفجر خلال أسبوع». وكان يقول:

«أجل لقد سمعت ذلك. لقد ضربت البصرة. أليس كذلك؟» ما كان يهمه كثيراً معرفة الجواب، فقد كان يعرف أن الموت في كل مكان في بلده البعيد. قبل أعوام كانوا يضربون بعضهم الآخر بالقنابل الكيمياوية. أما الآن فقد انتقلوا إلى القنابل الذرية. وكان يتساءل: «لا فرق بين أن يموت المرء برصاصة أو طلقة مدفع أو صارخ أو قنبلة ذرية»، مردداً مع نفسه شطراً من بيت ناقص: «تعددت الأسباب والموت واحد». كانت العاطفة غالباً ما تتملكه حتى ليكاد يبكي، ولكنه كان يدير وجهه ويمازح النادلة الألمانية كورنيليا: «كوني، هل لك أن تجلبي لحبيبك فنجاناً آخر من القهوة؟» فترد عليه مؤنبة: «أنت تعرف أنني لا أحب سوى الشبان أيها الميت الهارب من المقبرة». هل كان ميتاً هو الآخر بدون أن يدري؟ أبداً، أبداً. وكان يرد عليها: «لو قبلت زيارتي مرة واحدة لاختصرت لك الحياة كلها في ليلة»، فكانت تقول له متأملة: «ربما فعلت ذلك ذات يوم، أنت تغريني حقاً».

ولكن كل ذلك انتهى الآن، مثل لعنة انفك سحرها. إستيقظ ذات صباح فسمع الخبر الصاعق الذي استقبله ببرود حتى لكأنه ليس حقيقياً. كان قد فقد منذ زمن بعيد كل فرح، لطول ما انتظره، مثل رجل لم تعد تهمه حتى الخسائر. شعر لأول مرة في حياته أنه قد تحرر من كابوس إلتهم حياته كلها. وأصغى مرة أخرى إلى الإذاعات التي كانت تنقل أخباراً وتقارير مطولة عن الموتى الذين استسلموا في النهاية أمام الأحياء الذين أقاموا محارق في كل محلة ومدينة للموتى الذين ما عادوا قادرين على الموت. كانوا يقفون في صفوف طويلة أمام المحارق ويقفزون في النار المتقدة. لقد انتصرت الحياة في النهاية على الموت. خلال أسبوع واحد ما عاد ثمة أثر لميت في وطنه.

في مقهاه الواقع بساحة الكسندر بلاتز في برلين رأى لأول مرة منذ

ستة وأربعين عاماً ملائكته، الشيوخ الثلاثة القادمين من الأبدية، حاملي الربيع داخل أكياس من قنب على أكتافهم. كانوا يسيرون هذه المرة فوق السهوب المتموجة الممتدة حتى ضواحي مدينة كركوك. ابتسموا له بمودة وعاتبوه، قائلين: «ما كان ينبغي لك أن تغيب عنا كل هذا الوقت». وفتح برهان فمه بصعوبة: «ما اعتقدت أن ثمة ربيعاً ينتظر جقور. بدا لي أنكم لم تكونوا سوى وهم، اختلقته لنفسي». وردد الرجال الثلاثة: «ما كان ينبغي لك أن تفعل ذلك يا برهان. ألا ترى أننا اقتربنا من محلة جقور أخيراً. نريدك أن تكون دليلنا عندما نصل». وسمع كورنيليا تقول وهي تضع أمامه فنجاناً آخر من القهوة: «يبدو أنك لم تنم جيداً الليلة الماضية». وفتح عينيه مرة أخرى: «حقاً، إن هذا يحدث دائما». من وراء زجاج المقهى ألقى نظرة إلى الشارع، حيث كان الناس يهبطون إلى نفق القطارات التي تقطع المدينة أو يصعدون منه. «ترى إلى أين يذهبون؟». لم يكن يهمه أن يعثر على جواب عن سؤاله. قال: «إنهم يأتون من كل مكان ويذهبون إلى كل مكان. أما أنا فسوف أتبع ملائكتي الثلاثة، أولئك الذين ما وصلوا إلى جقور أبداً».

كان الآن في طريقه إلى كركوك، داخل سيارة أجرة، احتل مقعدها الأمامي. على بعد مسافة من المدينة أوقف السيارة وهبط منها. كان خائفاً من المفاجأة وخجلاً من نفسه. فكر أن يعود مرة أخرى من حيث جاء ولكنه رأى المدينة تمتد أمامه في الغروب، بعيدة ومرمية مثل طائر خرافي. صعد تلة قريبة وجلس فوق ترابها الأحمر الذي نمت فوقه الأعشاب، وقد امتلأ صدره بتلك الرائحة القديمة التي طالما شمها في طفولته. كان مخنوقاً بحزن غيابه كله «لماذا توجب عليك أن تغيب كل هذه السنين يا برهان؟ لم يطردك أحد. كل ما في الأمر هو انك خفت من الموت فهربت، تاركاً لآلئك للكلاب. ولكن

كل ذلك انتهى الآن. انتهى العمر الذي أضعته في مدن العالم المقفولة على نفسها. انتهى كل شيء. وها أنت تعود، حاملاً في قلبك شيخوختك إلى مدينة ما عرفتك إلا طفلا». كان عاجزاً حتى عن البكاء.

في الظلمة التي هبطت فوق المدينة البعيدة غادر برهان عبد الله التلة، متجهاً نحو منارات تلتمع أهلتها تحت سماء حمراء. كانت خطواته ثقيلة، ولكن عينيه ظلتا مشدودتين باللهب البعيد المتقد. خوض في جداول مغطاة بالعشب واجتاز بساتين ما كان قد عرفها من قبل. خطوة بعد أخرى أصغى إلى الريح، تهب بين أوراق الأشجار. مدينة مكومة فوق نفسها. كتلة مجهولة، تتنفس حياة، حتى لكأن ما صار يسمعه زمجرة تسمع من قعر بئر. هذه هي إذن مدينته القديمة التي مر بها الغزاة وتركوا أثارهم فوق حجارة بيوتها. أتراها ماتت وانتهت مثل الأشياء الأخرى كلها؟ كانت خطواته تشق عتمة ما شاهد مثلها قط من قبل، عتمة تتحد بلون السماء فتميل إلى زرقة مبقعة بغيوم حمراء، وتنحدر فوق الأرض فتكون مثل بلور يخترقه البصر. طوال ستة وأربعين عاماً ما كتب رسالة إلى أحد في مدينته أو استلم رسالة من أحد. أراد أن يظل غائبا هكذا مثل أي شيء آخر، يختفي فلا يترك وراءه أثراً. كان متأكداً تقريباً أن جميع الذين عرفوه قد ماتوا. من يمكن أن يصمد أمام الموت ستة وأربعين عاماً؟ من يمكن أن يجمد الزمن؟ كان يشق طريقه بعصاه في الليل مثلما شق موسى بعصاه طريقه في البحر. وانتبه لأول مرة إلى نباح الكلاب، قادمة من قلب الكتلة السوداء مصغياً إلى صمتها المحزن، ذاك الذي عرفه، وهو نائم في العراء فوق سطح بيت أهله في محلة جقور. «لم يبق أحد في مدينتي، فماذا أفعل بالشوارع والبيوت؟» فكر أن يعود أدراجه «ما كان ينبغي لي أن أعود وأن أسترجع هذا الألم كله». ثم تماسك نفسه «كل ما في

الأمر هو أنني أصغيت لقدري قبل ستة وأربعين عاماً، وها أنذا أصغي إليه مرة أخرى». وكان يعرف أنه لم يعد ثمة ما يخسره بعد أن خسر العمر كله. وأخذ جسده يهتز ويرتجف وهو يضرب الظلام برجليه الثقيلتين. «لا أحد ينتظرك هنا، لا شيء سوى ذكرياتك. لن يعرف أحد حتى إسمك». وشعر بارتخاء في رأسه فجلس على الأرض وأجهش بالبكاء ممتلئاً بسعادة، تنبع من مصب للحزن.

ظل جالساً هناك، محدقاً في قوس الضباب والدخان الملتف على نفسه حتى شعر بالنعاس يغلق أجفانه فغفا مسنداً رأسه إلى حقيبته اليدوية الصغيرة التي كان قد حشاها بقميص أو قميصين وبيجامة وفرشاة أسنان وأدوات حلاقة ودفتر مذكراته. عندما استيقظ شعر ببرودة الفجر تلسعه. كان ذلك أشبه بحلم رآه في مكان آخر لا يتذكره. شعر أن هذا الأمر يحدث معه للمرة الثانية. وكان بصورة ما يعرف ما ينتظره. هل كان حقاً هنا؟ هل عاد قبل الآن أيضاً إلى هذه المدينة الواقعة في البعيد؟ هل قطع الطريق نفسها؟ هل دخلها مثل لص في الليل؟ لا يعقل ذلك. ولكنه كان يعرف أنه كان هنا. فشعر بغصة في حلقه. كانت ثمة مرارة يتذوقها كل مرة بلسانه. إنه الربيع إذن. كانت العصافير المبكرة تحلق من مكان إلى آخر، مزقزقة مع خيوط الشمس الأولى «يا إلهي، إنه الربيع الذي طالما حلمت به والذي لم أجده في أي مكان آخر في العالم». أخرج لفافة تبغ من العلبة التي يضعها في جيبه. أشعلها وارتشف عميقاً الدخان الذي شعر أنه قد مس قعر رئتيه قبل أن ينفثه ثانية. أحس بخدر لذيذ في جسده. كان الطبيب قد أوصاه «لا تدخن قبل تناول الفطور على الأقل». ولكن ماذا يهم ذلك الآن؟ إن المرء سيموت في يوم ما، سواء دخن أم لم يدخن. وكان سيان عنده أن يعيش مئة عام أخرى أو أن يموت بعد مئة يوم. ها هو الربيع الذي حمله الشيوخ الثلاثة الذين طالما نادوه وتحدثوا إليه يتفجر مرة

أخرى فوق مدينته. لا بد أنهم قد وصلوا الآن. لا بد أنهم قد فتحوا أكياسهم فاندلق منها الربيع. أحس أنه يمتلك مدينته مرة أخرى. النهاية تندمج بالبداية حتى ليصعب فصل إحداهما عن الأخرى مثل نهار يتلاشى في الليل. كان قد وقف أمام حديقة مسورة بسياج طلي بدهان أخضر لم يكن قد جف بعد. شم رائحته، جلس على مصطبة مرمية بين الأشجار، يستجمع قواه، حيث رأى رجلين يسيران في الشارع، كل في الاتجاه الآخر. ضربات أقدام تكاد تكون منتظمة. إنه الربيع حقاً. روائح متداخلة توقظه، روائح ندى قديم وهواء راكد بارد. لم يكن ثمة ما هو حقيقي في ما يراه. كل شيء يشبه الوهم أو ربما يشبه ذكرياته. كل شيء يشبه صوراً تندلق من مخيلة ما، حتى لكأنه في حلم. عينان تريان أشجاراً، ذراعان تمتدان إلى جزيرة يستيقظ فوقها فجر كان يعرفه، فتجفل طيور لا عد لها، تحلق قليلاً ثم تهبط على الساحل. ثمة عمود يرتفع هناك. وامرأة تصعد جبلاً يكاد يلتصق بالسماء، حيث يرفرف على زاويته اليمنى علم تركي ويجلس جنود يأكلون المعلبات أمام مدفع متروك فوق رابية. في الجانب الآخر تبدأ الصحراء. ثمة رعاة يعزفون على مطبق من القصب فيتبعهم أطفال قادمون من الأزقة حتى البحر. ها هي المدينة مرة أخرى. ترتفع الستارة فتطل امرأة عارية على جواد أشهب. تتجول بين فريدريش شتراسه ومحلة المصلى، بين اونتردين ليندن ومحلة جقور. ويقف خضر موسى أمام حفل من الرجال والنساء في لوست غارتين مقابل قصر الجمهورية في برلين ويتحدث عن شقيقيه اللذين ذهبا إلى مكة ولم يعودا. وكانت أمه قدرية تتجول بعباءتها السوداء في السان جيرمان بباريس أو تجلس في مقهى ميلانو بقبرص، محدقة في ندل يقدمون الماء مع القهوة دائماً. وتوقظه رائحة الربيع المسكر. «كل هذا الحنان وأنت تتذكر فتيات آشوريات، ينحدرن من بناية إلى أخرى، مثل ثقب في غيمة». ها هو الفقيه على

حماره الذي انحلت بردعته يتنقل بين القرى، ساكباً من قنينة عطر في يده قطرات ياسمين فوق المروج. «آه، نهار آخر، استيقاظ آخر. كل شيء هنا، كلهم موجودون هنا، الأصدقاء الموتى والأصدقاء الأحياء، الذين أعرفهم والذين أجهلهم. الأشجار، دائماً الأشجار. البيوت الجصية دائماً والضوء الذي يعلم أعلى البيوت. وكالعادة دائماً أنا».

استيقظ من غفوته ومسح وجهه بيديه مثلما يفعل دائماً. أراد أن ينهض ويقصد المطبخ ليضع إناء الماء فوق الموقد قبل أن يدخل الحمام، إلا أنه توقف «لا يوجد مطبخ هنا». وفتح عينيه المثقلتين بالنعاس. كانت كركوك تمتد أمامه، فشعر بالرهبة والقلق. وانتابه شعور ما امتلكه قط طوال الأعوان الستة والأربعين الماضية التي أمضاها متنقلاً بين القارات والمدن، بجوازات مزورة وأخرى حقيقية. اختفى الزمن وتلاشى مثل فقاعة، ترتطم بإصبع تمتد إليها فتنفجر حتى لكأنه لم يغادر مدينته أبداً. فنهض إلى صنبور ماء في الحديقة ووضع رأسه تحت الماء مثلما كان يفعل في حديقة المصلى، كلما مر بها. عندما رفع رأسه وجد ملائكته الثلاثة يقفون مبتسمين أمامه، فاضطرب حتى أنه لم يعرف ما يقوله. كان أحدهم، يحمل بيده منشفة من مخمل حلبي، قدمها له: «خذ ونشف وجهك يا برهان». وتلعثم برهان وهو يقول: «ما كنت أعتقد أن كل هذا حقيقي. ما كنت أعتقد أن كل هذا ممكن». ورد الشيوخ الثلاثة بهدوء: «ما هذا الذي تقوله يا برهان؟»، فاستدرك برهان قائلاً: «لا شيء، لا بد أنني كنت أخرف. الشيوخ هم هكذا دائماً».

ومد أحد الرجال الثلاثة يده إلى جرابه فأخرج حفنة من بذور، نثرها في الجو فاكتست الأرض بالزهور وامتلأت الحديقة بطيور ملونة، حط بعضها على كتف برهان عبد الله ورأسه، وخرجت القنافذ

والأرانب والسناجب من مخابئها وراحت تلهو عابثة بين نباتات، نمت في لحظات. وجفل مذعوراً عندما رأى الحياة تدب في الأسدين الحجريين الواقفين أمام مدخل الحديقة، فظل في مكانه وقد جمد الدم في عروقه وهو يحدق في ملائكته الثلاثة. ولكن الأسدين الوديعين تقدما وجثما تحت قدميه. فقال له أحد الملائكة: «إنه السلام أخيراً يا برهان». كان شيء ما يشبه السحر قد حل فوق المدينة. «هذا أكثر مما توقعته»، قال برهان عبد الله لنفسه. ثم وضع قبعته فوق رأسه. حط عصفور صغير فوقها راح ينقر في ما بدا له حفرة، فضحك الشيوخ الثلاثة الذين كانوا يتشابهون حتى ليصعب التفريق بينهم. ثم قال أحدهم: «سوف يجعل منظرك هذا محلة جقور كلها تغص بالضحك». أضاف الآخر: «حسناً، سوف ننتظرك هناك يا برهان». ووضع الثالث يده على كتفه: «ينبغي أن تدخل محلة جقور وحيداً مثلما غادرتها وحيداً». ثم اتجهوا إلى الجهة الأخرى من الحديقة واختفوا بين أشجار الزيتون التي كانت تخفي وراءها بيوتاً بيضاء من حجر وجص، تلتمع في الضوء.

كلا، لا أطيق كل هذا الحنان. إنه أكثر مما ينبغي، أكثر مما استحقه، هذه النهاية السعيدة التي لا يمكن أن تخطر حتى ببال الله». واختلطت في ذهنه صور ذكريات بعيدة، صور أحلام آسرة حتى البكاء. كان يتفرج من ثقب في باب على امرأة تمشط شعرها وتدلك نهديها بالليمون. وكان ثمة رجل يجلس في مقهى ويعد نقوده خلسة. رجل أمن يترجل من دراجته ويسأل شاباً جميلاً مثل فتاة عن إسمه. شيطان يجلس أمام مائدة في مطعم ممتلىء بالدخان. تلاميذ يهربون من مدارسهم ليقرصوا مؤخرات الفتيات في المظاهرات. «أثمل عادة بعد الكأس الأولى. أرقص حتى أنام على كتف المرأة. وإذ أستيقظ في الصباح أرى نفسي وقد اقتادني الجلاد إلى ميدان ما ليقطع عنقي. لكنه

يتركني عادة وحيداً، ذاهباً إلى المزرعة ليلتهم البقول. يا إلهي لكم كانت أيامنا جميلة، عندما كنا نصطاد الملائكة بين الأشجار ونطارد الشياطين بين الصخور. مرة رأيت طائرة تطلق النار من رشاشة في مؤخرتها على رعاة. رأيت نساء ورجالا وأطفالا عراة في ساحل غريناو في برلين يقيمون مأتماً رمزياً لي. وكان ثمة رجل بعين زجاجية يقرأ في جريدة، تكاد تمس وجهه. أجل، رأيت أم هاملت، تقف أمام الباب، مرتدية ثوباً أسود للسهرة، يكشف عن كتفيها وتوزع الابتسامات على جنود يحملون رؤوسا في أوان برونزية: أهذا هو رأس يوحنا؟ ذاك الذي كان يحرضنا على عصيان الزمن. آه، رأيت مرة نفسي في مصح، وعلى كفي دم».

كان مقذوفاً في الربيع الذي فاجأ المدينة بعد انحباس، مأخوذاً بعواطفه وذكرياته، مثل لوثة لا اسم لها. ها هي كركوك أخيراً، وقد غادرها الأموات حتى لكأنها لم تذق الموت أبداً. لقد اختفوا هكذا، مثلما يختفي أي شيء آخر. دخلوا المحارق فاختفى كل أثر لهم. واغرورقت عينا برهان عبد الله بالدموع، وهو يسير على جسر كركوك الحجري «يا إلهي، إنه ما زال قائماً حتى الآن. لا شيء تغير قط». واستند إلى الحاجز، متأملاً مياه نهر خاصة صو التي كانت تهدر، جارفة معها جذوع أشجار وجثث حيوانات برية، داهمتها السيول وعلباً فارغة. وشم رائحة الطمي فشعر بدوخة لذيذة، كانت تنتابه كلما سار على الجسر في طفولته. وانتبه إلى حوذيين يسوطون خيولاً تجر عربات، يتقافز وراءها صبيان بدشاديش مهلهلة. في نهاية الجسر كانت القلعة التي يرتقيها المرء بسلالم من الجانبين. فكر أن يقصد محلة جقور، صاعداً القلعة ولكنه أراد أن يعبر السوق الكبير، فعرج يميناً، حيث مر بحانوت مركب الأسنان الأرمني. كان الرجل لا يزال يجلس على كرسيه الذي يضعه أمام المدخل على الرصيف. حياه برهان

عبد الله رافعاً قبعته تأدبا فرد الرجل التحية، ناهضاً من كرسيه، مستغرباً رؤية عجوز يعتمر قبعة في مدينة مثل كركوك. ومن وراء الزجاج رأى الحلاق التركماني تحسين يصوبن ذقن رجل متكىء على كرسي بفرشاة الحلاقة. ومر بقفال أعرج، كان يملأ جدران دكانه بصور ممثلات مصريات مثل فاتن حمامة وسامية جمال وشادية. ورأى الصائغ الكردي عبد الصمد يجلس على الأرض، ماداً رجليه أمام منفاخه. وفي الزاوية المؤدية إلى السوق الكبير كان الحمالون ينقلون أكياس حنطة إلى خان كبير، يحاذى معملاً كان يصنع قوالب ثلج كبيرة يحملها الأطفال على أكتافهم. كان الصفارون لا يزالون يطرقون أوانيهم النحاسية والبرونزية. ومر بباعة شاي على الأرصفة، بمطاعم كباب وحوانيت تبيع كل شيء. وأسكرته رائحة كركوك القديمة، تلك التي يختلط فيها كل شيء فتشكل مزيجاً ينفذ إلى الرأس قبل الرئتين.

لا شيء تغير، سوى أن الألوان ازدادت سطوعاً ولكنه تنبه مأخوذا إلى كلاب تداعب قططاً، ناسية عداءها الغريزي، وغربان تدخل الدكاكين ولقالق تهبط من فوق المنارات وتقف على الأرصفة. وكان أسدا الحديقة الحجريان يتبعانه مثل حارسين وديعين. بيد أن ما كان يهمه ليس الأسود وإنما محلة جقور التي لم يعد ما يفصله عنها سوى القيصرية، ذات الرائحة العطنة والتي كان لا يزال يحفظ جميع ممراتها عن ظهر قلب. ولكنه ما كاد يجتاز القيصرية ويطل على الزقاق الذي تبدأ منه محلة جقور حتى بوغت بما لم يخطر في باله قط.

كانوا جميعاً يقفون هناك ينتظرونه، حاملين الورود. إنها الوجوه القديمة عينها، حتى لكأن الزمن لم يؤثر فيها. عانقوه واحداً بعد الآخر. كانت هناك أمه التي بدت أكثر شباباً منه ووالده الذي ارتدى ملابسه العربية. كان هناك حميد نايلون الذي ألقى على عادته خطبة فكاهية وعباس بهلوان الذي شهر مسدسه وأطلق النار في الهواء

واللص محمود العربي الذي أهداه مفتاحاً، يفتح جميع الأقفال. وقرع الطبالون على طبولهم، بينما نثرت النساء الملبس والشوكولاته والنقود فوق رؤوس الحشد. «يا إلهي، كيف عرفوا بعودتي فأنا لم أخبر أحداً بذلك». تساءل برهان عبد الله مع نفسه «لا بد أن ملائكتي الشيوخ هم الذين فعلوا ذلك، إذ لا أحد غيرهم كان يعرف بعودتي». وقد تأكد من الأمر عندما رأى الشيوخ الثلاثة يسيرون وسط الحشد المتدافع. وافتقد برهان عبد الله خاله خضر موسى الذي أغلقت عليه منافذ البرج مع درويش بهلول ودده هجري، فدفنوا أحياء. طبول تقرع ونساء ملفعات بعباءات سوداء يهلهلن ودراويش يطعنون أجسادهم بالحراب. هو ذا الحاج يعود من سفره الطويل إلى مكة، وقد نسي مشقة الطريق. انتهت أزمنة الموت التي اجتاحت جقور واستعادت الوجوه براءتها الأولى. انتهت اللعنة التي حلت بالمدينة فاحتبس الربيع ستة وأربعين عاماً. لقد وضعوا الأغلال أخيراً في يدي الساحر الشرير، ربطوه بصخرة ورموه في النهر. «ما كان ينبغي لك يا برهان أن تفقد الأمل. ملائكتك علمتك مذ كنت يافعاً أنها تحمل ربيع الأبدية في أكياس من قنب إلى جقور، حيث لا توجد حدود حتى للذكريات. الأسى؟ ما من أسى أسوأ من أسى قلب ينتظر. ما من أسى أشق من حنين الجنين الساقط إلى رحم أمه. الانتظارات كلها انتهت، انتظارات حياة سائبة، انتظارات نزهات بلا هدف، انتظارات قطارات تحت الثلج، انتظارات أصدقاء في المقاهي. كل ذلك انتهى الآن. فقد عاد الجندي من الحرب. كلهم يعودون، الأصدقاء الأحياء والأصدقاء الأموات عندما يندلق الربيع فوق الأرض.

في اليوم التالي قصد برهان عبد الله البرج الذي دفن فيه خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري. فقد ظل طوال الليل، وهو في بيت أهله، يفكر في الرجال الثلاثة الذين نسيهم الجميع «ينبغي أن

يدفنوا بطريقة لائقة على الأقل». بالمعول الذي كان قد جلبه معه راح يضرب الباب المبني بالاسمنت، فتداعى الجدار الرقيق الذي كانت الرطوبة قد تركت أثارها عليه وتفتت. وانكسر القفل فدفع الباب برجله، غير آبه بالألم الذي كان يرج جسده. كان يعرف أنه سوف يعثر على هياكل عظمية لثلاثة رجال، دفنوا أحياء، وهو مشهد لم يفارقه طوال الأعوام التي أمضاها بعيداً عن مدينته. لا بد أنهم ماتوا الواحد بعد الآخر. فكر في الكلمات الأخيرة التي ربما كانوا قد تبادلوها. ليس أسوأ من أن يدفن المرء حياً، ذلك هو الشر المطلق.

انفتح الباب بعض الشيء. وسط الغرفة كانت ثمة شمعة مضيئة، تلقي بظلالها فوق الجدران. دفع برهان عبد الله الباب بيده فانفتح أكثر مما مضى. ظل واقفاً هكذا لا يجرؤ على الدخول. كان ثلاثة رجال يجلسون هادئين، متكئين على وسائد بيض ويدخنون. قال أحدالرجال الثلاثة: «لماذا تقف هكذا يا برهان؟ هيا ادخل». ودخل برهان عبد الله، مفعماً بالحزن والرهبة ومأخوذاً بالمشهد الذي لم يتوقعه. وسمع صوتاً يقول له: «ألا تأتي لتسلم على خالك خضر الذي انتظرك كل هذه الأعوام؟». أغمض برهان عينيه ثم فتحهما. كانوا يجلسون هناك مثلما تركهم. كان خضر موسى يلعب الشطرنج مع درويش بهلول بينما كان دده هجري ينحني جالساً فوق دفتر كبير أسنده على وسادته، ناقلاً على الورق ما كان يبدو أنه آخر قصائده. وقف برهان عبد الله مشدوهاً ولكن ممتلئاً بالغبطة. لم يجد ما يقوله، فقد انطفأت فوق شفتيه الكلمات. ثم وجد نفسه يطلق ضحكة مدوية مثل طفل يلعب بالسعادة.

ولكن هذه السعادة الغامرة التي ملأت قلبه لم تعمر طويلاً. فقد استيقظ ذات يوم صباحاً فوجد أن الربيع قد انطفأ مثل نار تتحول إلى رماد«يا إلهي، هل كان كل ذلك وهماً هو الآخر؟». كان الهواء قد ركد واصفرت السماء مرسلة أشعة صفراء مريضة. لم يعد يسمع زقزقة

العصافير أو حفيف الريح. كل شيء ساكن، كأن موتاً ما قد حل فوق المدينة. كان يتنفس بصعوبة. ارتدى ملابسه وخرج إلى الشارع بعد أن انتابه قلق طالما فكر فيه في أعوام نفيه الطويلة: كان يفتح عينيه فيعثر على جثته حيث آخرون يبكون عليه وهو لا يستطيع أن يصرخ بهم «لماذا تبكون؟ إنني لا أزال حياً». كان حياً وميتاً في الوقت نفسه حتى من دون أن يكون قادراً على إزالة هذا الالتباس. في الواقع أنه ما كان يطيق السعادة. فقد تعلم أن السعادة تخفي وراءها دائماً التهديد بضياعها، مثل زجاجة قد تسقط على الأرض فتنكسر. وما كان يريد أن ينكسر.

في الأيام الأولى التي أعقبت عودته إلى جقور امتلأ بسعادة، تكاد تكون حلماً. فقد تغير العالم فجأة. هبط الربيع الذي انحبس أعواما طويلة عن المدينة فوق الأرض فإذا بها تشتعل خضرة، واستعادت جذوع الأشجار التي أحرقتها الشمس الساطعة نضارتها فأورقت وأزهرت مادّة أغصانها إلى كل مكان، وتشابكت فروعها، مشكلة ممرات لا أول لها ولا آخر، يتخللها الضوء فتنعكس منها ألوان مغسولة بالضباب، تكاد تكون صورة أخرى من الطبيعة في الأيام الأولى لخلقها. غادرت الذئاب أوجارها وقصدت المراعي، حيث راحت ترعى العشب سوية مع الأغنام، بينما الرعاة يجلسون على الصخور المتروكة في البراري ويعزفون الناي. وراحت ليلى تعود إلى جدتها في الغابة فيفتح لها الذئب الباب ويطهو لها الحساء ثم يقبع قدام سرير السيدة الجدة ويستمع إليها مبتسماً، وهي تروي لليلى حكاية عن ذئب شرير كان يأكل الجدات ويعصب رأسه بمنديل، ثم يدس نفسه في الفراش، منتظراً فتيات صغيرات، يقطفن الورود في الغابات. وغادرت الأسود والنمور والفيلة والثعالب والضباع وبنات آوى والقردة والأيائل والغزلان وألاسقنفورات وأكلة النمل والبواشق

والبطارق والتوابير والخراتيت مخابئها، عائدة إلى المدن التي كانت قد طردت منها، مقدمة عروضاً فكاهية مجانية لتسلية الأطفال الذين كانوا كثيراً ما يمتطون ظهور الأسود أو يتعلقون بمخالب النسور التي كانت ترتفع بهم عالياً في الجو، فيجلسون فوق الغيوم قبل العودة ثانية إلى الأرض. ولكن أكثر ما كان يفرحهم هو مشهد الأفاعي ذات الأجراس التي كانت تنتصب فتعزف موسيقى يرقص على إيقاعها الرجال والنساء.

طوال الأيام التي أمضاها برهان عبد الله في جقور ما تخلى أبداً عن الشعور بأن ذلك كله لا يمكن أن يكون حقيقيا. ولكنه كان حقيقياً إلى الحد الذي جعله يبكي من فرط السعادة. فقد تفجرت الأرض فجأة ينابيع، راحت تتدفق حليباً وعسلاً، كان الناس يأتون فيغرفون منها ما يشاؤون. وامتلأت جقور بمتاجر وحوانيت مفتوحة ليلاً ونهاراً، بدون باعة، ممتلئة ببضائع الأرض كلها. كان الناس يقصدونها فيأخذون ما يحتاجونه ويخرجون. لم يعد أحد يفكر في النقود التي راح الناس يرمونها في المزابل، ساخرين من الزمن الذي كان يمكن للإنسان فيه أن يجوع ما لم يملك أوراقاً ملونة يحشو بها محفظته. ونزعت نساء وفتيات محلة جقور عباءاتهن ولبسن بنطلونات الجينز التي كن يثقبنها متعمدات، في مواضع تثير شهية الرجال. ثم استبدلنها بثياب قصيرة تكشف عن سيقانهن الممتلئة. بل إنهن رحن يسبحن عاريات على شواطىء البحيرات الكثيرة التي ظهرت في برية المصلى أو يتمددن على بطونهن فوق العشب، قارئات رواية بوليسية أو ديواناً من الشعر. وكان العجوز برهان يمر بهن، متنزهاً فيرفع قبعته، محيياً حتى اللواتي لم يكن يعرفهن. «يا إالهي، لكم تغير الزمن! أهذه هي محلة جقور؟». وكانت الفتيات المزهوات يرفعن رؤوسهن ويتهامسن: «إنه العجوز العائد من المنفى». وكان هو يبتسم،

غير آبه حتى بشيخوخته التي كانت تضفي عليه مسحة من وقار ما امتلكه قط. ورغم أن الناس كلهم اقتنوا ربما بحكم العادة، سيارات مارسيدس وفولفو بل وحتى سيارات رولس رويس وجاكوار، أوقفوها في الباركات القريبة من بيوتهم وألصقوا على الأجزاء الأمامية منها نعال خيول، لإبعاد الحسد، فإنهم صاروا يفضلون ركوب الدراجات الهوائية أو القطارات التي تسير تحت الأرض، قاصدين الغابات القريبة من المدينة، لتزجية الوقت الكثير الذي كانوا يملكونه، إذ لم يعد أحد منهم مرغماً على العمل. كان ثمة دائماً عمال مجهولون، ربما كانوا روبوتات مصنوعة في اليابان تقوم هي من تلقاء ذاتها بإدارة كل شيء وتنظيمه. ولذلك انصرف الكثير من الناس إلى نظم الشعر وكتابة الروايات الخيالية والرسم والرقص، حتى لكأنه ما من شيء آخر في الحياة سوى الفن. وأغرق الشبان والشابات أنفسهم في الحب، ممتلئين بعواطف كانت تجعل عيونهم ترتخي وتفيض رقة وحناناً. والأكثر من ذلك أنه ما عاد أحد يموت. فقد انتهى الموت من تاريخ الناس حتى لم يعد أحد يفكر فيه. هذه الحقيقة التي انكشفت فجأة أمام عيني برهان عبد الله جعلته يفكر باضطراب، أقلقه «إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا في الجنة». ولكنه كان متأكداً أنه في محلة جقور وأن كل شيء حقيقي. ففكر «لقد تغير الزمن، وهذا كل ما في الأمر. لا ينبغي لي أن أكون شكاكاً إلى هذا الحد». ولم يدرك سر هذا التحول إلا عندما قصده ذات يوم خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري في الغرفة التي كان يسكنها في بيت أهله، قائلين إنهم جاؤوا ليشربوا الشاي معه، وهو شاي كانت تعده أمه بالهيل وتخلطه ببعض الأوراد البرية الجافة. وإذ كانوا يحتسون الشاي، ماضغين مكعبات السكر بعد كل رشفة على عادة الشيوخ، أخرج درويش بهلول من عبه دفتراً كبيراً، ذا غلاف أسود وقدمه إلى برهان عبد الله: «خذه. إنه

هديتي إليك. لم أعد أحتاجه. فقد فقدت مهنتي كما ترى». وعلق خضر موسى ساخراً «لا شيء أفضل من التقاعد. لقد شخنا يا برهان». وهز دده هجري رأسه قائلاً: «من الصعب على المرء أن يتحمل العذاب الذي عاشه درويش بهلول حتى الآن. ينبغي أن يكون للمرء قلب من حجر حتى يقبل بما كان قد أوكل إليه». واستغرب برهان عبد الله هذا الحديث الذي بدأ له ملغزاً، فقال: «لا أكاد أفهم شيئاً مما تقولون». إذ ذاك تدخل دده هجري، قائلاً: «ذلك لأنك لم تفتح دفتر درويش بهلول، لتلقي نظرة على ما فيه». وانتبه برهان عبد الله لأول مرة إلى الدفتر فقلب أوراقه كيفما اتفق، متمعناً في السطور التي بدأت تهتز أمام عينيه ثم قال: «يا إلهي، إن هذا يشبه السجل الذي طالما تحدث عنه الأنبياء، كتاب القدر». فأجابه درويش بهلول: «بل إنه بعينه». وبدا لبرهان عبد الله كل شيء غريباً، فاختلطت في رأسه الحياة بالحلم. شعر برهبة شديدة أمام الدرويش ففتح فمه بشيء من التردد: «لا يبدو لي أنك الله». أطلق درويش بهلول ضحكة مدوية ثم قال كما لو أنه يهمس بسر خطير: «شكراً لله، إنني لست الله!»[١] وسقط برهان عبد الله في الحيرة، بعد أن غادره الرجال الثلاثة حتى أنه أراد اللحاق بهم بدون سبب واضح. كانوا رجالاً غامضين، يظهرون حيث لا ينتظرهم أحد، ويختفون حيث يطلبهم الجميع. في واقع الحال كان برهان عبد الله قد شك في حقيقة هؤلاء الشيوخ منذ اللحظة التي هدم فيها باب البرج فوجدهم يجلسون هناك. لا يمكن أن يكون هؤلاء هم خضر موسى ودرويش بهلول ودده هجري حقاً. لقد مات أولئك الرجال منذ ستة وأربعين عاماً عندما دفنوا أحياء في البرج. «ترى لماذا

(١) عبارة للشاعر الأميركي الين غينسبرغ:

Allen Ginsberg - Lysergic Acid, Kaddish and other Poems 1958-1960 (San Francisco: City Lights Books, 1961, 1982), 87.

أعطاني درويش بهلول هذا الدفتر الذي يقول عنه إنه كتاب القدر؟ لقد انتهى الموت. فأي معنى للقدر إذن؟ ماذا أفعل به؟».

قلب الدفتر السميك الذي وضعه أمامه على المنضدة فإذا به يرى تاريخ البشرية كله أمامه: رجال ونساء وأطفال يولدون ثم يموتون. قبائل وأمم تظهر مثلما تنبت الطحالب وتغيب في قلب الزمن. حروب لا نهاية لها، خيانات تكاد تشبه قصصاً بوليسية، أوبئة تجتاح المدن فتفتك بالناس، طغاة وقادة يقيمون المشانق في أسواق المدن القديمة، سيافون يقطعون الرؤوس وطهاة يرمون ضحاياهم في قدور القير المغلي. أطفال صغار أبرياء يحترقون داخل أسوار المدن المحاصرة ونساء حبالى يبقر الجند بطونهن بالرماح. ملوك تقطع رؤوسهم بالمقصلة وأنبياء يقتلون أو يحرقون ويذر رمادهم في الريح. كان درويش بهلول قد وصف كل شيء بدقة جعلت برهان عبد الله يرى وقائع الزمن أمامه مثل شريط سينمائي، لا ينقطع. السعادات تنقلب إلى فواجع والولاءات تقود إلى الخيانات. البطولة تنسى بعد نهاية الحفلة والجمال يذبل في عنفوانه. تأمل برهان عبد الله وقائع الكتاب أمامه فأصيب بما يشبه الرعدة في جسمه «لا تاريخ سوى تاريخ الضحايا». وانتابه ود عميق تجاه درويش بهلول الذي كان يسحب أقدامه منذ أن ظهر أول إنسان فوق الأرض، قاصداً ضحاياه المرتجفين وواضعاً يده المتخشبة فوق جباههم قبل أن يشطب أسماءهم «يا إلهي لكم تعذب هذا الرجل! ترى كيف تحمل ذلك كله؟». واصل القراءة حتى بلغ الزمن الذي حل فيه الربيع على جقور وانتهى الموت. لم يعد ثمة ضحايا. انحسر الشر عن العالم واختفت الشياطين التي كانت توسوس في قلوب الناس وانتصرت البراءة، تلك التي بشر بها القديسون والأنبياء ودعاة الأيديولوجيات الكبرى. وفكر برهان عبد الله «ربما كانت عودة إلى البداية المقدسة، ربما كانت

عودة إلى الجنة التي طرد منها آدم وحواء. وماذا في ذلك؟ لقد دفعت البشرية ثمناً باهظاً حتى الآن، لتشق طريقها إلى فردوسها المفقود».
وقلب صفحات الكتاب بسرعة ليعرف إن كان الربيع الذي قد حل فوق جقور سوف يستمر إلى الأبد. كان ما يهمه الآن هو أن يعرف نهاية القصة التي يقرؤها، مثلما كان يفعل أحياناً مع القصص البوليسية التي ما كان يطيق انتظار معرفة المجرم فيها، فيقفز إلى الفصل الأخير الذي تنحل فيه عقدة القصة. ولكنه كان يفقد عادة الرغبة بعد ذلك في مواصلة قراءة الفصول التي تركها. فإذا كان قد عرف السر فإن التفاصيل الأخرى تكون فائضة.

لم يكن في الكتاب فصل أخير مثل الكتب الأخرى وإنما فصل أبيض حتى النهاية يبدأ بكلمة واحدة: «فجأة»، ثم لا شيء سوى البياض. اغتاظ برهان عبد الله بعض الشيء: «يا للدرويش الماكر. لقد ترك كل شيء مفتوحاً. لا بد أنه احتفظ لنفسه بدفتر آخر، يتضمن تكملة القصة». وشعر بالقلق وهو يعيد النظر المرة تلو الأخرى في كلمة «فجأة» التي أثارت الرعب في قلبه. فجأة يمكن أن ينتهي كل شيء. فجأة يمكن أن يموت الإنسان. فجأة يمكن أن تنزلق الأرض من محورها وتغور في أعماق الكون. ما كان يعول كثيراً على الصدف ولكنه كان يعرف أن الصدفة احتمال واقعي يمكن احتسابه حتى بالكومبيوتر. لم يكن الأمر يتعلق هذه المرة بالصدفة وإنما بالقدر المدون منذ الأبدية، وهو قدر أحزنه أن يظل بياضاً، مثل فعل ناقص. فجأة رأى الفصل الأخير يكتمل بالوقائعالتي تنقصه. وقف مشدوهاً، لا يكاد يصدق ما تراه عيناه. كانت جقور قد تحولت إلى خرائب، ينعق فيها البوم، أطلال مجد غابر، محاه الزمن حتى لكأنه ما وجد أبداً. كانت الأسود والذئاب والضباع وبنات أوى تجوس المغارات التي لجأ إليها الأحياء الأخيرون وتفترس الجثث التي ترمى في الأزقة

بعد أن فقد الناس الرغبة حتى في دفن موتاهم. وسمع برهان عبد الله صوتاً مدوياً ينفخ في الصور، معلناً نهاية الربيع الكاذب. كان برهان عبد الله نفسه مهدداً، ولكن الألم الذي اعتصر قلبه جعله ينسى حتى الخطر المحيق به. من وراء الصخور التي التجأ إليها رأى مخلوقات خضراء صغيرة قادمة من كل فج عميق تغزو المدينة الميتة وتشعل النار حتى في أحجارها، مخلوقات ترتدي البدلات العسكرية وتزين أكتافها بالنجوم. ففكر «ربما لم ينحسر الربيع تماماً عن المدينة كلها». ولكنهم كانوا يقصفون مدينته بالقنابل الذرية والكيمياوية. تساءل والدموع في عينيه «لماذا يفعلون ذلك؟ لقد انتهى كل شيء. فماذا يريدون أكثر من ذلك؟». وأحس برجل يكاد يكون عارياً، يشبه الوحش بشعره الأشعث يزحف بين الحطام على يديه ورجليه باتجاهه فجفل ولكن الرجل طمأنه قائلاً: «إنهم يمرون كل يوم من هنا ويحرقون كل شيء يصادفونه». ولم يجد برهان عبد الله بداً من أن يسأل الرجل «ولكن من هم هؤلاء؟». قال الرجل بصوت يشبه العواء: «ما هذا الذي تقوله؟ من الواضح أنك غريب في هذه المدينة». قال برهان عبد الله: «لقد أمضيت ستة وأربعين عاماً في المنفى. هذا كل ما في الأمر». قال الرجل وهو يزحف مبتعداً: «إنهم ياجوج وماجوج الذين ربما كنت قد سمعت بهم. ما كان ينبغي لك أن تعود إلى هذه المدينة الملعونة». ظل برهان عبد الله ماكثاً في مكانه وراء الصخور، لا يجرؤ حتى على أن يرفع رأسه. كان قطيع من الذئاب قد اجتاز محلة جقور لتوه. وتحت عمود كهرباء مائل رأى أسدي الحديقة الحجريين يفترسان حماراً، يبدو أنه كان قد فقد صاحبه أو أضل طريقه. «كان ربيعاً كاذباً، ذاك الذي رأيته». وانتبه «ربما ما رأيت شيئاً أبداً، ربما كان ذلك كله وهماً اختلقته في ليالي منفاي الطويلة». وراح يردد مثل مريض مصاب بالحمى «ما كان ينبغي لي أن أعود أبداً. ما كان ينبغي لي أن أستمع

إلى ملائكتي الثلاثة. لقد خدعت منذ اللحظة التي تشبثت فيها بأمل، تبدى عن وهم. لقد أمضيت حياتي كلها في انتظار ربيع مطفأ. أجل، كان ثمة ربيع، ولكنه انطفأ، لأن الملائكة الثلاثة تأخرت أكثر مما ينبغي، ربما لأن الزمن أفسد الربيع داخل أكياس القنب المغلقة. آه، من هؤلاء الذين أمضيت حياتي كلها في انتظارهم». واهتزت الأرض تحت قدميه بفعل دوي هائل أعقبته عاصفة من تراب أحمر يثقب الوجه ورأى بعيداً كتلة هائلة من النار تتصاعد حتى الغيوم «لا بد أنهم قصفوا مكاناً ما بقنبلة ذرية جديدة». وحين رفع رأسه إلى السماء كاد يصاب بالخبال، إذ راح يردد دون انقطاع «لا يمكن ذلك. إن هذا يبدو مستحيلاً». كان قد رأى الشمس تشرق من الغرب. كانت شمساً أخرى، شمساً مريضة، تذكر المرء بأن كل شيء إلى زوال.

وجر جسده المتعب متخفياً بين الخرائب التي كانت قد امتلأت بالأفاعي والنمل والزواحف، محاذراً الضباع والذئاب التي كانت تنهش أجساد بعضها، ولكن أكثر ما كان يخيفه هو أن يعثر عليه جنود ياجوج وماجوج الذين كانوا يذبحون كل من يعثرون عليه من البشر أو يشنقونه ويتركونه، معلقاً على جانب الطريق الذي يسلكونه. ما كان برهان عبد الله يعرف إلى أين يمكن أن يذهب. لم يعد أحد في جقور. لا بد أن الكثيرين اختفوا في الثقوب والمغاور والسراديب. لم يكن ثمة بد من العودة إلى البيت. «سوف أختفي هناك وأنتظر». وضحك لفكرة أن يجلس هناك وينتظر، إذ ما الذي يمكن أن ينتظره هذه المرة؟ في الماضي، في الماضي البعيد انتظر دائماً وصول ملائكته الثلاثة. أكيد أنهم تأخروا طويلاً، ولكنه ما فقد الأمل في وصولهم قط. ترى من ينتظر الآن؟ وقال برهان بصوت يكاد يكون صراخاً: «لا أحد، لا أحد على الإطلاق».

بينما الريح العاصفة تعول مزمجرة، جارفة معها علباً فارغة، مرمية

في شوارع مهجورة، ومِزق جرائد ونباتات شوكية مقتلعة من جذورها، في فضاء ملطخ بصفرة داكنة ألقى برهان نظرة أخرى على الشمس الذابلة المرتفعة من الغرب. كان ذلك أكثر مما يطيقه: «ما كنت أعتقد أنني سوف أشهد هذا اليوم أيضاً». كان الأمر يشبه يوم القيامة الذي ما كان أحد يشك في قدومه. ولكنه ما كان يريد أن يعترف لنفسه بذلك. لم يكن خائفاً من الموت، بقدر ما كان مرعوباً من فكرة أن يكون شاهداً على موت عالم أحبه حتى المرض. «لا يمكن أن ينتهي كل شيء، هكذا دفعة واحدة، وإلا فقد كل شيء معناه». وجر نفسه حتى البرج الذي كان يقيم فيه خضر موسى وصاحباه، لعلهم يهدئون روحه، لعلهم يكشفون له سر هذه النهاية المفجعة التي داهمته. «ربما كان الله يلعب مع البشر». وتذكر أن آينشتاين أعتاد أن يقول إن الله لا يلعب النرد أبداً. «إذا لم يكن الله يلعب النرد، فماذا يلعب إذن؟ لا بد أن أحداً ما يلعب النرد، هذه المجرات كلها، هذه الشموس التي لا عد لها، هذه الكواكب، هذه الأقمار، هذه الفضاءات، هذه الانفجارات الكونية، هذه النهايات التي لا نهاية لها، هذه البدايات التي لا بداية لها، هؤلاء البشر الأدعياء، هؤلاء الذين يولدون ثم يموتون، هؤلاء القادة المؤمنون بالمجد، هؤلاء الأبطال الذين تعلق على صدورهم الأوسمة، هؤلاء الأطفال الذين يموتون قبل أن يولدوا، والذين يموتون بعد أن يولدوا، هؤلاء المحبون وهاته العاشقات، هذه الأجيال الشقية المضطربة والأجيال السعيدة، هذه المدن، هذه القرى، هؤلاء العرب وهؤلاء اليهود، هذه القردة المتقافزة بين جذوع الأشجار، هذه الغيوم، هذه الرعود والبروق ربما امتلكت معنى ما، ربما ما امتلكت أي معنى. ربما امتلكت معنى أنها لا معنى لها».

كان برهان عبد الله يتنفس بصعوبة ويقف على حافة ما يشبه

الموت، تلك الغيبوبة التي لا تشبه أي غيبوبة أخرى، مما جعله يفتح فمه مثل سمكة تمسك بها كف خارج الماء ويهمس لنفسه: «كلا، إنني لا ألعب النرد أبداً». كان الزمن قد عصف بالبرج فحوله إلى ما يشبه أثراً تاريخياً مهجوراً. جدران متصدعة وسلالم مهدومة، انفلتت حجارات كثيرة منها وتراكمت في الزوايا. خراء كلاب وعلب كوكاكولا فارغة، بقايا صحف ومجلات قديمة، لم يعد أحد يذكرها، كتب أدعية وسحر مكتوبة باليد، ما يكاد المرء يلمسها حتى تتحول إلى تراب، جرذان تقرض الحجر والحديد ونسيج عناكب وعقارب سوداء أو صفراء صغيرة تقف أمام ثقوبها متأهبة. كان باب غرفة البرج متآكلاً بفعل الرطوبة ومضي الزمن والأرضة التي كانت قد شقته طولاً وعرضاً، ولذلك ما كاد يدفع الباب برجله حتى هوى إلى الداخل، مثيراً غباراً ملأ المكان وجلبة جعلت أسراباً من البوم والوطاويط تفز مرعوبة وتحلق من فجوة الباب الذي انفتح أمامها حتى أن بعض الوطاويط ارتطم به. وفتح عينيه على ثلاثة هياكل عظمية، مرمية في زوايا الغرفة فوقف جامداً، لا يكاد يركز على شيء. أراد أن يقول شيئاً ما إلاّ أن فمه ظل مغلقاً. ورأى نفسه يتأتىء لأول مرة في حياته: «لا لا لا لا يم يم يم كن ذلك. ها ها هذا غير صحيح». وشعر برغبة عارمة في الضحك، متذكرا صديقاً كان يتأتىء كلما تحدث عن الفتاة التي يحبها. ففكر برهان متأتئاً: «وووولكن ن ن نه لم لم لم ير جث ث ث ثا م م مثلي. » شاعراً أنه مصاب بالحمى، فغادر البرج منحدراً إلى الشارع وقد نسي تأتأته.

ظل يتسلل بين أزقة مهجورة، تبدو وكأنها مغطاة بالرماد، حيث رأى نساء ورجالاً وأطفالاً يتخفون وراء الصخور وداخل أطلال بيوتهم القديمة مثل أشباح خائفة حتى من نفسها. كان دوي المدافع يسمع من بعيد في الريح التي كانت تعول مثل موكب نساء متشحات

بالسواد، وأعتمت الشمس رغم أن النهار كان لا يزال في منتصفه. ثم أضيء الكون بنور ساطع فرفع رأسه، حيث رأى ثلاثة كواكب هائلة، كتل من النار ترعد في السماء مقتربة من بعضها الآخر، كما لو أن قوة خرافية تجتذبها ثم تصطدم مسببة دوياً، اهتزت معه الأرض فانقذف في الفراغ قبل أن يسقط على الآرض مرة أخرى، حيث ظل مضطجعاً على ظهره، لا يقدر على النهوض. وبدأت السماء تمطر قطرات نار ملتهبة، جعلت الناس تهرب من مكان إلى آخر، محنية الرؤوس وهي تصرخ بصوت موحد يقرب من البكاء:

يا متى؟

يظهر الغائب

يا متى؟[1]

فكر: «يا إلهي، إنهم ما زالوا ينتظرون غائبهم الذي سيعيد النظام إلى الكون». وحدق في السماء مرة أخرى. رأى أقماراً تبزغ ثم تنقذف هادرة في ظلمات الكون، وكواكب تنفجر وشموساً تنطفىء ومجرات هائلة ترتطم فتتعاقب النهارات والليالي. إبتسم مثل طفل وهو يرى هذه الألعاب النارية الكونية فتمتم: «إن احداً ما يلعب في مكان ما». كان يعرف أن ثمة قيامة ما في الفصل الأخير من هذه الدراما، ثمة نهاية أكيدة ومخيفة، حيث تحل العتمة فوق سهوب من الصقيع والجليد. كان يعرف أن الكرة الأرضية سوف تبدأ نزعها الطويل في يوم ما في المستقبل البعيد المجهول. ولكن ما كان يهمه ليس الزمن وإنما المعنى. لا يهم إذا ما جاءت النهاية الآن أو بعد مليار سنة. فإذا كان قد حكم على هذا الكوكب بالموت والانطفاء في نهاية الرحلة فأي معنى يبقى للمجد والحب والعذاب والصبوات؟ للمحاربين يشقون

(١) هتاف يردده الشيعة في جنوب العراق أثناء مواكبهم الدينية.

طرقهم في الصحارى وفوق الجليد؟ للجلادين يسوطون ضحاياهم وللقادة يلقون الخطب؟ أي معنى يبقى لعمل العباقرة ومغامرة المكتشفين وتعب المبدعين؟ كان يجلس أحياناً ويبكي: «لا يمكن أن نفقد كل شيء في لعبة نرد». ولكنه كان يعزي نفسه دائما: «ثمة ملايين من الأعوام تفصلني عن النهاية. ثمة وقت كثير للحياة. فإذا لم يكن ثمة معنى آخر في هذا العالم فإن الحياة هي المعنى، حتى إذا كانت محكومة هي الأخرى بالموت، حتى إذا كانت حياة من دون أمل». ولكن ها هي القيامة تحل قبل الأوان، ربما لآن أحداً ما أخطأ في اللعب أو ربمالآن الناس انتظروا مثله ربيعاً حل على الأرض فإذا به ربيع كاذب، ربيع انتهى مثل أي ربيع آخر.

وهكذا راح يتنقل بين الخرائب أو يختبىء وراء جذوع أشجار محروقة، خائفاً من أن يمسك به جنود ياجوج وماجوج ويقطعوا لسانه أو يأخذوه معهم. كان مصاباً بالحمى، تمر برأسه أحلام وصور تهدر حتى لكأنها نهر يجرف أمامه كل شيء: خضر موسى يقود قطيعاً من الأغنام وراءه في شارع كودام في برلين عابراً بها إلى شارع نايتس بريدج في لندن. الملا زين العابدين القادري يساوم عاهرة تتكىء برسغها على نافذة مطلة على شارع في البيغال بباريس. حميد نايلون يضع على كتفه بندقية ويعبر أدغال بوليفيا المعتمة. مقاتلون أنصار يهبطون من منطاد بالمظلات فوق جبل أحد وينقذون النبي المحاصر. طائرات ميراج وسوخوي وميغ وسكايهوك وتوبوليف تحلق قاصفة فيلة الفرس في القادسية، متبوعة بمواكب أعراب، قادمين من الربع الخالي في الجزيرة العربية. ذئاب تنهش أمهات متروكات في بادية عبادان. خونة يضعون أباءهم في قوارب من قير ملتهب ويرمونها في دجلة. واتكأ برهان عبد الله على شجرة: «لا لن أستسلم أبداً». ثم غفا مثلما كان يفعل دائماً في منفاه الطويل. كان يتكىء على الأريكة،

محدقاً في شاشة التلفزيون بآلية تنسيه ما يعرض أمامه، بسبب انهماكه في رؤية صوره الخاصة التي كان يراها على شاشة مخيلته. وأحياناً كانت الحدود تنعدم بين الشاشتين وتختلط فيروي في اليوم التالي لأصدقائه وقائع، لا وجود لها.

إستيقظ على ضجة طبول تقرع بإيقاع عسكري. أبواق تنفخ وصدى خطى ثقيلة تضرب الأرض. رفع رأسه بحذر. كانت ثمة ساحة لكرة القدم. مليئة بصلبان ترتفع لصق بعضها الآخر وجنود خضر صغار يرقصون ابتهاجاً، كما لو انهم في حفل وثني قديم. وعلى طول الساحة وقفت نساء خضراوات صغيرات يصفقن أو يوزعن اللبان على الجنود. نزع برهان عبد الله قبعته، ممسكاً بها في يده وراح يزحف على بطنه، مقترباً من الساحة الوثنية. ضغط على نظارته وحدق ملياً في الأجساد المسمرة على الصلبان، فانتابت جسده الرعدة والحمى، وشعر بالغثيان. كانوا جميعاً هناك فوق صلبانهم؛ خضر موسى الذي كان قد رأى هيكله العظمي في البرج وحميد نايلون العائد من الأحراش ودلي إحسان الذي قتل فتحول إلى كتلة من نار والملّا زين العابدين القادري الذي جاؤوا به داخل عربته الذهبية ووالده عبد الله الذي ظل يرتدي بدلة عمال النفط حتى النهاية، عباس بهلوان الذي ما زال يضع مسدسه في وسطه، واللص محمود العربي الذي ما تخلى عن مفاتيحه، ودده هجري الذي ربما كان يفكر في قصيدة، لن يعرفها أحد. كانوا يحدقون فيه من بعيد ويبتسمون، كما لو أنهم يريدون أن يقولوا له «وداعا».

واهتز جسده مرة أخرى عندما رأى ما جعله يغرق في البكاء. كانوا هم أيضاً هناك. خفض رأسه «لا يمكن أن يكون هذا حقيقة». نزع نظارته ومسحها بطرف قميصه ثم وضعها فوق عينيه «يا إلهي، كيف يمكن ذلك؟» كان شيوخه الملائكة يرقصون أمام جنود ياجوج

وماجوج الخضر، وقد انقلبوا شياطين بقرون منتصبة وذيول يجرونها وراءهم. كانت صدمة لم يتوقعها أبداً، فشعر بالحنق على نفسه مردداً: «يا لي من حمار. لقد أمضيت حياتي كلها أقتفي آثار ملائكة لم تكن سوى شياطين مقنعة». كان حزيناً، ولكنه في اللحظة التي اكتشف فيها الحقيقة، شعر بقوة جديدة، ما امتلكها أبداً في حياته: الحرية.

جر نفسه مرة أخرى إلى الخرائب التي لجأ إليها البشر الأخيرون. كان قد زايله حتى خوفه، مختنقاً بعواطف لم يعرفها من قبل. وسط أنقاض غرفته التي كانت قد ضربتها الصواعق، عثر برهان عبد الله على الكتاب الذي كان كل شيء فيه قد محي ولم تعد ثمة سوى أوراق بيضاء، خلت من أي كلمة: فقال: «إنه ليس سوى دفتر مثل أي دفتر آخر». فكر أن يأخذه معه، ليدون فيه يومياته ولكنه قال: «هناك دفاتر كثيرة، فماذا أفعل به؟». وفي طريقه رماه في تنور تشتعل فيه النيران «سوف يحترق هذا الذي كان ذات يوم سجلاً للموت». وفكر في سجل آخر للحياة. ولكنه تدارك نفسه قائلاً: «ما حاجة الحياة إلى سجل؟ إنها هي نفسها السجل الأعظم». وانتهى إلى زقاق ممتلىء بالبشر. كانوا خائفين، ولكن أحداً ما عرفه، ربما من قبعته الرمادية ونظارته الطبية فهتف: «إنه الغائب الذي عاد». فاقتربوا منه متسائلين: «هل كنت حقاً غائباً وعدت؟». قال برهان: «أجل، لقد عدت بعد ستة وأربعين عاماً في المنفى». ما كاد برهان يلفظ هذه الكلمات حتى رأى البشر الأخيرين يحيطون به ويتلمسونه، قبل أن ينفجروا في صراخ جماعي وقد استبد بهم الجنون:

ظهر الغائبُ

وبدا

إنه باقٍ

أبدا.

كان ذلك آخر ما ينتظره برهان عبد الله الذي أخذ يردد: «يا لهؤلاء المساكين!»، وهو يراهم قد التفوا حوله، دائرين ومغنين، والدموع تنهمر من أعينهم فيما راحت النساء يزغردن كما لو أنهن في عرس. التفت برهان عبد الله إليهم وقال: «أنتم مخطئون. لست الغائب الذي تنتظرونه. لقد خفت من الأعداء ففررت إلى المنفى. إنني أكثر بؤساً منكم، أكثر خوفاً منكم». هذه الكلمات جعلت الحشد يزداد حماسة وهياجاً. وتقدم رجل عجوز منه وقال بمحبة: «علامة الغائب أن ينكر نفسه، وها أنت تفعل ذلك»، فراح برهان عبد الله يصرخ وقد بدأ يحنق على غباء هؤلاء الناس: «أقسم إنني لست الرجل الذي تنتظرونه. إنني رجل ضائع، لا يعرف حتى نفسه». ولكن صوته ضاع في الضجة فظل واقفاً، لا يعرف ماذا يفعل. ورأى ألوفاً من النساء والرجال والأطفال تخرج من بين الأنقاض والثقوب وتنضم إلى الحشد البشري الذي كان يزداد اتساعاً، ناقرة على الدفوف والطبول. ونهض رجل قال: «سوف يقهر الغائب جيش ياجوج وماجوج ويعيد النظام إلى الكون». ففكر برهان عبد الله «يا إلهي، أي ورطة هذه! إنهم يتشبثون بقشة. ما كان ينبغي لي أن أعود أبداً إلى هذه المدينة».

كانت الضجة قد اجتذبت جنود ياجوج وماجوج الذين أحاطوا بالمكان، طالبين إلى البشر الأخيرين العودة إلى مخابئهم وراء الصخور وبين الأنقاض. دب الذعر في قلوب الرجال فرموا دفوفهم وابتلعت النساء هلاهلهن وكف حتى الأطفال عن البكاء، فانسحبوا زاحفين على بطونهم واختبأوا داخل الثقوب وفي الحفر وما بين الصخور، حتى لكأنهم لم يكونوا موجودين من قبل. لكن برهان عبد الله ظل واقفاً في مكانه، منتظراً الجنود يتقدمون نحوه، شاهرين حراب بنادقهم. فكر أنهم سوف يطعنونه المرة تلو الآخرى: «هذه هي النهاية إذن». كان الجنود يقتربون منه خطوة بعد أخرى. «ما كان يمكن

لي أن أطيع أوامرهم وأن أدفن نفسي في ثقب مثل الآخرين». كان ذلك أكثر مما يمكن احتماله. كان وحيداً وكان الجنود يتقدمون صوبه، شاهرين حرابهم، فقال بحزن: «لا يمكن أن أموت. لا أستطيع أن أتصور نفسي ميتاً حتى إذا كان العالم كله قد انتهى». وشعر بحب طاغ للحياة، جعله يقرب من البكاء. كان الجنود الخضر الصغار قد أصبحوا على بعد خطوات منه. رأى عيونهم المدورة المغسولة بالدم، تتقد وتنظر في عينيه، فرفع يديه عالياً، مثل رجل يتأهب للموت. إذّاك وكان قد فقد كل أمل في النجاة رأى يديه تتحولان إلى جناحين هائلين، ضرب بهما الهواء فارتفع عالياً، عالياً، عالياً، محلقاً في السماء وغاب.

١٢ نيسان (ابريل) ١٩٨٧ ـ ٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠

الفهرس

